

حیلمی مراد یقیناً کنوز کتب التراث

۹

مذکرات کا زانوفا

المنار
مکتبہ مصیر
۳ شارع کامل صدیقی - البغداد

هذا الكتاب الخالد .. وتقييم أعظم أدباء العالم له !

إذا ذكر اسم « كازانوفا » ، قفزت إلى الذهن صورة أستاذ الهوى وفارس الغرام ، الملتف بغلائل من الخيال تجعله في عداد شخصيات الأساطير والخرافات .. ولقد عاش « كازانوفا » — في إيطاليا — في عصر جمع بين الفروسية والشهامة من ناحية ، وبين الاستهتار والفجور من ناحية أخرى ، فكان له نصيب في الناحيتين على السواء !

لقد أحب كازانوفا ألف امرأة وامرأة .. وغرر بملك .. وعبث بعقول قارة بأكملها .. ثم كتب في النهاية — في سن السبعين — مغامراته وأحداث حياته في كتاب ، يكفي في تركيته أن تجمع على الثناء عليه ، وتحتشد لتقريظه ، آراء كل هؤلاء الأفاضل من أدباء العالم ونقاده :

فقد وصفه الأديب العالمى الفذ « ستيفان زفايج » بقوله :

« ياله من كتاب ! بل يالها من رواية !.. إنها تعرض — في قصص مشوقة ، تثير العواطف — جميع طبقات المجتمع ، وألوان الشعوب ، وأنواع المناظر ، وترسم لنا صورة لا مثيل لها في الأدب ، للقرن الثامن عشر .. بمحاسنه الخلقية ومثاليه !.. ومنذ عاش كازانوفا حياته ، وكتب قصته ، لم يقدر لروائي ولا لمفكر أن يتكرر قصة أكثر روعة ورواء .. ولا أن يصور شخصية أغرب من شخصيته .. وأقرب إلى الأساطير ! » .

وجاء في « دائرة المعارف الأمريكية » :

« .. إن مذكرات كازانوفات تعتبر الآن مرجعاً هاماً لتصوير الحياة الخاصة في القرن الثامن عشر ! » .

وقال عالم النفس الترويجي الأشهر « هافيلوك إليس » عن المذكرات :

« إن كل أديب وطيد السمعة والمكانة ، يدرك أن أية إشارة عامة إلى « كازانوفات » يجب أن تبدأ وتنتهى باستنكار أدبي لمبازله التي لا وصف لها . على أنه حين سجل سيرته بقلمه ، حباناً بتاريخ شخصي رائع حملته الأجيال إلينا مع السير الخاصة التي كتبها « القديس أوجستين » و « تشيليني » و « جان جاك روسو » عن حياتهم .. وهى تعد أسمى سيرة من نوعها ! » .

وقال الأديب الألماني الكبير « إميل لودفيج » :

« لا مرأى في شهرة « كازانوفات » ، فقد كتبت سيرته بجميع اللغات — حتى إنه ليفوق معاصريه « جيته » و « فريدريك الأكبر » في الشهرة العالمية ! — وكم من ملاين ، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، يتسمون لذكر اسمه .. في حين أنهم لا يعرفون عن أولئك العظماء الآخرين سوى بعض معلومات جافة !؟ لقد غطى تألقه على بريق الملوك والشعراء في عصره ، بل إنه يعتبر أشهر رجال قرنه بعد نابليون ، الذى قورن به في معرض الفكاهة ! » .

وكتب « جيمس ستوارت مونتهجرى » فى كتابه « كازانوفات

العجيب » :

« إن روعة هذه المذكرات ترقى بها فى رواء ، من مغامرات « فاجر » إلى « أوديسة » صغيرة !.. فهى قصة رجل قدر له أن يتخذ مكاناً إلى جوار الخالدين من أهل الأرض . بل إنه بلغ من الشهرة ذروة لا يشاطره إياها إلا

القليلون ، فأصبح اسمه علما في كثير من اللغات .. وإذا كان التاريخ لم يعرف إلا « قيصر » واحدا ، و « داروين » واحدا ، و « يهوذا » واحدا ، فإنه لم يعرف أيضا إلا .. « كازانوف » واحدا ! .

وأورد « س . جاي أندور » في كتابه « كازانوف : ما عُرف عن حياته وما لم يعرف » قوله :

« إذا أنكرنا على مذكرات كازانوف قيمتها التاريخية ، كسيرة حقيقية لكاتبها ، فإن ذلك يرفع من قدرها « كقصص غرامية خيالية ! » .

أما « ريمي دي جورمون » فكتب عن مذكرات كازانوف يقول :

« وماذالو ظهر أن المذكرات رواية « خيالية » ؟ .. لا بأس ، فإن هذا يجعل من كازانوف أعظم روائي في جميع العصور ! بيد أن هذا مستحيل ، فليس من امرئ يستطيع أن يبتكر كل هذه السلسلة من الأحداث الشديدة التباين ! »
وأما « دائرة المعارف البريطانية » — أشهر موسوعة في العالم — فقد جاء فيها ، ضمن ما كتب عن هذه المذكرات :

« كتبت بأسلوب جيد ، بارع .. وهي فوق هذا طريفة ، إذ تبدو كصورة موثوق بها لأخلاق وسلوك عصره .. » .

وأخيرا يجيء دور « دائرة المعارف الإيطالية » ، التي تقيم هذه المذكرات بقولها :

« لقد غدت هذه المذكرات أعظم وأدق صورة للحياة الخاصة في المجتمع الأوربي ! » .

العاشق الأشهر .. لم يكن وسيما !

ورغم شهرة كازانوفا العالمية، منذ القرن الثامن عشر، بصفته «أعظم عاشق عرفه التاريخ»، فإن شكله ما يزال لغزا، إذ لا يحتفظ له العالم بغير صورتين صغيرتين، غير واضحتين .. وقد ظل الأمر على هذا الوضع، إلى أن أزيح الستار عن هذا اللغز أخيرا، في يوليو عام ١٩٥٣، حيث عثر تاجر للصورة الفنية في مدينة (بولونيا) بإيطاليا على صورة مطمورة في أحد المخازن، فلما أزال عنها الغبار قرأ عليها هذه العبارة: «جان جاك كازانوفا، ١٧٦٧» .. وقد تحقق الخبراء من صدق ذلك بعدة قرائن، ونسبوا الصورة إلى رسام من أصدقاء كازانوفا كان يدعى «رفاييل منجز» .. وقد رسمت الصورة للعاشق الإيطالي الأشهر وهو في سن الثانية والأربعين، وهي تظهره مصابا بتضخم الغدة الدرقية، جاحظ العينين، ذا دقن مدبب، وأنف ضخمة، وشفنتين تمان عن ميل شهواني .. ولا شك أن مواهب أخرى — غير وسامة الوجه — هي التي خلعت على المفامر الأشهر سحره الفتاك الذي لا يقاوم !

الجزء الأول

ينحدر من أسرة « عشاق » !

كانت أسرة « كازانوفا » تنحدر من أصلا ب ابن غير شرعى لل دون فرانسيسكو كازانوفا يدعى « دون بيتر » ، قدر له أن يغدو سكرتيرا للملك ألفونسو الأسباني ، ثم اختطف في سنة ١٤٢٨ راهبة جميلة فر بها إلى روما .. وما لبث البابا أن صفح عنه وأحل الراهبة من موثيقها ، وبارك زواجهما ! وولد « جايتان جوزيف جاك » — والد مؤلف هذه المذكرات — في سنة ١٦٩٦ ، ولم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره حتى هجر أسرته ، وهام وراء ممثلة كانت تقوم بأدوار الوصيفات ، فاحترف الرقص — ليكسب عيشه وينفق عليها — ثم غدا بعد خمس سنوات ممثلا .. وما لبث أن هجر الممثلة وسافر إلى البندقية ، حيث التحق بفرقة فكاهية ، وأحب ابنه « إسكافي » ، وهى الحسناء الفاتنة « تسانيتا » . وإذ خشى ألا يوافق أبواها على زواجهما منه ، هرب معها ، وتقدم الحبيبان ومعهما الأوراق اللازمة والشاهدان إلى بطيريك البندقية ، فعقد قرانهما .. ومات « الإسكافي » محسورا ، لزواج ابنته من « ممثل » !.. أما زوجته « مارتسيا » فاكثفت بإبداء دهشتها مما جرى !

« وولدت أنا — صاحب هذه المذكرات — في ٢ إبريل سنة ١٧٢٥ ، بعد هذا الزواج بتسعة شهور .. وفي العام التالي ، تركتني أمي في رعاية أمها — التي كانت قد صفحت عنها — لتصحب أبي في رحلة إلى لندن ، حيث قدر لها الظهور على خشبة المسرح للمرة الأولى .. وحيث أنجبت أخى « فرنسوا » الذى غدا نقاشا ذائع الصيت ..

وعاد والدى إلى البندقية في نهاية سنة ١٧٢٨ .. وما لبثت أمي أن أنجبت بعد عامين أخى « جان » الذى غدا مديرا لأكاديمية الرسم في (درسدن) بألمانيا .. ثم رزقت في خلال السنوات الثلاث التالية بابنتين ، ماتت إحداهما في الصغر ، وتزوجت الأخرى في درسدن .. كذلك كان لى أخ أصبح قسا ، ومات في روما منذ خمس عشرة سنة .

أما أنا ، فلم يستيقظ ذهني الواعى قبل أول أغسطس سنة ١٧٣٣ ، حين كان عمري ثمانى سنوات وأربعة شهور — فقد كان إدراكي مغلقا قبل ذلك ! — وكل الذى أذكره عن هذا التاريخ ، هو أننى كنت أقف مستندا إلى الجدار في ركن من غرفة ، وأنا أحملق في سيل من الدم أخذ يتدفق من أنفى .. وأسعفتني جدتي « مارتسيا » — وكنت أثيرا لديها مدللا — ثم أخذتني دون أن يفطن أحد إلى جزيرة على مسافة نصف فرسخ من البندقية ، حيث ولجت بي بيتا كأنه الجحر ، وجدنا فيه عجوزا تهاست معها جدتي برهة ، ثم دست في يدها قطعة نقدية ، ففتحت العرافة صندوقا وأرقدتني فيه ، ثم أغلقتة علىّ وهى توصيني بأن لا أخاف ! .. ولم أحفل بالأصوات التى أخذت أسمعها وأنا فى

الصندوق : ضحك ، وبكاء ، وغناء ، وصرخات ، وطرقات .. ثم رُفعت من الصندوق أخيرا ، وقد توقف النزيف ، وأرقدتني العجوز على فراشها وخلعت عني ثيابي ، وأشعلت بعض الأعشاب ، وأخذت تتلقى دخانها في قطعة من قماش لم تلبث أن لفتني بها وهي تتلو بعض التعويذات .. ثم أعطتني خمس قطع من الحلوى ، وأخذت تدلك صدغي وقفاى بزيث عذب الرائحة ، وأنبأتني بأن النزيف لن يلبث أن يفارقتي رويدا ، على شريطة أن لا أفضى لأحد بشيء . مما جرى ، وإلا تسرب منى كل دمي ، ومت !.. كذلك قالت لي إن سيدة جميلة ستزورني خلال الليل وتسعدني ، بشرط أن لا أصارح أحدا بشيء أيضا .. وما كنت بحاجة إلى هذه التحذيرات في الواقع ، إذ لم يكن لي أصدقاء أروى لهم أسرارى !

وفعلا ! استيقظت بالليل لأرى سيدة جميلة تهبط من مدخنة المدفأة ، فتفرغ على رأسي ما كان في جيوبها ، وهي تردد كلمات لم أفقه لها معنى !.. ثم انصرفت كما جاءت وأنا لا أدري أكانت هذه الزيارة من فعل السحرة أم من أثر الوهم !.. ومنذ ذلك اليوم أخذ النزيف يقل رويدا .. وبدأ ذهني ينشط ، حتى أنني تعلمت القراءة في أقل من شهر !

ومات أبى بعد ذلك بشهور ، وهو لم يتجاوز السادسة والثلاثين .. وأحاطت بجنائزته أحزان الرأى العام ، فقد كان في طليعة الممثلين .. وكان قبل موته بيومين قد جمعنا حول فراشه في حضور السادة « جريمانى » — وهم ثلاثة من نبلاء البندقية — فعهد بنا إلى رعايتهم ، وأمى غارقة في دموعها ..

وعلى الرغم من جمال أمى وشبابها ، فقد رفضت كل الزيجات التي عرضت عليها بعد وفاة أبى ، وكرست حياتها لتربية أولادها ، وقد وجدت من واجبها أن تفكر في امرى قبل سواى ، لا لشيء إلا لمرضى .. فقد كنت ضعيفا ، فاقد

الشهية ، عاجزا عن أداء شيء .. كنت أبدو غيبيا ، وقد حار الأطباء في تعليل سر ضعفى .. وقرر أحدهم أن خير علاج لى هو تغيير الجو الذى كنت أعيش فيه . وقد اهتم بذلك مسيو « بافو » — وكان أعز صديق لوالدى — فعمل على إرسالى إلى « بادوا » .. ورحلت بصحبة الأسقف « جريمانى » وأمى إلى هناك ، حيث كان فى انتظارنا كيميائى من أصدقاء الأسقف يدعى « أوتافيانى » ، صحبنا إلى منزل أرملة تدعى « سنيورميدا » ، تقرر أن أعيش فى رعايتها .. » .

وأخذ كازانوفاً يتردد على مدرسة يديرها قس شاب يدعى الدكتور « جوتزى » ..

بيد أن الفتى لم يكن ذا عهد بشظف العيش ، وبالملاعب التي كانت تحوطه في بيت الأرملة العجوز . كانت الجرذان والهوام في ذلك الجحر تستبقيه مسهداً طول الليل ، فتتسبب لدغات الهوام خوفاً من الجرذان .. ويشغله الخوف من هذه عن الشعور بالألم من تلك ! .. وإذ لاحظ الدكتور « جوتزى » أنه كان ينام في الفصل ، ورغب في تفقد الوسط الذي كان يقيم فيه ، وأنحى باللائمة على الأرملة العجوز لإهمالها في شأنه .. وشيئاً فشيئاً ، أخذ كازانوفاً يتفوق في دراسته ، مما قرب به إلى القس ، فجعله « ألفة » الفصل ، وصار يستعين به في تصحيح أعمال بقية الطلبة ، ولما كان الفتى الصغير لا ينال كفايته من الطعام ، فقد راح يفرض على الطلبة « إتاوات » من الأغذية والنقود ، كى يحايبهم في الدرجات !

على أن الدكتور جوتزى لا يفتأ يغرى الفتى على الكتابة لأهله عن الحياة الزرية التي يلقاها لدى العجوز ، حتى تفد جدته لتفقد الأمر بنفسها ، وتنتهى إلى أن تنقله ليقم في كنف القس الشاب ، وتبتاع له ثياب رهبنة ، وتزيل شعره الذى امتلأ بالقمل ، وتشتري له طاقية شعر مستعار .. ويذهب أستاذه في إكرامه إلى حد أن يشركه معه في فراشه الكبير !

« كانت أسرة الدكتور جوتزى تتألف من أم تبالغ في إكباره وتوقيره ،

وأب كان « إسكافيا » متواضعا ، وأخت تدعى « بتينا » ، حلوة ، جميلة ، شغوفة بقراءة الروايات الغرامية ..! وكانت في الثالثة عشرة من عمرها ، وقد لاحظت أنني أثرت اهتمامها — لغير ما سبب أدريه — وما لبثت أن أذكت في فؤادي رويدا أولى جذوات العاطفة ..

لكن تلاميذ القس أخذوا ينصرفون عنه تباعا ، لأنه أخذ يقصر كل عنايته عليّ ..! وفي هذه الأثناء ، كان قد فتح أمامي كل الطرق للعلم ، ودربنى على العزف على الكمان ، ولقنني أصول الشعر ، والفلسفة ، والجدل ، والتاريخ .. وحدث أن اعتزمت أُمِّي في أثناء الصوم الكبير من عام ١٧٣٦ السفر إلى « سانت بيتر سبورج » ، فأرسلت إلى أستاذي تدعوه إلى أن يصحبني إلى البندقية لكي تزود منى بقاء قبل سفرها .. ورافقني القس مترددا ، ولكن أُمِّي استقبلته في حفاوة وإكرام .. وكانت باهرة الجمال ، مما جعله يحس بحرج وارتباك .. وقد فطنت أُمِّي لذلك ، فشاعت أن تتخذ منه مادة للتسلية ..! وفي الوقت ذاته أثرت أنا اهتمام المحيطين بأُمِّي ، لما استطعت أن أصيبه من تقدم خلال عامين اثنين ، مما عزى الفضل فيه إلى أستاذي .. وكان مما ساء أُمِّي أن الشعر المستعار الذي كنت أستعمله لم يكن يتفق مع سمرة بشرتي .. وإذ سألت أستاذي عن السر في عدم إطالتي شعري الطبيعي ، أجاب ببساطة وصراحة بأن « بتينا » — شقيقته — كانت ترى في استعمال الشعر المستعار ما يخفف عليها مشقة العناية بنظافتى ..! فوعده أُمِّي بهدية طيبة لشقيقته إن هي عنت بشعري الطبيعي ..

وظل القس بعد عودتنا إلى « بادوا » ثلاثة شهور أو أربعة ولا حديث له إلا أُمِّي ..! وكانت هذه قد حملته ثوبا من الحرير الأسود واثني عشر زوجا من القفازات إلى « بتينا » ، فلم يعد للفتاة من شاغل سوى العناية بى وبشعري الذي أخذ ينمو ويسترسل .. وكانت تسرف في تقبيلي ولمس جسدى

وبشرقي ، فيغيظني هذا لعجزى عن أن أعاملها بالمثل — فقد كنت أصغرها بثلاث سنوات ، وكان مجرد التفكير في أنها يمكن أن تحب غلاما مثلي ، ضربا من القحة وسوء الأدب ، في رأيي ! — على أنني ما لبثت أن تشجعت وأخذت أرد على قبلاتها بقبلات حارة ، حتى إذا شعرت أنني أوشكت أن أتجاوز حدودي ، أمسكت .. فإذا ما انصرفت ، عدت أنحى على نفسي باللوم لأنني لم أزد !

وفي أوائل الخريف ، تلقى الدكتور جوتزى ثلاثة تلاميذ جدد ليقيموا في كنفه ، وكان بينهم فتى في الخامسة عشرة سرعان ما اكتسب ود « بتينا » ، فإذا بي أحس نحوه بشعور جديد ، أدركت بعد سنين أنه كان « غيره » ! أما يومئذ فلم يخطر لي ببال أن اقتراب ذلك الفتى من الرجولة كان يجعله مفضلا عني .. ولاحظت « بتينا » غيرتي النامية ، فجاءتني ذات صباح وأنا بعد في الفراش ، وكنت أرتدى جوربين من نسج يديها ، فأرادت أن تتلطف معي فتقيسهما بنفسها .. وفيما كانت تفعل ، لاحظت أن ساقي قدرتان ، فعمدت في الحال إلى تنظيفهما بنفسها .. وأخذت تتمادى ، وترتفع بالنظافة إلى أعلى .. وأشاع عملها ولمساتها في نفسي شبقا .. لم ينته إلا في أبعد حد لا ينبغي تجاوزه !

وإذ استعدت هدوءي ، رحت أستغفرها ، فقالت في رفق إنها الملوثة ، ووعدت بأن لا تعود إلى اقتراف هذا الذنب ثانية .. ثم انصرفت وتركتني ألوم نفسي ، وأرى فيما فعلت انتهاكا لشرفها ، وخيانة لأستاذي الذي ائتمنتني .. وانتهيت إلى أن لا علاج لما فعلت من جرم إلا بالزواج من الفتاة !

واشتد بي الحزن يوما بعد يوم .. وحرصت الفتاة على أن لا تفد إلى مخدعي في الصباح ، وكان خليقا بي في الأسبوع الأول أن أعزو ذلك إلى « تحفظها » ، لولا أن ما كانت تبديه نحو « كوردياني » — الفتى الآخر — سم

بالغيرة دماغى .. ومع ذلك فما خطر لى قط أن أتهمها بأنها كانت تقترب معه عين الجريمة التى ارتكبتها معى ! .. وكتبت إليها رسالة — خيل إلى أنها تحفة أدبية — حاولت فيها أن أسترضيها ، ولكنها مضت بُعد ، وتحلف ، فلا تزيدنى إلا انشغالاً بها ! .. وسألتنى أن أصحبها إلى حفلة راقصة وأنا فى زى فتاة ، فلما أبييت ، زادت صداداً وإعراضاً !

وحدث أن رحل القس وأبوه إلى الريف تلبية لدعوة صديق يحضر .. وخطر لى أن الفرصة مناسبة لتوطيد علاقتى ببتينا ، فأنبأتها بأننى سأترك باب غرفتى موارباً أثناء الليل كى توافينى بعد أن ينام الجميع ! .. وكان التلاميذ الثلاثة ينامون فى طرف ناء من البيت .. أما هى فكانت تنام فى حجرة ضيقة بالطابق الأرضى . وكنت وحيداً فى مخدعى فى تلك الليلة ، لغياب أستاذى ، فظللت انتظرها .. وانتصف الليل ، وأخذت كل ساعة تمر تزيدنى انفعالاً ، حتى إذا لم يبق على انبثاق الفجر غير ساعة ، تسلمت حافى القدمين إلى الطابق السفلى ، وقبعت على مقربة من باب غرفتها ، الذى وجدته مغلقاً من الداخل ! .. وخيل لى أن عمراً انقضى وأنا جاثم ، أرتجف من البرد والانفعال .. ثم فتح الباب فجأة ، فأسرعت إليه .. ولكن بدلاً من أن تبرز منه « ببتينا » ، خرج منه « كورديانى » فركلنى بقدمه فى بطنى ، وأسرع إلى الغرفة التى يشترك فيها مع زميله !

وحاولت أن أفتح باب « ببتينا » ، فإذا به موصد من الداخل ، فأخذت أركله بعنف ، وأخيراً عدت إلى غرفتى ذليلاً ، مهيناً ، يزيدنى غيظاً تغلب « كورديانى » على ! .. ورحت أفكر فى الانتقام : فى أن أفشى لشقيق الفتاة كل شئ ! .. وفيما أنا أدبر خطتى ، أقبلت أم « ببتينا » تسألنى أن أهبط لأن الفتاة تحتضر ! .. ووجدتها تتلوى على الفراش ، وقد التف الجميع حولها . ولست أدرى كيف وقفت أشهد المنظر هادئاً ، وأمامى غريمى الذى كنت

أتوق إلى أن أقتله ، والفتاة التى كنت أعترم أن أفضحها !
وأقبل الطبيب فأمر بأن تظل فى الفراش ، ونصح بعمل « كدادات » باردة لها .. وكدت أضحك ، فقد كنت أدرك أن ما بها إنما هو نتيجة لجزعها مما حدث بينى وبين « كورديانى » .. وقبل أن أغادر الغرفة لمحت ثوبها ، فعبثت أصابعى فى جيبه ، وإذا بى أعثر على ورقة فحملتها إلى غرفتى .. وكانت رسالة بخط « كورديانى » وقد كتب فيها : « بما أن أباك غائب ، فلا داعى لأن تتركى بابك مواربا ، فلسوف أتسلل إلى غرفتك بعد العشاء وأنتظرك فيها .. » .
ولم أحفل ببيتنا ولا بصرخاتها المتوجعة طيلة اليوم ! وعندما عاد القس وأبوه فى المساء ، أقبل « كورديانى » على غرفتى يسألنى عما انتويت ، فأشهرت فى وجهه مدية ، واضطررته إلى الانسحاب .. ولو أنى عولت فى تلك الأثناء على أن لا أروى للدكتور قصة الفضيحة ، إذ شعرت بتقزز من الوشاية ..

وزعمت الأم فى اليوم التالى أن ابنتها وقعت فريسة لسحر صنعتها لها الخادم ! .. ومع إنكار شقيقها لمثل هذا التفكير ، إلا أنه استدعى فى اليوم التالى أشهر مشعوذ فى « بادوا » ، وكان راهبا دميم الخلقة ، لم تكذ الفتاة حتى راحت تفهقه وترميه بأقذع السباب ، فلم يزد هذا إلا من الاعتقاد بأن روحا شريرة مستها ، فأخذ الراهب يضربها بصليب خشبى كبير .. لكن الفتاة أخذت تسخر منه وتسفهه فى جرأة غريبة ، دون أن تثير عجب من كانوا حولها ، اعتقادا منهم بأن الروح الشريرة هى مصدر تلك القحة والفحش .. ولم أستطع أن أدرك خطتها وهدفها من التماذى فى هذا الدور ! .. لكننى رأيت — إثباتا لرغبتى فى الوئام — أن أرد إليها فى تلك الليلة رسالة « كورديانى » التى سرقها منها ، والتى كانت الدليل الوحيد على جرمهما !

كانت « بتينا » ولا بد في أقسى حالات القلق لضياح رسالة « كورديانى » ، لذلك كان ردى إياها إليها دليلا عظيما على صداقتى .. بيد أنها كانت فى الوقت نفسه دليلا على أننى كنت مطلعا على خافية سرها ، إذ كانت الرسالة شاهدة على أنها اعتادت أن تستقبل الفتى كل مساء !

وفى الليلة التالية تظاهرت « بتينا » فجأة بالمرض .. ولكن الأسرة أصبحت فى اليوم التالى وليس لديها أدنى شك فى أن الروح الشريرة قد سيطرت على عقل فتاتها ! .. وقرر أخوها أن يعهد بها إلى رعاية قس يدعى الأب مانشيا ، اشتهر بأنه لم يخفق قط فى شفاء صرعى الأرواح الشريرة .. وأقبل الأب فى الصباح التالى فتبعته الأسرة كلها إلى سرير الفتاة ، أما أنا فقد أخذت بمنظر الراهب : كان طويل القامة ، مهيب الطلعة ، فى الثلاثين من عمره ، أزرق العينين .. وألفينا بتينا نائمة أو متناومة ، ففتحت عينيها حين نثر عليها الماء المقدس ، ثم أغلقتهما فورا .. وعادت تفتحهما وتتطلع للراهب ، وتعود فتغمضهما بسرعة .. ثم استسلمت لوسن هادئ ، ووضع الرجل صليبه والكتاب المقدس على صدرها ، وراح يتمتم ويصلى ، بعد أن أمرنا بأن نركع معه بجوار السرير ..

وفى الصباح التالى أخذت بتينا تتحدث حديثا رائعا ، يفوق ما يجول بخيال الشاعر .. ولم تكف حين دخل عليها الراهب ، الذى أمرنا بالانسحاب من الحجرة ، ثم بقى مع الفتاة حتى الظهر ، دون أن نسمع لأحدهما صوتا أو حركة .. حتى إذا سمع لنا أخيرا بالدخول ، بدت بتينا حزينة ، هادئة .. أما

الراهب فقد انصرف ، راجيا موافاته بأنبائها !

وقضت بتينا بقية اليوم ، وطيلة اليوم التالى ، على خير حال .. ثم حدثت الظروف التى أكدت لى أنها ليست مجنونة ، ولا بها مس من روح شريرة : ففى الصباح التالى ، حضرت إلى حجرتى ودست فى يدى وريقة كتبت فيها : « احتقرنى : ولكن تستر على شرفى واحترم الطمأنينة التى أصبو إليها . سيطلب الأب مانشيا إلى من فى البيت أن يمارسوا فريضة الاعتراف له ، وهذا ما لا ينبغى ، وأنت وحدك الذى يستطيع أن يحول دون ذلك ! وسيكون جاحك برهانا على أنك تكن لى شيئا من الصداقة .. » .

وفعلا انتهزت فرصة خلوت فيها إلى الدكتور جوتزى ، فأعربت له عن عدم رغبتى فى أن أعترف للأب « مانشيا » ، وقلت إننى أخشى أن يؤول امتناعى على غير حقيقته ، ولذا يحسن أن لا يعترف له أحد . فقال إنه يفهم الأسباب التى تعدونى إلى ذلك ، ويقرنى عليها ..

وأويت إلى فراشى فى عصر ذلك اليوم ، لجرح فى قدمى ، بينما سحب أستاذى تلاميذه إلى الكنيسة .. وانتهزت بتينا الفرصة ، وأقبلت فجلست على حافة فراشى ، وبدأت تعرب عن أملها فى أن لا أكون غاضبا منها ، فقلت لها إننى لا أكن لها سوى الصداقة ، فلا داعى لأن تخشى أن تكون قد سببت لى أى استياء ، بل إن لها أن تفعل ما يروق لها : « إننى لم أعد أشعر نحوك — بعد ما جرى — بغير عدم اكتراث ، لم يلبث بدوره أن زailنى حين لمست ما لعقلك من قوة .. لقد أدركت مدى مهارتك ، وإلى أقدرها حق قدرها ! » .

فأجابتنى بقولها : « إن كل ما ذكرت مبنى على مظاهر خادعة ، فلست أحب « كورديانى » ، ولم أحبيه يوما ، بل لى أكن له كراهية يستحقها ! » .
(مذكرات كازانوف)

.. ومضت تحاول أن تبرر ما حدث وهي تذرف الدمع ، ولكنني كنت قد
خبرت دهاءها ، فسألتها أن تفسر لي التناقض بين اعتزازها بفضيلتها بالنسبة
لي ، مع سماحها لكوردياني بأن ينتهكها في كل ليلة ! .. وإذ ذاك رمقتني بنظرة
التمتع فيها بريق الانتصار ، وقالت : « الآن وصلت إلى ما كنت أبغى أن أفاتحك
فيه : إليك قصتي مع كوردياني :

رضخت له .. خوفا من الفضيحة !

«لقد صارحنى كورديانى بحبه بعد أسبوع من استقراره بدارنا ، وسألنى أن أقبل الزواج منه إذا تقدم أبوه ليخطبنى بعد فراغه من الدراسة .. ولما طلبت إليه أن لا يعود للحديث فى هذا الأمر ، أخذ يلحف فى أن أزوره بغرفته ، ويقول إنك محظوظ لعنايتى بك ! .. وبعد أسبوعين من هذا الرفض ، عنت لنا — أنا وأنت — الساعة التى قضيناها فى العبث الغرامى الذى أيقظ فى نفسك مشاعر لم تكن تعرفها ، ولقد أسعدتنى تلك الساعة ، فإننى أحبك .. وكنت مشوقة إلى أن أدخلو إليك فى الصباح التالى ، لولا أن دس كورديانى فى يدي فى تلك الليلة هذه الرسالة : « دعينى ألج مخدعك هذه الليلة ، وإلا فسأرسل الخطاب الذى أرفق لك صورة منه .. إلى أخيك ! » .

وكان الخطاب المرفق موجهها إلى أخى الدكتور جوتزى ، متضمنا وشاية خبيثة بأن أخته تقضى كل صباح معى فى علاقة مشينة ! .. واستطردت « بتينا » فقالت إنها تركت « كورديانى » يفد إلى غرفتها فى تلك الليلة كى تسوى الأمر معه ، وقد دست فى جيبها خنجر أبيها ! .. ولم تكد تسأل الفتى عن نواياه حتى قال لها إنه شهد ما جرى بينها وبينى خلال ثقب فى جدار مخدعى .. ومضت تقول : « وأغرقتة بفيض من الإهانات المقذعة ، ووصفته بالجبين ، والتجسس ، والدناءة .. فاعتذر عما بدر منه ، وعزا مسلكه إلى شدة حبه لى ، ووعد بشرفه بأن لا يلجأ بعد ذلك إلى عنف ، وأن يحاول أن يكون أهلا لحبى .. فلم يبق لى سوى أن أقول له إننى « قد » أحبه فى المستقبل ، ووعدته بأن لا أقرب مخدعك فى غياب أخى .. وأحزننى أن لا أستطيع أن

أراك أو أعلل لك تغير مسلكي !

« .. وانقضت ثلاثة أسابيع ، كنت ألتقي خلالها لماً بكوردياني ، أمام باب غرفتي ، لأطمئن من قلقه .. وفي الليلة التي وعدت أن أوافيك فيها ، فاجأني بأن قال إنه سينتظرنى في غرفتي .. وحاولت أن أتخلص منه ، ولكنه راح يتحدثني في إسهاب عن خطة وضعها لأفر معه ، وأخذ يزين لى خطته ، ويلح ، ويلحف .. وكان قلبي يدمى من أجلك ، ولكن ضميري كان مستريحاً .. ولو أنني رأيت أن أضحي بنفسى ، وأنيل هذا الوغد الغادر ما لا ينال إلا بالحب ، لتخلصت منه في ساعة .. ولكن الموت بدا لى أهون من ذلك .. كل هذه الهموم كانت مكتوبة لى فى لوح القدر .. » .

وظفقت تبكى وتناؤه ، فتأثرت كل التأثر ، ولكننى ظلمت لا أقوى على أن أصدقها ، فقالت أخيراً : « امض فى جفءك ، وفى اعتقادك بأن آلامى محض تمثيل واصطناع .. مع أنها ليست سوى حقائق واقعة ، كنت أنت سببها ، وها أنتذا تزيدها .. لسوف تأسف على ذلك يوماً ، ولكن بعد فوات الأوان ! » .

ونهبست بهم بالانصراف ، وإذا كنت أراها قادرة على الإقدام على أى شئ ، فقد خشيت من إنذارها ، فقلت لها إن عليها — إن شاءت أن تستعيد حبي — أن تظل شهراً دون تلك النوبات التى تعترئها ، ودون أن ترى ذلك الراهب المليح الشكل ، الأب « مانشيا » !

وفى اليوم التالى عادها الطبيب ، ليجدها محمومة .. وراحت تهذى طيلة النهار .. وفى اليوم الرابع ، ظهرت عليها أعراض الجدري ، ولما كنت قد أصبت به من قبل ، فلم يكن ثمة خوف على من العدوى ، لذلك بقيت فى الدار ، بينما أقصى عنها « كورديانى » وزميلاه .. وكان المرض قاسياً ، حتى خيف منه على حياة الفتاة حين ظهرت بثوره على قمها وحلقها ، فلم تعد تقوى على ابتلاع

شيء اللهم إلا قطرات من العسل .. واعتبرتني الأسرة ملاكا ، إذ كنت أحمل
كتبي وأذهب إلى جوار فراش المريضة !
واشتدت وطأة الداء في اليومين العاشر والحادي عشر ، وأصبحت رائحة
الفتاة لا تطاق .. ولكنني كنت الوحيد الذي أبى أن يهجرها .. ألا ما أغرب
قلب الرجل ، فإن الوجد المشغوف الذي أحسسته نحو بتينا ، لم يشتعل في
قلبي إلا في هذه الفترة التي كانت معالم المرض تشوه فيها حسناتها ! وأشعرتها
رعايتي بأنني أهل لحبها ، فأحببتني من قلبها — بعد شفائها — واستجبت
لحبها ، وإن لم أستبح لنفسى الزهرة التي جعلتها الطبيعة من حق الرجل الذي
يقدر له أن يتزوجها ! — (ويا له من رجل كان هذا الزوج ! .. فبعد عامين ،
زفت « بتينا » إلى « إسكافي » وضيع ، أساء معاملتها ، وأذاقها شظف العيش ..
وعندما أقدمت على زيارتها ، في عام ١٧٧٦ — بعد أكثر من ثلاثين عاما —
وجدتها مريضة تحتضر ، ولفظت آخر أنفاسها بين ذراعي !

في صحبة زملاء السوء

وقضيت عاما آخر في « بادوا » أدرس القانون — الذي حصلت على « الدكتوراه » فيه وأنا في السادسة عشرة من عمري ! — وقد كنت في الواقع شديد الميل إلى دراسة الطب ، ولكن أحدا لم يحفل بميلي ، فاضطرت إلى دراسة القانون على كره مني !.. على أنني إذا كنت قد حرمت من أن أكون طبيبا ، فإنني كذلك لم أغد يوما محاميا ، لا ولا استخدمت محاميا في قضاياي ، ولا طبيبا في مرضي !.. وما أحسب إلا أن العالم كان يغدو أقل تعاسة لو أنه خلا من الأطباء والمحامين جميعا !

وكنت في ترددى على جامعة « بو » قد شعرت لأول مرة بالحرية .. على أنه لم يطل بي الوقت حتى تعرفت إلى أسوأ « نماذج » الطلبة : من مقامرين ، ومخادعين ، ورواد لبيوت الدعارة ، ومدمنين للخمر ، ومغررين بالعذاري !.. وفي صحبة هؤلاء ، بدأت خبرتي بالدنيا والحياة .. فقد تسلموني ، إذ وجدوني ساذجا « غشيما » ، وبدأوا يعلمونني ، لا لشيء إلا ليوقعونني في أحاييلهم !.. علموني المقامرة ليبتزوا المال القليل الذي كان لي ، ثم ليغرقوني في الدين ، ويلجئوني إلى الإقدام على أعمال غير شريفة كي أسدد ديني .. إلخ .. على أنني إنما تعلمت إذ ذاك الأسى والحزن ! وفتحت دروسهم عيني كي لا أثق في الأشرار الفاسقين الذين يفخرون علنا بآثامهم ، وكي لا أعتمد على المرائين المتملقين !.. وعلموني كذلك كيف أتصرف في صحبة المشاغبين المحيين للشجار ، وكيف أتجنب رفقتهم ..

وانتهى العام الدراسي ، فتركت « بادوا » عائدا إلى البندقية ..

مبازل الشيوخ

« لقد أقبل من (بادوا) حيث أتم دراسته » .. كانت هذه الكلمات ترافق اسمي أينما كنت ، فتحمل الشباب على أن يرمقوني في إجلال ، والآباء على أن يهثؤني ، وتجعل المسنات من النساء يضيفن على من حنانهن ، وقد تقبلني منهن من لم تتقدم بها السن كثيرا ، بحيث لا يجرها أن تبدو طائشة تقبل شابا في غير حياء .. وإن هي إلا أربعة شهور ، حتى أقنعني بطيرك البندقية بالانخراط في سلك رجال الدين ، فكادت جدتي تطير زهوا . واختير خير الأساتذة لإتمام تعليمي ، وبينهم الراهب « سكيافو » الذي انتدب ليلقنني الأسلوب الإيطالي ، لا سيما في الشعر الذي بدت عليّ مخايل الاستعداد لإجادته .. وأقمت في مسكن مريح مع شقيقي « فرانسوا » الذي كان يدرس فن العمارة المسرحية .. وكان الأب « جريمانى » هورائدى الأول ، لكنى لم أكن أراه إلا قليلا .. وما لبثت العلاقات أن توثقت بينى وبين السيد « دوما لبيرو » الذي كان عضوا في مجلس الشيوخ ، وقد أخذ يعاف — إذ بلغ السبعين من عمره — الانغماس في شئون الحكم ، وقنع بأن يحيا حياة مرفهة في قصوره ، وأن يحيط نفسه في كل مساء بنخبة من السيدات اللاتي عرفن كيف يستمتعن بأيام شبابهن ، ونخبة من السادة الذين كانوا دائما على علم بكل ما يدور في المدينة ! وكان الشيخ رغم اكتهاله ، وإصابته بروماتيزم كاد يقعه ، مدلهما في حب فتاة تدعى « تيريز إيمر » ، ابنة ممثل متقاعد يقيم في منزل بجوار قصره .. وكانت نافذة مخدع الفتاة — التي كانت في السابعة عشرة ، جميلة ، فاتنة ، لعبا — مواجهة لنافذة مخدعه ، فطاب لها أن تخلب لب عضو الشيوخ المسن ، وأن تعبت به .. وقد اعتادت أن تزوره يوميا ، تصحبها دائما أمها التي كانت ممثلة

ثم اعتزلت المسرح .. وخلال تلك الزيارات كان الشيخ الطاعن يتودد إلى الابنة ، ثم تقدم خطوة فصار يغازلها .. لكنها كانت ترفض أن تقبله ، قائلة إن في ذلك إغضابا لله .. فكان ينتفض غضبا لذلك !

وفي قصر عضو الشيوخ المذكور تعرفت إلى مدام منزوني ، زوجة مسجل للعقود ذى شهرة ، فألهمتني أعماق العواطف ، وأخلصت لى النصيح .

ولقد بعث في نفسي التعرف إلى سيدات راقيات ، رغبة طبيعية في العناية بمظهرى وأناقتى ، ولكن الأب الذى كنت أدلى إليه باعترافى ، و « جدتى » ، كانا قوين في معارضة ميلى للغرور .. وكان الراهب يذكرنى بأن مهنة رجل الدين التى ارتضيها لنفسى تتطلب أن أكرس أفكارى لله ، وليس للدنيا . وكان يسفه عنايتى بإرسال شعرى وتجييده ، وولعى بالعطور ، ويهددنى بالحرمان ، ولكننى ذكرت له أسماء آباء روجيين كانوا يتعطرون ويستعملون من المساحيق أضعاف ما كنت أستعمل ! بل إنهم كانوا يضمخون شعورهم بنوع من الدهان عنبرى الرائحة ، تكاد النساء إذا شممنه أن يفقدن وعيهم .. ومع ذلك فلم يكن يهددهم أى حرمان .. وأضفت أننى لن أحجم عن الانضمام إلى مذهب آخر ، إن شاء أن يقسرنى على إهمال مظهرى !

وأغضبه جواى ، فتسلل في صباح أحد الأيام — بعد استئذان جدتى — واقترب من مخدعى وأنا نائم ، فقص الجزء الأمامى من شعرى !

كيف اعتليت المنبر .. وكيف هجرته

وود « كازانوف » أن يقاضى الراهب ، انتقاما ، لولا أن حلاقا استطاع أن يرد إليه أناقة مظهره .. وإذ ذاك فاتح عضو الشيوخ في أنه لن يرجع عن السعي للانضمام إلى مذهب آخر من مذاهب الكنيسة .. فقال له الشيخ : « إننى كرئيس لإخوة (السر المقدس) ، أبحث عن واعظ يؤدى القداس يوم الأحد الرابع من هذا الشهر ، وسأختارك لذلك . ما رأيك فى هذا النصر ؟ » .

« ولم أكن أحلم بأن أكون واعظا ، فتولتني دهشة بالغة ، وظننت أن السيد « مالبيررو » يمزح .. ولكنه فى اليوم التالى أنبأنى بأن الأب رغب فى أن أعرض عليه موعظتى بمجرد الفراغ من كتابتها .. فقبلت هذا الطلب . وما كان أشد فرح جدتى ، إذ صار حفيدها واعظا !

وزرت الأب لأقرأ عليه ما أعددت ، لكنه كان غائبا عن داره ، فمكثت فى انتظاره .. وفى هذه الأثناء ، وقعت فى هوى ابنة أخته « إنجيلا » ، التى كانت تناهزنى فى العمر .. وحين عاد القس ، لم يبد عليه الغضب إذ وجدنى أجلس إلى ابنة أخته .. وقد أطرى العظة التى أعددتها !

وألقت الموعظة .. وكان ثمة جمع من خيرة أهل البندقية ، صفقوا لى ، وتنبأوا لى بأننى سأغدو أعظم واعظ فى عصرى .. فما سبق لراهب فى السابعة عشرة أن وفق قدر توفيقى ..

وازدهانى هذا النجاح ، فلما دعيت لإلقاء موعظة أخرى ، أهملت إعدادها ، مطمئنا إلى سرعة قريحتى .. واعتليت المنبر وقد لعب النيذ برأسى ، فأخذت أنتقل من موضوع إلى آخر ، ثم نسيت كل حديث ، فلم أجد مخرجا

إلا في اصطناع الإغماء .. وأقسمت أن لا أعتلى بعد ذلك منبرا !
و ذات مساء ، قدمنى السيد « منزوني » — مسجل العقود — إلى غانية شابة
كانت ذائعة الصيت في البندقية إذ ذاك .. وكان يغيظها أن يدعوها الناس « كفا
ماكيا » — لأن أباهما كان يعمل في تنظيف الثياب (غسالا) — ومن ثم كان
أصدقائها يسمونها « جوليت » وقد كان المركيز « دى سانفيتالى » سبب
تألقها .. ووجدتها محوطة بسبعة أو ثمانية من المعجبين — من أبناء الطبقة
الراقية — كانوا يحرقون قلوبهم بخورا تحت قدميها !.. وأخذت بجمالها ..
ورمقتنى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى ، كأنما كنت معروضا للبيع ، ثم
دعتنى — كما لو كانت أميرة — إلى الجلوس .. وإذ ذاك ، بدأت بدورى أتأملها
فاحصا ! كانت قد بلغت الثامنة عشرة من عمرها ، ذات بشرة تهر الأبصار ،
وإن خيل إلّى أن تضرج وجنتيها ، وحرمة شفتيها ، كانا من ثمار الصبغة أكثر مما
هما من خلق الطبيعة .. ولم يخف على عيني مدى ضخامة يديها واكتنازهما ..
كما بدت لى قدميها كبيرتين ، لا تروقان لعيني أى رجل مرهف الذوق ..
وزرت « جوليت » أربع أو خمس مرات ، خيل لى بعدها أن ليس من
التجنى فى شىء أن أقول فى مجلس السيد « دومالييرو » إنها لا تروق إلا لرجل
مكتنز « الكرش » ، عديم الذوق . واستحسن أصدقاء السيد ملاحظتى ، لكنه
همس فى أذنى أن ، حديثى لا بد بالغها ، ولا بد أنها ستناجزنى العداء .. وقد صح
ما تنبأ به !

وانصرفت طوال الصيف إلى غرام عذرى مع « إنجيلا » — ابنة أخت القس
الذى عرضت عليه موعظتى — وكنت ألقاها فى دار السيدة التى كانت
تعلمها التطريز .. ولم تتح لى « إنجيلا » أتفه منحة من منح الحب ، فكانت نار
الوجد تكوينى ، وكانت نجواى وتضرعائى المستهامة لا تلين لها فؤادا ، وإن
أثرنا على زميلتيها فى الدرس .. ولولا أننى كنت أثبت نظرى عليها ، لما فاتنى

أن ألحظ أن الزميلتين كانتا تفوقانها جمالا !

غرام .. فى ضيافة الكونتة !

هكذا كانت حالى حين تلقيت — فى أوائل خريف سنة ١٧٤١ — دعوة من الكونتة « دى مون ريال » لقضاء أيام فى ضيعتها فى « باسيان » .. وهناك ، أفردت لى غرفة بديعة بالطابق الأرضى ، تطل على البساتين . وما أن فتحت عيني فى الصباح التالى لوصولى ، حتى استمتعت بمنظر الحساء التى حملت إلى القهوة .. كانت صغيرة السن ، لم تتجاوز الرابعة عشرة ، لفرط نضوجها .. بشرتها فى بياض الجليد ، وشعرها فى سواد الليل ، وعيناها تشعان لهبا وبراءة .. وكان ثوبها القصير يكشف عن ساقين بديعتى الالتفاف ، وقدمين دقيقتين .. وحكمت من النظرة الأولى بأنى أمام أبهى جمال رأيته فى حياتى ! والتقت نظرانا كما لو كنا على معرفة من قبل ! .. وما أن سألتنى كيف قضيت ليلتى ، حتى انتهزت الفرصة فسألتها عن اسمها .. كانت « لوسى » ابنة البواب ، ووحيدته .. وأردفت فى سداجة :

— لقد سرنى أنك لم تصطحب خادما ، ومن ثم سأغدو خادمتك ، وسوف ترضى عنى ..

ورحت أرشف قهوتى وأنا فى دهشة من سداجتها وطلاقتها ، وفى سحر من جمالها .. بينما جلست هى على حافة فراشى فى حرية وبساطة . ولم تتحرك حين أقبل أبواها ، بل تطلعت إليهما مبتسمة ، وكأنها فخورة بمجلسها .. فأنيها الوالدان الطيبان فى رفق ، واعتذرا لى عن جرأتها الساذجة .. حتى إذا غادرت الحجرة مضيا يطريانها ، ويشيدان بطاعتها إياهما ، وخوفها الله ..

وأسعدنى أن اكتشفت أن فى الدنيا قوما فى مثل هذا

الصدق ، والطهر ، والسذاجة ، والسعادة الحقة .. وما لبثت « لوسى » أن عادت ، كالعصفور الطروب ، وقد ارتدت ثوبا جميلا ، وحذاءين ، ونسقت شعرها ، فقبلت أبويها ، وجلست على ركبتى أبيها .. وازددت افتنانا بسذاجتها ، وبساطتها !

صراع .. مع البراءة !

وقضيت نهاري في رفقة الكونتيسة وابنتها اللطيفة .. حتى إذا كان الصباح التالي وافتنى « لوسى » بجمالها ، وسذاجتها ، ومسلكتها الطبيعي ، وأحاديثها الرائعة .. وكانت صراحتها وبراعتها تحيطانها بهالة من الإشراق .. ولم أدر كيف كانت — مع كل هذا — تجازف بالحضور إلى حجرتي وحيدة ، وتعاملني بهذه اللهفة .. وخطر لي أنها لن تعلق كبير أهمية إذا أنا أبحت لنفسى بعض الحرية في التعبير عن إعجابى .. ولم أشعر بضميرى يؤنبني إذ ائتمنتى عليها أبواها ، فقد وجدت في هذا « إهمالا » منهما .. ولم أستبشع أن أكون أول من يخدش براءتها ، أو أن أرسل إلى ذهنها أولى ظلمات الخبث .. ومن ثم بدأت أجس نبضها ، فمددت يدي إليها ، وإذا بها تتراجع بحركة غير إرادية ، وتتضرع وجنتاها ، ويغيب إشراقها ، ثم أشاحت بوجهها كأنها تبحث عن شيء ، وتريثت حتى خف انفعالها .. ولم يستغرق كل هذا دقيقة .. ثم عادت ، وقد أحجلها أن كشفت بتصرفها عن إدراك لقصدى ، ولعلها استنكرت أن تبين أنها أخطأت تفسير حركة ربما كانت بريئة .. وسرعان ما عادت إليها ضحكاتها الطبيعية ، فلم أضيع وقتا في محاولة استعادة ثقتها ، وآثرت أن أمهد بالحديث ، بدلا من العمل .. فقلت لها حين جاءتنى في الصباح التالي — ونحن في سياق حديث عادى — إن الجو بارد ، ولعلها تحس دفئا إذا نامت على مقربة مني ، فقالت : « قد أضايقتك » .. على أنها لم تلبث أن استلقت إل جوارى .. في بساطة !! ولم أفقه كلمة من ثرثرتها وهى مستلقية إلى جوارى ، فقد ظللت مسمرا في مكاني ، لا أفلت زمام شهواتي الجامحة .. كانت ثقها في أنها بما من ،

قد لعبت بمشاعري إلى الدرجة التي خجلت معها من استغلالها !
وفي اليوم التالي ، لم أشأ أن أخرج عن هدوئى ، فتركته تكتفى بالجلوس
على حافة السرير ، وأخذ حديثها يؤكد لى أن أبويها لم يكونا مغاليين فى
إطرائها .. فإن تحررها فى مسلكها معى لم يكن يعزى إلا إلى سذاجة
وبراءة .. لذلك سيطرت على مشاعري حتى لا أقدم على أية محاولة قد يؤنبني
عليها ضميرى فيما بعد ..

تسألنى عن سر شحونى !

وبعد عشرة أيام ، أو اثنى عشر ، وجدت أننى أمام أحد أمرين : فإما أن
أضع لهذه الحال حدا ، وإما أن أغدو وحشا فى نظر نفسى .. وآثرت جانب
الخلق فى موقفى ، إذ بت متأكدا أن « لوسى » كفيلة بأن تنقلب إلى « بطلة »
فى الدفاع عن نفسها ، لو أننى اضطررتها إلى ذلك ، وأن الصراع لن يجلب
سوى الفضيحة !.. وكان تحررها ، وما تسلكه من ألفة فى معاملتى ، يزيدان
نارى اتقادا !..

وأنهكنى الجهد الذى كنت أبذله فى المقاومة ، حتى قررت أن أسألها أن
تكف عن زيارتى .. لكننى أرجأت ذلك إلى اليوم التالى ، وقضيت الليل
مسهدا ، معذبا .. فلما أقبلت الفتاة فى الصباح مشرقة مرحة ، غاض بشرها
إذ رأت شحونى وضناى .. وسألتنى ملهوفة عن السبب ، فرحت أشرح لها
ما سببه لى جمالها ، وأضفت أننى لم أعد أحتمل الوجد ، لذلك أرى أن تكف
عن زيارتى !.. وأعارنى صدق الحب والمقصد لباقة فوق لباقتى ، كى أبين لها
العواقب الرهيبة التى تتأتى عن أى حل سوى هذا الذى ارتأيت .. والذى
اقترحته وأنا أتعس ما أكون !

وإذ لحت عيني مغرورقتين ، أقبلت تجففهما ، غير مدركة أنها بذلك كشفت عن ثديين يكفى جمالهما لأن يطيش بأحكام العقول ..! ثم قالت : « كل ما ذكرت يؤكد صدق حبك القوى ، ولكن لا أتصور أن ترغب في إقصائي لأنك لم تعد تحتل الخوف من هواك .. فماذا كنت تفعل لو أنك كرهتني ؟ .. أكان ذنبي أنني أعجبك ؟ .. ما ظننت أنني ارتكبت جرماً إذ كسبت حبك ، ومن ثم فما أراك تجرؤ على عقابي ..! ومع ذلك ، فلا أكنم عنك أنني جد سعيدة لأنك أحببتني .. أما الخطر الذي يتأتى عن حبنا ، فهو خطر أدركه ، وفي وسعنا أن نتحداه لو شئنا .. وإني لأعجب لأنني — على جهلى — غير خائفة ، في حين أنك — على علمك — تخشاه ..! وإني لفى دهشة لأن الحب يسقمك ، وهو ليس بالمرض .. أفترانى مخطئة ، وإن ما أحسه نحوك ليس حياً ؟ .. لقد كنت أحلم طيلة الليل بأننى بقربك ، وكنت كلما استيقظت عدت إلى النوم ، لأستأنف حلمى السعيد .. وهذا سر إشراق حين جئتك هذا الصباح .. إننى لآسفة أيها القس العزيز إذا كان الحب عذاباً لك ، ولكن ، هل تراك تقوى على الحياة بغير حب ؟ .. إننى مستعدة لأن أفعل كل ما تأمر به ، إذا كان فى هذا شفاؤك ، ولكنى لن أكف عن حبك ، لأن هذا مستحيل ! » وأثبت لى حديثها البريء الخالى من الصنعة ، مدى سمو الفطرة الطبيعية ، فاحتويت كيانها الملائكى فى أحضانى ، للمرة الأولى ، وسألتها أن تسلمنى شفتيها .. وقضينا ساعة فى هناءة صادقة ، بيد أننى احترمت طهرها ، فلم يزدها هذا إلا رغبة فى الاستسلام دون أدنى مقاومة ..! وأخيراً تخلصت من أحضانى برفق ، ونهضت فسوّت من ثيابها ..

ومكثت فى « باسيان » حتى نهاية شهر سبتمبر .. وقضيت الإحدى عشرة ليلة مع « لوسى » لا يزعجنا أحد .. كانت تنتهز فرصة نوم أمها وتتسلل إلى حجرتى ، لتقضى فى أحضانى أشهى الساعات .. ولكن استكانتها التامة لم

تزدني إلا تشبثا بما عقدت عليه العزم من أن لا أنتهك عفافها !.. وودعتها على
أن أعود في الربيع التالي . ولكنني خلفتها في حال ذهنية وجسدية كانت سر ما
حاق بها بعد ذلك ، مما لمت نفسي بسببه حين قدر لي بعد عشرين سنة أن أقف
عليه — مصادفة — أثناء سياحتي في هولندا ..

تدس في يدى قصاصة ورق !

وبرجوعى إلى البندقية ، استأنفت غرامى بأنجيلا — ابنة أخت رجل الدين التى كنت ألقاها فى دار المرأة التى تعلمها التطريز — وكانت زميلتها فى دروس التطريز « نانيت » و « مارتون » مطلعتين على أسرارها ، وقد أعربت إلى عن استهجانهما لتحفظها ! .. وكانت الفتاتان يتيمين ، تقيمان مع خالتهما « مدام أوريو » ، (التى لم تكن تستخدم فى دارها سوى خادم عجوز ، ولا تصطفى من الأصدقاء سوى وكيل قضائى يدعى « روزا » ، بلغ الستين مثلها ، وكان يطمع فى الزواج منها بمجرد أن يموت زوجها !) .. وكانت الأختان — وإحداهما فى السادسة عشرة والأخرى فى الخامسة عشرة — تنامان فى سرير كبير بالطابق العلوى ، اعتادت « أنجيلا » أن تشاطرهما إياه فى ليلة الأحد من كل أسبوع ..

و ذات يوم ، زرت مدام « أوريو » ، فإذا به « نانيت » تدس فى يدى وريقة سألتنى أن أقرأها قبل مبارحة الدار .. ووجدت مع السيدة صديقها المسن ، وأنجيلا ، ومارتون .. وتقدمت أقبل « يد » مدام أوريو ، ولكنها قالت : « آه يا عزيزى القس .. سأمنحك القبله ، ولكن .. لا على يدى .. وما أظن أحدا يعارض ، فأنى أكبرك بثلاثين عاما ! » .

وما كان من الحرج فى شئ أن تقول بصدد سنها إنها فى الخامسة والأربعين ! .. ومنحتها قبلتين ، صادفتا رضى فى نفسها ، إذ سألتنى أن أقبل ابنتى أختها أيضا ، ولكنهما هربتا منى .. ورحت أتحين الفرص للخروج من الحجرة ، حتى إذا تمكنت ، رحت أقرأ القصاصة فى لفة .. فإذا فيها :
(مذكرات كازانوفا)

« ستدعوك خالتى للعشاء ، فلا تقبل ، وتشبث بالرغبة فى الانصراف بمجرد جلوسنا إلى المائدة ، وسوف ترافقك « مارتون » حتى الباب الخارجى .. ولكن لا تبرح الدار ، فإذا ما أغلق الباب بصوت مسموع ، وظن الجميع أنك انصرفت ، فاصعد فى الظلام إلى الطابق العلوى ، حيث ينبغى عليك أن تمكث فى انتظارنا ، وسوف نلحق بك بمجرد أن يغادر السيد « روزا » البيت وتأوى خالتنا إلى فراشها .. وستكون لدى « أنجيلا » الفرصة الكافية لتخلو إليك ، وهذا ما أعتقد أنه سوف يسعدك ! » .

انتظار .. فى الظلام !

وعدت إلى حجرة الجلوس والهناءة تطغى على كيانى .. وقالت لى السيدة فى لهجة صادقة أننى يجب أن أعتبر البيت بيتى ، وأن أعتبر نفسى صديقا حميما ، أثيرا لدى الجميع .. وإذا اقتربت ساعة العشاء ، استأذنت فى لباقة من مدام أوريو ، بحيث لم أدع لها سبيلا للإلحاف .. ونهضت « مارتون » لتودعنى وتضىء لى الطريق ، ولكن خالتها أصرت على أن تقوم « نانيت » بذلك ، ظنا منها أنها الأثيرة لدى ..

وتقدمتنى « نانيت » إلى الباب ، ففتحته .. ثم أغلقته بعد برهة بصوت مسموع ، وأطفأت النور .. ثم عادت إلى حجرة الجلوس ، وتركتنى وحيدا فى الظلام !

وحيدا .. مع ثلاث عذارى !

وبلغت غرفة الشقيقتين في الطابق العلوى ، فارتميت على أريكة ، وقبعت في انتظار السعادة الموعودة .. قضيت ساعة في أعذب الأحلام والخيال !.. ثم أقبلت الفتاتان أخيرا ، ومعهما أنجيلا ، فاجتذبتها نحوى غير حافل بأحد ، وظللت أحدثها زهاء ساعتين .. حتى أذنت الساعة بانتصاف الليل ، فسمعت الفتيات يرثين لبقائى دون عشاء .. وبهت لأننى لم أفطن إلى ذلك ، فما كنت — في غمرة مثل تلك السعادة — لأحس بحاجة آدمية !.. وقيل لى إننى غدوت سجيناً ، لأن الحالة اعتادت أن تغلق الباب الخارجى للبيت وتودع المفتاح تحت وسادتها ، فلا يفتح الباب ثانية إلا حين تسعى إلى قداس الصباح الباكر !.. فأظهرت غاية الابتهاج ، إذ استوثقت من أننى سأقضى الساعات الخمس التالية مع حبيبة فؤادى !

وانقضت ساعة ، ثم شرعت « نانيت » تضحك فجأة ، وتساءلت « إنجيلا » عن السبب ، فهمست « مارتون » فى أذنها بكلمات جعلتها هى الأخرى تضحك ، مما أدهشنى فتساءلت بدورى عن السر !.. وأخيرا ، قالت « نانيت » إن الشمعة لن تلبث أن تنتهى بعد دقائق ، فنصيح فى ظلام دامس .. ولم يكن أحب لى من هذا النبأ ، ولكنى لم أدع شعورى ينعكس على ملائحى ، بل اصطنعت الأسف ، واقترح أن يأوين إلى فراشهن وأبقى قائما على حراستهن ! وكنا قد قضينا الساعات الثلاث الأخيرة فى الحديث ، وقد استوليت على أعنة الكلام — فالحب شاعر عظيم لا ينضب معينه ، بيد أنه لا يلبث فى النهاية أن يمل ويصمت إذا لم يحظ بغايته !— وقد ظلت حبيبتى « إنجيلا » طيلة الوقت تنصت ، ولا تبدى ميلا للكلام إلا لِمَا .. وكلما خفت يدى لمؤازرة

لسانى ، نأت أنجيليا أو صدت .. ولكن لم يداخلى اليأس إلا حين تبينت أن لا سبيل إلى إقناعها ، فى حين أن آثار كلامى لها كانت تعكس على ملامح الفتاتين الأخريين مشاعر أذهلتنى !

وانتهت الشمعة .. وفى اللحظة التى ران علينا فيها الظلام ، مددت يدى ، فإذا هى لا تجد إلا خواء ، فلم أتمالك أن ضحكت لسرعة « إنجيليا » فى انتهاز الفرصة للهرب منى ! .. وظللت ساعة بأكملها أسكب كل حنان ألهمنيه الحب ، فى كلمات حاولت بها أن أقنعها بأن تعود إلّى .. وأخيرا نفذ صبرى ، فقالت لى : « اهدأ .. فسوف أنصت لكل كلمة تقولها ، ولكن يجب أن تدرك أن ليس من اللائق بى أن أكون قريبة منك فى الغرفة المظلمة ! » .

مطاردة .. فى الظلام !

ولم أحجم عن أن أطاردها فى الظلام ، لكننى كنت كلما أمسكت أحدا تبينت أنه « نانيت » أو « مارتون » — وكنت من الغباء بحيث كنت أطلقهما فى كل مرة ! .. كان الحب قد أعمانى ! — وظللت ألومها ، دون جدوى ، على قسوتها .. وأناشدها أن تدعنى أمسكها .. حتى إذا تعبت ، واشتد استيائى ، جلست يائسا .. ومضيت فى الساعة التالية أروى قصة خرافية ، اختفت بطلتها « إنجليكا » بقوة الخاتم السحرى الذى أعطاها إياه الفارس الذى كان يعشقها ، فى غفلة وغباء ! .. فانبرت « نانيت » تدافع عن « إنجليكا » قائلة إنها لم تكن مذنبه فى شىء ، وإنما كان الخطأ خطأ الفارس الذى أسلمها الخاتم .. وكنت من السذاجة بحيث لم أحاول أن أطبق ما قالت بأن الفارس كان حريا أن يفعله !

وما أن انبثق أول أضواء النهار ، حتى سمعت الباب الخارجى يفتح ، فتريثت

ريثما خرجت « مدام أوريو » إلى الكنيسة ، ثم تهيأت للانصراف .. ولا تسلم
عن حيرتى حين حانت منى التفاتة إلى البنات الثلاث ، فإذا بهن بغارات فى
دموعهن !

وقررت أن لا أزور دار « مدام أوريو » ثانية .. وإن هى إلا أيام قلائل ، حتى
رحلت إلى « بادوا » لأحصل على « الدكتوراه » فى القانون .. على أننى لم أكد
أعود حتى تلقيت رسالة من السيد « روزا » استحثنى فيها على أن أبادر بزيارة
« مدام أوريو » ، فذهبت فى المساء وأنا واثق من أننى لن أجد « إنجيلا » هناك ..
وأبدت لى الشقيقتان الرقيقتان ما يبدد ما كنت أحسه من خجل بعد الليلة التى
قضيتها فى غرفتهما قبل شهرين .. ولا متنى « مدام أوريو » على أننى غبت طويلا
عن دارها .. وفيما أنا منصرف ، دست « نانيت » فى يدى رسالة من
« إنجيلا » ، جاء فيها : « إذا لم تكن تخشى قضاء ليلة أخرى معى ، فلن تجد ما
تشكو منه ، لأننى أحبك ، وأود أن أسمع من شفئك ما إذا كنت لا تزال مقيما
على حبنى .. » .

وكانت مع هذه القصاصة أخرى من « نانيت » ، الحاضرة الخاطر
والحيلة ، قالت فيها : « تعهد مسيو روزا بأن يرجعك إلينا ، فأحب أن أنبئك
بأن إنجيلا يائسة ، إذ تخال أنها فقدتك .. وأعترف أن الليلة التى قضيتها معنا
كانت قاسية عليك ، ولكنى لا أراك مصيبا فى قطع زيارتك .. وإذا كنت لا
تزال تستشعر لإنجيلا حبا ، فأنصحك بأن تجرب حظك مرة أخرى .. » .

مع « نانيت » و « مارتون » .. فى مخدعهما !

وشئت أن أستغل الفرصة لأرى أنجيلا غضبى فى برود .. فمضيت فى يوم الأحد التالى إلى دار « مدام أوريو » (بعد أن احتسيت زجاجتين من نبيذ قبرص) .. لكنى ، لدهشتى ، لم أجد حبيبتي — وإن أسرت لى « نانيت » بأنها ستتأخر حتى موعد العشاء — لذلك لم ألبث أن استأذنت ، وتسلفت صاعدا إلى غرفة الفتاتين ، وأنا أشد ما أكون شوقا إلى أن أؤدى الدور الذى أعددت نفسى لتمثيله .. حتى إذا انقضت ثلاثة أرباع الساعة ، سمعت الباب الخارجى للدار يوصد .. ثم أقبلت « نانيت » و « مارتون » وحدهما ، فهضمت متسائلا : « أين إنجيلا ؟ » .

وقالتا إنها ولا بد لم تستطع الحضور ، فقلت : « لقد ارتبت فى أنها تعبت بى .. هل عرفتماها الآن ؟ .. لقد اتخذتكما طعاما لاستدراجى إلى هنا ، ولكنها أحسنت .. ولو كانت قد جاءت لأريتها إن الدور دورى للضحك منها .. لا تبدى الارتياح يا « نانيت » الحسنة ، فسوف تثبتين من صدق حين ترين متعة الليلة التى سنقضها بدونها ! » .

— ماذا ؟ .. ألدريك الجرأة على أن تقضى سبع ساعات وحيدا معنا ؟ .. لن تلبث أن تمل ، وتنام ..

— سنرى ! .. والآن ، هاكأ طعاما ، فما أراكما من القسوة بحيث تتركاني أكل وحدى ! .. كان ينبغى أن أحبكما .. ألا نبغينى يا « نانيت » الجميلة .. أكنت تحذين حذو « إنجيلا » فى إشقائى لو أننى كنت أحبك أنت ؟
— كيف تسألنى ؟ .. لست أدرى ماذا كنت أفعل ..

وأكلنا فى ضحك ومرح .. وكنت قد حملت معى بعض النبيذ الذى لم

يكن لهما به عهد ، فما لبث أن عبث برأسيهما ، فازدادتا سرورا .. وعجبت وأنا أتأملهما : كيف عميت عن محاسنهما ! .. وإذ انتهى العشاء ، جلست بينهما ، ممسكا بإحدى يدي كلا منهما ، ألصقتها بشفتي بالتناوب .. وسألتهما إن كانتا قد أقرتا مسلك « إنجيلا » ، فأجابتا بأنهما ذرفتا كثيرا من الدموع لهذا المسلك .. فقلت لهما : « إذن اسعيا لي أن أبدى لكما حنان الأخ ، على أن تقابلا عواطفى هذه بمثلها ، كأختين لي .. فلتبادل — فى براءة كاملة — براهين الحب الأخوى المشتركة ، ولتعاهد على الوفاء إلى الأبد .. » .

عبث العذارى !..

وكانت القبلة الأولى التى طبعتها على وجنتيهما بادية البراءة ، فردتها كل منهما بمثلها ، فى عاطفة أخوية بحتة — كما أكدتا لى بعد أيام — بيد أن القبلات البريئة ما لبثت مع التكرار أن أذكت فى أعماقهما لها ، فوجئتا به على غير توقع ، فأخذ كل منا يحملق فى الآخرى مشدوها ، وقد زايله المرح .. ثم تركتاني غير حافلتين ، وبقيت فى الغرفة وحيدا مع أفكارى .. كان من الطبيعى أن تزكى القبلات وقدة الشهوة فى نفسى ، وكان خليقا لى أن أقع فجأة مدلها فى هواها ، فقد كانتا أبهى من إنجيلا وأرق : « نانيت » بذكائها الفاتن ، و « مارتون » بطبعها الحلو ، البسيط .. ولم أدر كيف ظللت هذا الزمن الطويل لا أوليهما حقهما ! ولكنهما كانتا ابنتى أسرة نبيلة ، وكانتا ساذجتين ، فلم يكن ينبغى أن تنقلب المصادفة الحسنة التى ألقت بهما فى طريقى ، إلى نكبة عليهما .. ولم أكن من الغرور بحيث أظنهما قد وقعتا فى هواى ، ولكنى أعتقد أن قبلاتى قد بعثت فيهما ما بعثته قبلاتهما فى .. وبقليل من المكر ، وبعض الحيل

الخبیثة التي كانتا تجهلانهما ، كان من الممكن أن أحظى خلال الليل الطویل ، ببعض المتع .. ولكن مجرد التفكير في هذا ، بعث في كياني قشعريرة ، فقررت في عزم أن أحترم عفتهم .. وما خطر لي أن الظروف أقوى من عزمي !
وعندما عادتا ، لم أشأ أن أعرض نفسي مرة أخرى لخطر القبلات .. وظللت ساعة أتحدث معهما عن « إنجيلا » ، مؤكدا عزمي على أن لا أراها ثانية .. فقالت « مارتون » الساذجة : « إنها تحبك ، ولكنك خليك بأن تقطع كل صلة بها ، إذا لم تكن عازما على الزواج منها ، لأنها مصممة على أن لا تمنحك قبلة واحدة ، ما لم تكن خطيبا لها ! » .

— وكيف عرفت أنها تحبني ؟

— ما دمت قد صرت أخالنا ، فلن أكتف عنك أن « إنجيلا » كلما نامت معي تحتضنني في وجد ، وتدعوني : بالقس الحبيب !
وأسرعت « نانيت » تضع يدها على شفتي أختها ، وهي تضحك من أعماق فؤادها .. فقلت لها : « لست أرى مبررا لأن تلومى أختك .. لقد برهنت على صدق ودّها لي .. وعلى أى حال فقد انقضى كل شيء ، فإنني أكره « إنجيلا » .. إنها غير مخلصه ، وكانت ترغب في دماري ! » .

— هل تظن أنها أذنبت إذ فكرت — وهي تحبك — في أن تكون زوجة

لك .. ؟

— إنها لا تفكر في غير نفسها ، لأنها تعرف ما أعاني ، ولو كانت تحبني لاختلف مسلكها معي .. ثم إنها ، في الوقت ذاته ، تشبع عواطفها إلى حد ما حين تحمل « مارتون » الفاتنة على أن تمثل معها — بالمزاح — دور الزوج !

مسألة ثقة ..؟!؟

وقهقهت « نانيت » ، فتحولت إليها أجادبها الحديث .. قلت لها إنها لا بد أن تكون قد مثلت هي الأخرى مع « إنجيلا » دور الزوج .. فأجابت مبتسمة بأن « إنجيلا » لم تمارس ذلك المزاح إلا مع « مارتون » وحدها .. فسألتها عمن تراه حبيبها هي إذا ، فقالت : « إننى أحتفظ بالسر لنفسي ! » .

وأوحى إليّ جوابها أن لى علاقة بسرها ، وأنها قد تكون مزاحمة لإنجيلا فى حبى ! .. وأغرانى هذا الحديث على أن أتخلى عن فكرة قضاء ليلة خاملة مع فتاتين كهاتين ، خلقتا للحب .. فتصنعت الميل للنعاس ، وأنا أضرب على نغمة الحب « الأخوى » الذى ربط بيننا ، فلم تلبث « نانيت » أن لاحظت تناومى ، وقالت : « اذهب إلى الفراش .. خذ السرير ، وسنام نحن على الأريكة فى الغرفة المجاورة » .

وتصنعت الإباء ، قائلاً إن النوم سيجافينى إذا أنا استأثرت بالسرير ، وأصررت على أن تناما فيه ، وأن أستلقى أنا على الأريكة .. فقابلت « نانيت » إصرارى بمثله .. وأخيرا قلت : « ولكنى لا أستطيع أن أنام بثنائى الخارجية » .. فأجابت : « اخلعها .. ولن ننظر إليك ! » .

— لست أخشى هذا .. ولكن ، بأى نفس راضية أنام أنا ، بينما تبقيان

جالستين بسببى ؟

فلما أجابتا بأنهما ستستلقيان دون أن تخلعا ثيابهما الخارجية ، قلت : — كأنى بكما لا تثقان فى .. هذه إساءة تمسنى ! .. أثبتا لى ثقتهما ، فاخلعا ثيابهكما ، وارقدا إلى جانبى ، واركنا إلى وعدى — بشرفى — بأن لا أمس أيا منكما بطرف أثملة .. ثم مم تخافان ، وأنما اثنتان ضد واحد ؟

مع الشقيقتين ، فى فراش واحد !

ولم أزد ، بل تظاهرت بأن النعاس يغالبنى ، فتهاستنا ، ثم سألتنى « مارتون » أن آوى إلى الفراش ، ووعدتنا بأن تلحقا بى بمجرد أن أستسلم للنوم .. وتظاهرت بالاستغراق فى النوم ، ولكنى سرعان ما شعرت بهما تدلفان إلى الفراش ، فظللت ساكنا حتى أطمئن إلى نومهما — أو تظاهرها بالنوم ، على أى حال ! — وكانتا تولياننى ظهريهما ، فلم أستطع أن أميز « نانيت » من « مارتون » .. ومن ثم بدأت محاولاتي بمن كانت إلى يمينى ، فى تأن لا يجرح كبرياء أنوثتها ، وقد انتشيت برجولتى للمرة الأولى .. ثم تحولت إلى الأخت الثانية .. وفى حذر ورفق بدأت محاولاتي ، وكأنتى أخشى أن أوقظها ، فإذا بعنف عواطفها يجعلها تتخلى عن اصطناع النوم ، فتحتضننى وتغرقتى بقبلاتها ، وتشاطرنى النزوة ، والنشوة ، فى وجد ! وأدركت أنها « نانيت » .. فلما همست باسمها هتفت : « أجل ، أنا « نانيت » .. لشد ما أكون سعيدة ، وكذلك أختى ، إذا أنت برهنت على صدقك وإخلاصك » .

— إلى الأبد أيتها الحبيبتان ..

وطلبت ضوءا ، ولكن « مارتون » اللطيفة ، الخدوم ، تركت لنا الفراش .. ووقفت عند طرف السرير تحمل الشمعة ، وأنا أتأمل « نانيت » وقد استكانت فى أحضانى ، وطفحت أساريرها بالحب .. وضحكنا طويلا .

وإن هى إلا أيام حتى خالصنا الحظ من « أنجيلا » — إذ رحلت إلى « فيتشتينا » .. فخلا لى الجو مع الأختين الفاتنتين ..

عودة إلى ضيعة الكونتة « مون ريال »

وأقبلت على الدراسة العملية للعلوم الطبيعية في مدرسة أحد الأديرة ،
وكنت أقضى الليالى في مجلس السيد « مالبيرو » .. حتى إذا حان عيد القيامة ،
ذهبت إلى ضيعة الكونتة « مون ريال » ، وكلى شوق إلى رؤية الجميلة
« لوسى » . ووجدت أن الكونت « دانييل » — الابن الأكبر للأسرة — قد
تزوج من عروس شابة تدعى الكونتة « جودزى » ..

وفي ليلة وصولى ، نلت أن العشاء قد طال أكثر مما ينبغي ، فقد كنت
ألهب شوقا إلى « لوسى » — وقد عولت على أن لا أعاملها كطفلة ! — ولكنها
لم توافنى في تلك الليلة .. وفي الصباح التالى جاءتنى خادم سمينة ، قبيحة ..
فكدت أجن لهفة على « لوسى » .. أتراها مريضة ؟ .. وفيما كنت أتأهب
لمغادرة غرفتى ، لقيت والدها — حارس الباب — مكتب الأسارى .. فلما
سألتها عنها ، اغرورقت عيناه بالدموع ، وإذ ذاك سألته ملهوبا : « ماذا جرى
لها ؟ .. هل ماتت ؟ » .

— ليتها ! .. لقد فرت مع خادم الكونت دانييل .. ولم نعر لها على أثر !
وأقبلت زوجته ، فجدد الحديث أساها وحزنها .. وعاد الرجل يقول :
« لقد أغواها .. وقد جعلنا فرارها نخدس حقيقة ما جرى ، إذ لاحظنا أنها
ازدادت سمينة ! » .

وحزنت للأبوين التيسين .. وللأحلام التى لم تتحقق ، فمضيت أهيم في
الغابة على وجهى .. ورحت أنحى على نفسى باللوم ، فلو أننى سلكت معها
مسلكى مع « نانيت » و « مارتون » ، لما تركتها فريسة للانفعال الذى أعتقد
أنه كان السبب في انزلاقها .. واعتبرت نفسى المسئول الأول عن غوايتها

وزلتها !

ولما انضممت إلى أهل القصر ، لاحظت أن همومى قد تعكر عليهم بهجتهم ، وإن من الخير أن أودع الضيعة وأرحل .. بيد أننى لمحت بين القوم وجها لم يلبث أن أغرانى على إعادة النظر فى الأمر .. كان وجه العروس الجديدة « الكونقة جودزى » — وكانت حسناء بين التاسعة عشرة والعشرين ، تجتذب اهتمام الجميع بانفعالها الدائم ، وطباعها الغريبة .. فقد كان زوجها يخال أن من الخير أن يثير غيرتها ، وأن يبدى لها عدم الاكتراث .. الأمر الذى لذى معه أن أوليها من الاهتمام والرعاية ما جعل الجميع يخالون — أو يبدون من قبيل المزاح أنهم يخالون — أننى وقعت أسير هواها !

عاصفة .. دبرها الشيطان !

وحدث ذات يوم ، أن تأهبنا جميعا للخروج فى نزهة .. وكانت ثمة عربتان ، إحداهما تتسع لأربعة والأخرى تتسع لاثنتين فقط ، فاحتلت الثانية .. وشاء الحظ أن لا يكون للعروس مكان فى العربة الأولى ، فصاحبتنى مكرهة ، كارهة .. وأوعزت إلى السائق أن يسلك بنا فى العودة أقصر الطرق ، فانطلق عبر الغابة ، وبذلك انفصلنا عن العربة الأخرى .. وفجأة ، تلبد الجو منذرا بعاصفة مباغته .. وبدا الجزع على صاحبتى — فقد كانت تذعر من الرعد والبرق — وأخذ المطر يتساقط ، فخلعت عبائى وبسطتها على أفخاذنا وسيقاننا .. ثم جذبت صاحبتى إلئى ، غير مضيع وقتا .. وحاولت أن تتملص ، فأنذرتها بأنها لن تفلح إلا فى اجتذاب نظر الجودزى وانتباهه .. وتركها تستمرئ سبابى ، ريثما أرضيت شيطان نزوتى ، غير عائى بالمطر ، ولا بالعاصفة !

وقالت أخيرا : « هل اكتفيت أيها الفظيع الذى قضى على بالشقاء بقية
عمرى ؟ » .

فقلت : « لا .. بقى أن تغمرينى بالقبلات ، وأن تقولى إنك غفرت
لى ! » .

وقبلتنى ، صادعة بما طلبت ، وهى كارهة ، كى أطلقها من قبضتى ..
ووصلنا إلى القصر قبل الآخرين ، فهبطت وهرعت إلى غرفتها .. وبينما
كنت أخرج من جيبي قطعة نقود للحوذى ، لمحت الحبيث يبتسم ، فسألته عن
سبب الابتسام ، فأجاب فى مكر :

— أوه ! .. إنك تعرف !!

— إذن ، خذ هذه وأمسك لسانك !

درس عملى .. بأسلوب الشباب

عاد « كازانوف » إلى البندقية ، فوجد جدته مريضة ، وما لبثت أن ماتت بين ذراعيه .. وكتبت أمه من « وارسو » تنبئه بأن أسقف « مونتاريو » سيوافيه ليصطحبه إلى « كالابريا » حيث يعنى بتثبيته فى خدمة الكنيسة ..

« وسر مسيو « دى مالبيرى » — عضو الشيوخ — إذ علم إنبنى راحل عن البندقية لأستكمل استعدادى للمستقبل ، فقد رأى بحكمته وحصافته أننى كنت منغمسا فى البندقية فى اللهو والملاذات .. وألقى على درسا فى فلسفة الرواقين ، قائلا : « أسلم نفسك لما يقدمه لك القدر ، على أن لا تشعر بازورار عنه أو نفور منه » ، وأسهب فى شرح الفلسفة القدرية ، إذ كانت كل دروسه ومعرفته مقتصرة على هذا اللون من الفلسفة !

على أن رضائه عنى لم يدم أكثر من شهر ، وقع فى نهايته حادث أفقدنى صداقته ، رغم أننى كنت أتبع تعاليمه وأنفذها : كان الشيخ يخال أنه أوتى من الفراسة ما يمكنه من أن يكشف فى أسارى بعض الناس مخايل تنم عن مدى إيثار الحظ إياهم . وكان إذا توهم أنه تبين هذه المخايل فى أحد ، أخذ بيده وراح يعلمه كيف يساعد الحظ باتباع المبادئ الطيبة الحكيمة .. وكان يقول إن الدواء الناجع قد ينقلب فى يد الغبى أو الأحق إلى سم زعاف ، فى حين أن السم إذا أحسن استعماله بيد عليم مطلع ، ينقلب إلى دواء !

وكان لديه إذ ذاك ثلاثة تلاميذ يعنى بتربيتهم على هذا النسق .. فألى جانبى ، كانت هناك « تيريز إيمر » — الفتاة التى كان الشيخ مد لها بها على ما وصفت من قبل — ثم فتاة تصغرنى بثلاث سنوات ، كانت ابنة مراكبى ،

وكان الشيخ يرى أن الحظ قد أعدها لتكون راقصة ، فآلى على نفسه أن يعدها لهذا المصير !

وذات يوم ، تناول ثلاثتنا الغداء على مائدة الشيخ .. حتى إذا رفعت المائدة ، تركنا الشيخ لينعم بما اعتاد من قيلولة .. ثم انصرفت الفتاة الراقصة ، ووجدتني وحيدا مع « تيريز » ، التي كنت قد أعجبت بها — وإن لم أحاول قط من قبل أن أبدى لها حبي — وجلسنا إلى إحدى المناضد متقاربين ، وظهرنا إلى باب الغرفة التي كنا نظن أن راعينا قد استغرق في النوم فيها .. وبطريقة ما ، راق كلا منا أن يدرس الآخر ، بأسلوب الشباب ! .. وفيما كنا في عنفوان الانصراف إلى هذا الدرس ، إذا بضربة قوية من عصا هوت على كتفى ، وأعقبها ثانية .. وكان من الممكن أن تنهال العصي على كتفى أكثر من ذلك ، لولا أنني بادرت إلى الفرار تاركا قبعتي وعبأتي ! .. ولم ينقض ربع الساعة على استقرارى في بيتى ، حتى أحضر حارس قصر الشيخ القبة والعباءة ، مع رسالة منه يحرم على فيها أن أطأ عتبة داره ! .. فردت عليه فورا برسالة قلت فيها : « لقد ضربتني وأنت عبد للغضب ، فليس لك أن تزهى بأنك لقتنتى درسا ، سيما وإننى لم أع شيئا يعد درسا .. ولكي أصفح عنك ، يجب أن أنسى أنك رجل واسع الحيلة ، وهذا ما لا أستطيع أن أنساه ! »

وقام الأب « جريمانى » ببيع أثاث دار أم كازانوف بأمر منها ، فاشتره جميعه رجل يدعى « أنتونيو رازيتا » ، لم يلبث أن كشف غياب بعض تحف منه ، كان « كازانوف » قد رهنها خلال أزوماته . ورفع الرجل الأمر للقضاء ، فاستعان « كازانوف » ببعض من ذوى النفوذ على حفظ القضية ، مما أحق عليه « رازيتا » ، فأخذ يتحين الفرص لإيذائه . وفي تلك الأثناء ، ورد نبأ للأب جريمانى بأن أسقف « مونتاريو » لن يستطيع المجيء قبل ستة شهور ليصحب

« كازانوف » إلى أمه ، ومن ثم رأى أن يقضى الشاب هذه الفترة في دير .

شيطان داخل الدير

« كانت فكرة وضع شاب في السابعة عشرة من عمره ، له مثل طبيعتي ، في الدير ، فكرة سخيفة ! وإن هي إلا أيام حتى ارتديت مسوح تلاميذ الدير وأرسلت إلى كنيسة « سان سيريان دوموران » ، فتلقاني رئيس مدرستها في عطف ومودة ، لكنني ما لبثت أن شمت من حديثه أنه يظنني جئت إلى المدرسة عقابا ، أو ردعا .. فلما أعربت عن استيائي لهذا ، بادر يطمئنني .. ومن ثم جسنا خلال المعهد : كانت ثمة ثلاث قاعات ، وجدنا فيها ما لا يقل عن مائة وخمسين تلميذا .. فضلا عن عشرة فصول ، ومطعم ، و « عنبر » للنوم ، وحدائق للعب .. وقد بذلت كل الجهود لإيهامي بأن الحياة في مثل هذا المكان أسعد ما يمكن أن يناله شاب مثلي !

ولم ألحق بقسم نوم الكبار ، إذ لم أكن — رغم نمو جسمي — قد بلغت السن المحددة ، كما أنني لم أكن أحلق فودي ، إذ كنت أعتقد أن نعومتها توحى بصغر سني .. إنه سخف ، ولكن ، منذ متى كف الرجال عن السخف ؟ .. إننا نتخلص من رذائلنا بأسهل مما نتخلص من حماقاتنا !

ورغبت في أن ألتحق بمدرسة فقه الدين في المعهد . ومع أنني كنت أحمل « الدكتوراه في اللاهوت » ، إلا أنهم أصروا على امتحاني ، فشعرت بأن في هذا إهانة لي .. وتعمدت أن أسئء الإجابة ، فكان أن وضعوني في فصل أولى ، لدراسة النحو والصرف ! فوجدت نفسي في فصول الدراسة زميلا لعشرين تلميذا تقريبا ، في حوالى العاشرة من العمر !

أما في عنبر النوم ، فكان الأمر على العكس ، إذ كان أندادي من الزملاء يدرسون في فصول متقدمة على فصلي ، فكانوا يستصغرون شأني

ويزدروني ! ولم أكن راغبا في أن أطلعهم على مدى علمي ، لولا أنني اضطررت لأن أطرح عنى القناع إثر حادث لم أستطع أن أتفاده : إذ جاء يزور المعهد أب تلقيت عليه العلوم الطبيعية في البندقية ، فما أن علم بالفصل الذي وضعت فيه حتى تحدث في الأمر إلى مدير المعهد ، الذي استدعاني بعد ساعة ليظهر غضبه مما اصطنعت من جهل ! ثم ألحقني بمدرسة فقه الدين .. وما أن علم زملائي في عنبر النوم بالقصة حتى التفوا حولى وأسعدوني بما أولوني من صداقة ومودة . واسترعى انتباهي بينهم طالب في الخامسة عشرة من عمره — ما أحسبه إلا قد صار أسقفا الآن ، إذا كان على قيد الحياة — فقد اجتذبتني ملائحته ومواهبه معا .. وتوثقت بيننا الصداقة في أقل من أسبوع ، وبدلا من أن نلعب مع الآخرين في أوقات الفراغ ، كنا نتمشى ونتباحث في الشعر والشعراء .. وبلغ من توطد صداقتنا أن أصبح كل منا يغار على صاحبه من تودد الزملاء الآخرين !

وكان عنبر النوم تحت إشراف راهب علماني ، كان يصحبنا إليه عقب العشاء ، فيخلع كل منا ملابسه في سكون ، ويؤدي صلاته بصوت خافت ، ثم يأوى إلى سريره .. وبعد أن يطمئن المشرف إلى وجود كل واحد في فراشه ، كان يأوى بدوره إلى سريره .. وكان يضئ العنبر طيلة الليل مصباح كبير .. وقد صفت الأسيرة على مسافات متساوية ، وإلى جانب كل منها منضدة صغيرة ، ومقعد وفراغ لحقيبة ملابس الطالب .. وفي أقصى العنبر قامت الحمامات ، في حين وضع سرير المشرف في الطرف الآخر المقابل لها . وكان سرير صديقي مواجه لسريري ، ليفصل بينهما المصباح الكبير .

* * *

وسبب هذا التقارب متاعب لكازانوفا ، فقد وجد ذات ليلة صديقه إلى جواره في سريره !.. وفوجئ الاثنان .. ومع أن كازانوفا كان بريئا من أى فعل فاضح ، إلا أنه اضطر لمغادرة الدير ، والعودة إلى البندقية .
(مذكرات كازانوفا)

« كازانوفا » فى المعتقل !

« ولم أدر أين أذهب وليس معى نقود .. وفى ظهر اليوم الأول ، استوقفتنى شرطى وطلب إلتى أن أصحبه إلى « جندول » أشار إليه . وأدركت أن ليس فى الأمر خيار . ومع أن هذا اللون من « الاعتقال » لم يكن مشروعا فى البندقية إذ ذاك ، إلا أننى خشيت الضجة والعنف ..

وفوجئت فى الزورق بخصمى اللدود « رازيتا » (مشتري دار والدقى) ! وكان ثمة جنديان يجلسان فى طرف الجندول — الذى تبينت أنه يخص الأب جريمانى ، والذى بادر متجها إلى ضاحية « الليدو » — ولم ينبس أحدهما ببنت شفة ، ولم أحاول من ناحيتى الكلام .. وبعد نصف الساعة ، وقف الجندول أمام مدخل قلعة « سانت أندريه » ، وقدمنى ضابط كان يرافقنا إلى قائد القلعة ، ودفع إليه برسالة ، لم يلبث بعد قراءتها أن عهد بى إلى ياوره السيد « زن » ، الذى أعطانى بعد رحيل مرافقى ثلاثة جنهات ونصف الجنهيه ، وأفهمنى أننى سأتقاضى مثل هذا المبلغ فى كل أسبوع ، وهو مرتب « المجند » !

ولم أستسلم للغضب — وإن شعرت بحرق شديد — وقضيت ليلتى دون أن يغمض لى جفن ، إذ كان زملائى المجندون يغنون ، ويأكلون الثوم ، ويدخنون أردأ أنواع التبغ ، ويشربون نبيذا أسود كالمداد !

وفى الصباح الباكر ، استدعانى الميجور « بلودور » — حاكم القلعة — وأنبأنى أنه تركنى أفضى الليل وسط الجنود تنفيذ الأوامر وزير الحربيه ، ثم قال : « أما بعد هذا ، فالأوامر تقضى بأن أستبقيك سجيناً فى القلعة لا

تبرحها ، وسأدع لك حرية التنقل في أرجائها ، وأفرد لك غرفة لا بأس بها ، نُقِل إليها كل متاعك .. فافعل ما شئت ، ولكن تذكر أنك لو هربت فسوف تقضى على مركزى .. ويؤسفنى أن الأوامر تقضى بأن لا أعطيك سوى عشرة « صولديات » فى اليوم ، على أنك تستطيع أن تكتب لمن ترى أنهم على استعداد لأن يمدوك بالمال من أصدقائك فى البندقية ، ولك أن تأتمنى على رسائلك .

تمنحه الحب .. والمرضى !

وكانت غرفتى فى الطابق الأول ، واسعة ذات نافذتين تطلان على منظر رائع الجمال .. وارتحت إذ وجدت حقايبى إلى جوار السرير سليمة لم تمس أقفاها ، وقد تكرم « الميجور » فأعد لي منضدة مجهزة بكل أدوات الكتابة ، وعين جنديا لخدمتى ، على أن أدفع له أجرا من « الصولديات » العشرة التى كنت أتقاضاها يوميا ..

ودعاني حاكم القلعة للعشاء فى تلك الليلة ، فوجدته محوطا بعدد من الأصدقاء . وقد منى إلى زوجته وإلى الحاضرين ، وكان بينهم عدد من الضباط ، وقس القلعة — « باولى فيدا » — وزوجته التى كانت أختا لزوجة الميجور ، وكانت جميلة ، وقد اختار زوجها أن يكون راعيا لكنيسة القلعة لأنه كان مشبوب الغيرة ! .. وكان ثمة عدد آخر من السيدات اللواتى جاوزن مقتبل الشباب ، بيد أن حفاوتهن لى ، جعلتهن يرقرن فى نظرى !

وكانت حكومة الجمهورية لا تحتفظ فى القلعة بحامية تزيد على مائة جندي صقلبي ممن يتقاضون نصف مرتب الجنود العاديين ، لكنها فى تلك الأيام كانت تضم أيضا ألفى جندي ألبانى ، جلبهم وزير الحرية — الذى كان يدعى

« الحكيم الكاتب » — من الشرق ، بعد أن أبلوا في آخر حرب ضد الأتراك .. فوجدت عزاء وتسرية في الاتصال بهم ، وتفقد أحوالهم ، وسماع أحاديثهم .. وإذ تفقدت محتويات حقائبى ، تناولت من بينها كل ماله علاقة بالكنيسة ، ثم دعوت أحد السماسرة وبعته الحزمة كلها غير آسف ! .. وأرسلت إلى السيد « روزا » كل المقالات التى كتبتها ، راجيا إياه أن يبيعها ويوافينسى بثمانها .. » .

وتلقى « كازانوف » فى يوم عيد ميلاده — ٢ إبريل — زيارة من امرأة يونانية حسناء جاءتة محملة بالهدايا — وكانت زوجة أحد ضباط الحامية — وقد أسلمته نفسها طيلة اليوم ، مقابل وعده بأن يكتب التماسا باسم زوجها إلى وزير الحرية لترقيته .. وفى ثالث يوم بعد ذلك ، تبين « كازانوف » أنها لم تمنحه الحب وحده .. وإنما منحته أيضا مرضا اضطره إلى أن يتبع نظاما قاسيا للتغذية طوال ستة أسابيع ، حتى شفى !

يفر من القلعة لينتقم من عدوه !

« وفي منتصف شهر يونية ، أعيد الألبانيون إلى الشرق ، فأحسست بفراغ كبير .. وكان الصيف شديد الحر ، فكتبت إلى السيد « جريمانى » أسأله أن يوافينى بحتّتين صيفيتين من المتاع الذى تركته فى دار الأسرة — إن لم يكن « رازيتا » قد باعه — وإن هو إلا أسبوع ، حتى وجدت « رازيتا » يزور حاكم القالعة وفى صحبته مهرج زعم أنه أثير مقرب لدى إمبراطورة روسيا ! .. ودفع « رازيتا » إلّى بحزمة وهو يقول : « لقد أحضرت لك أسمالك » .. فقلت له : « أرجو أن أحضر لك يوما كفنا ! » .. فاهتاج الوجد ، ورفع عصاه ، ولكن الميجور اضطره إلى أن يهدئ من سORTE .. وقال زميله المهرج إنه كان يتوق إلى أن يلقانى فى البندقية لأقوده إلى أماكن الفحش التى اعتقد أننى أعلم بها منه ! .. فقلت له : « من المحتمل أن تلتقى بزوجتك فى أحد هذه الأماكن ! » .

وكنت أرتجف غضبا ، وقد شاركنى الميجور فأبدى اشمزازة من الزائرين ، وعمد إلى صرفهما من القلعة . ووعدنى بأن يذهب بنفسه فى اليوم التالى إلى وزارة الحربية فيشكو وقاحة « رازيتا » .

وكنت أتخرق شوقا إلى الثأر ، فخطر لى أن من الميسور أن أتفق مع مراكبى على أن يوافينى فى المساء تحت نافذة غرفتى ، فأتسلل إلى البندقية ، ثم يردنى فى الصباح الباكر إلى القلعة .. واستطعت فعلا أن أغرى أحد ملاحى القوارب التى كانت تحمل المؤن إلى القلعة .. وحددت له موعدا ..

وفى النهار السابق لليلة الموعودة ، رحت أتمشى فى القلعة مع ابن « زن » ياور الميجور .. وبينما كنت أقفز فوق أحد أحواض الزهور ، تظاهرت

بالسقوط ، وبأن كعب قدمي قد كسر ، فحملني جنديان إلى غرفتي ، وأقبل طبيب القلعة فأعد جبيرة للكعب المكسور .. وعادني القس وكل المسؤولين في القلعة .. فلما كان المساء ، دعوت الجندي القائم على خدمتي إلى أن ينام في الغرفة ليكون قريباً مني .. وبزجاجة خمر ، أسلمته إلى أحضان نوم عميق ! .. وحوالي الساعة العاشرة والنصف ، تدليت من النافذة إلى القارب .. حتى إذا بلغت البندقية ابتعت هراوة ضخمة ، وتربصت لعدوى في ركن مظلم من شارع اعتاد أن يسلكه ، تمتد في نهايته قناة ضيقة ..

وفي الساعة الثانية عشرة إلا الربع ، رأيت « رازيتا » يسير وحده مترنحاً ، فتسللت محتمياً بالجدران ، وانهلكت بالهراوة على رأسه ، ثم على ذراعه .. وبضربة ثالثة طوحت به في القناة الضيقة وهو يصرخ ويعوى مردداً اسمي ! .. وفي تلك اللحظة ، برز من دار إلى يساري رجل من أهل (فورلي) يحمل مصباحاً ، وبضربة من هراوتي طار المصباح من يده ، وبادر الرجل إلى الفرار .. فألقيت بهراوتي ، وهرعت إلى القارب .. ولم تؤذن الساعة بانتصاف الليل حتى كنت في سريري ، أصرخ وأتأوه ، حتى استيقظ حارسي ، فأوفدته لاستدعاء الطبيب ، زاعماً أنني أصبت بنوبة مغص تكاد تقضي عليّ !

وفي الوقت ذاته استيقظ القس على صراخي ، فأقبل ليجدني أتلوى من الألم .. وأحاطت بسريري وجوه يعلوها القلق ، إلى أن أعلنت بعد نصف ساعة أن الألم قد زایلني ..

وعاد الميجور في الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم التالي ، فقال لي وهو يضحك :

— لقد ضُربَ رازيتا أمس وأُلقيَ في قناة .. ولم يمت لحسن حظك ، لأنه يتهمك !

قلت : « لكم يسرنى أن يظننى الناس مذنباً ، ففى هذا بعض الثأر لى .. ولكن من العسير عليه أن يثبت اتهامه ! » .

ومع ذلك فهو يقسم بأنه استطاع أن يميز شكلك .. وشهد رجل من أهل (فورلى) بأنك ضربته على يده فأطاحت بمصباح كان يحمله .. ولقد تهشم أنف « رازيتا » ، وكسرت ثلاث من أسنانه ، وكادت ذراعه اليمنى أن تتحطم .. وقد رفع أمرك إلى المحقق ، وكتب السيد « جريمانى » إلى وزارة الحرية يشكو من أنك خرجت من القلعة بدون علمه وهو المسئول عنك .. وقد وصلت إلى مكتب الوزير وهو يقرأ خطاب جريمانى ، فأكدت لسعادته كذب الاتهام ، وأخبرته بأننى تركتك طريق فراشك كسير الكعب ، وأنت فى منتصف الليل كنت موشكاً على الموت من نوبة مغص قاسية .. أى فى الوقت الذى قال « رازيتا » إنه تعرض فيه للاعتداء !

وبعد ثلاثة أيام ، أقبل أحد المحققين إلى القلعة ، يرافقه كاتب من المحكمة ، فشرع فى التحقيق ، وكان الجميع قد عرفوا بكسر كعبنى ، وبالمغص الذى أصابنى فى منتصف الليل ، فتأكد المحقق من براءتى ، وقضى على « رازيتا » والرجل الآخر بنفقات التحقيق ، دون أن يمس هذا حقى فى طلب التعويض ! وبعد هذا الحكم ، نصحنى الميجور بأن أكتب التماساً إلى وزير الحرية ، حملة بنفسه إليه .. كما أخطرت الأب جريمانى به .. وبعد أسبوع ، بشرنى الميجور بأننى غدت حراً ، وبأنه سيرافقنى بنفسه إلى الأب » .

.. مع فتاة الرابعة عشرة !

على أن « كازانوفا » لم يرح القلعة قبل أن يخوض مغامرة جديدة ! فقد وصل إلى القلعة نبيل مسن يدعى الكونت « دى يونافيدى » ، كان قد تخصص مع مدير بريد البندقية ، فهدده بأن يثار لكرامته بحد سيفه ، مما أدى إلى الحكم بسجنه في القلعة لمدة أسبوع !

وقال لى السجين الجديد بمجرد تعارفنا : « لكم سيسعدنى أن أقضى هذه المدة في صحبتك » ، فأنبأته بأننى استرددت حريتى ، ولكننى سأمكن أسبوعا لأحظى بشرف صحبتته ، تقديرا لما أولانى من ثقة !

وفي عصر ذلك اليوم ، أقبلت زوجته وابنته لزيارته . كانت ملاح الكونتة تنم عن جمال غابر ما تزال بقاياها تلازمها .. أما الابنة فكانت سنها تتراوح بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، وقد سحرنى منها طراز جديد على من الجمال . كان شعرها أسمر يميل إلى الحمرة كالنحاس ، وعيناها زرقاوين جميلتين ، وأنفها رومانيا ، وفمها الدقيق المفتر عن ضحكة دائمة يكشف عن أسنان فى بياض بشرتها .. والتقت نظراتى بنظراتها ، فخیل إلی أن عینها تقولان لى : « تريث عامين ، وستجد أن كل ما يصوره لك خيالك عنى قد أصبح حقيقة واقعة ! » .

وخرجنا جميعا ننتزه .. فسار الأب والأم فى المقدمة ، وتأبطت أنا ذراع الابنة ، فأسرعت تسحبها وهى تضحك بصوت عال جعل أمها تلتفت متسائلة ، فقالت إننى دغدغتها ! .. وروعت أنا لقولها ، وارتبكت .. فحسبتنى جلثا ، « خاما » ، وعمدت إلى إلقاء درس على فى « إتيكيت » التأبط ..

ثم تطرق بنا الحديث إلى الرسم ، فقالت الفتاة إنها تتعلم الرسم ، ووعدت بأن ترينى لوحة رسمتها لآدم وحواء .. وتمادت — مطمئنة إلى ظنّها فى سداجتى — فذكرت أنها تعتقد أن آدمها أجمل من حوائها ، لأنها عنيت برسم كل صغيرة وكبيرة فى جسمه !.. وأثارنى حديثها ، لكننى كنت أمشى وكأننى أخطو على شوكة ، خشية أن أستثير شكوك الكونت والكونتة اللذين كانا يسيران أمامنا .. وزيادة فى الإحراج ، تظاهرت الصغيرة بالتعثر ، فأطاحت بحداثها من قدمها ، ثم رفعت القدم برشاقة لألبسها الحذاء .. وتعمدت أن ترفع طرف ثوبها قليلا ، فإذا المنظر الذى رأيته من ساقها يطير عفى !

قلعة .. بدون تعقيب !

وفى صباح اليوم الثامن ، غادر الكونت القلعة .. فرحلت بدورى عنها فى المساء ، على أن ألتقى بالميجور فى مقهى بميدان « سان مارك » ، ليصحبنى إلى الأب جريمانى .. بيد أننى كنت أكثر لهفة إلى رؤية معبودة أحلامى ! ولم يكن الكونت فى الدار حين ذهبت ، لكن الكونتة استقبلتنى فى ترحاب .. وأذهلتنى معالم الفقر فى الدار ، وراثثة ثياب الكونتة ، التى لمحت وجومى ، فانصرفت لترسل إلّى ابنتها .. ولم أجد الفتاة على ما عرفتھا عليه فى القلعة !.. كان قبح ثيابها يشوه جمالها . وإذا رأته دهشتى ، تبدى عليها أسى أذاب قلبى ، وقالت إن الحكومة لا تمنح أباهما إلا معاشا ضئيلا يعول به تسعة أشخاص ، ومن ثم فهم يحتفظون بالثياب الأنيقة للمناسبات ، كى يبدوا أمام الناس بالمظهر اللائق ، فى حين أنهم يعيشون على الكفاف بين جدران دارهم ..

وعرضت على رسومها ، فسألتها — مجرد وصل الحديث — لماذا لا تحاول

شعذ مواهبها الفنية بالتدرب على الرسم بالطباشير ، فقالت إن الطباشير غالى الثمن ، وإذ ذاك قلت : « هل تغفرين لى جرأتى إذ أهدى إليك ستة صناديق من الطباشير الملون ؟ » .

وعجزت عن كبج دموعها ، فأشاحت بوجهها .. وانتهزت الفرصة ، فوضعت على المائدة المبلغ الكافى لشراء صناديق الطباشير .. ولأجنيها أى هوان أو مذلة ، حييت شفتيها بقبلة .. تركت لها الخيار فى تفسيرها ! » .

مع الحسناء .. القادمة من الشرق !

ووصل الأسقف الذى أرسلته أم « كازانوفا » بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، فبارك الفتى وقبله ، ثم قال له إن عليه أن يرحل إلى (إنكونا) حيث يتصل براهب يدعى « لازارى » يرشده إلى ما ينبغى عليه عمله .. فودع كازانوفا أصدقاءه فى (البندقية) ، وأودع أوراقه وكتبه المحرمة لدى صديقته العطوفة « مدام منزونى » ، ثم غادر المدينة على ظهر سفينة كانت تقل سفير البندقية فى (إنكونا) .. وفى أحد الموانئ انضم إلى الركاب راهب يدعى « ستيفانو البيلونى » ، سرعان ما أولى كازانوفا عطفه ، وعرفه بقس فى المدينة حظى « كازانوفا » فى داره بعشاء شهى ، كما استمتع بين أحضان خادمتيه بساعة هنية !.. ثم عاد إلى المركب ليستأنف الرحلة ومعه الراهب « ستيفانو » الذى أخذ يؤنسه بحديثه .. حتى إذا وصلت السفينة إلى (إنكونا) أخيرا ، احتجز الشبان فى الحجر الصحى لثمانية وعشرين يوما !

يغازل الجارية اليونانية

« ولم ينقض أسبوعان حتى تحسنت صحتى ، ورحلت أقضى نهارى متجولا فى أنحاء المحجر ، إلى أن وصلت إليه أسرة تركية ، فاضطرت إلى أن أحد من تجوالى .. ولم يبق لى من ملهاة سوى أن أقضى وقتى فى الشرفة المطلة على ساحة المحجر .. وسرعان ما اجتذبت انتباهى جارية يونانية باهرة الجمال ، اعتادت أن تقضى يومها جالسة أمام باب الطابق الأرضى — الذى

شغلته الأسرة التركية — منصرفة إلى القراءة أو التطريز .. وكانت إذا رفعت عينيها وفطنت إلى وجودى ، غضت من بصرها ، أو نهضت فولجت المسكن بخطى وثيدة ، وكأنها تقول : « ما كنت أحسب أن هناك من يتأملنى » .. وكانت طويلة ، هيفاء القوام ، تتم قسماتها عن صغر سنها ، ويخلع عليها زيا اليونانى جوا شديد الإثارة والإغواء .. سيما وأننى كنت أعيش فى بطالة أضعفت مقاومتى للعواطف المشبوبة التى كانت تضطرم فى أعماق ، فكيف كان من المحتمل أن أمتع بصرى بهذا الجمال الفاتن دون أن أتدله فى هواه ؟ .. وكنت قد سمعت الفتاة تتكلم الفرنسية مع رجل من نزلاء المحجر ، فشعرت بإغراء شديد يدفعنى إلى أن أكتب لها .. حتى إذا رأيته يوما تجلس وحيدة ، بمنجاة من أى رقيب ، طويت قطعة بيضاء من الورق — لم أكتب عليها شيئا — وأسقطتها من الشرفة . وما أن رأيته تنحنى لتلتقطها ، حتى اطمأنت إلى استعدادها ، فبادرت بإلقاء الرسالة التى كنت أعددتها ! .. ورأيته تدس الاثنين فى جيبيها ، ثم تنصرف بعد دقائق .. وكان ملخص رسالتى :

« أعبدك أيها الملاك القادم من الشرق ! .. سأظل الليل بطوله فى الشرفة ، على أمل أن توافينى ولو لربع ساعة ، أتحدث إليك فيها خلال الثغرة التى بأسفل الشرفة . وبوسعك أن تصعدى على كومة الأمتعة المودعة تحت الشرفة ، ليسهل إصغائك إلّى ! » .

وعندما أوشكت أن أياس — بعد منتصف تلك الليلة — أقبلت فاتنتى ، فانكفأت أنا على أرض الشرفة . ورأيته — خلال الثغرة التى كانت تناهز ١٥ سنتيمترا مربعا — تقفز فوق الأمتعة ، ثم تعتمد بإحدى يديها على الجدار ، خشية أن تقع .. وتناجينا ، وتحدثنا عن الرغبات الجامحة ، والصعاب التى تعترضنا ، وفنون الخيل التى فى وسعنا أن نلجأ إليها للتغلب عليها .. ثم وعدتنى

بأن توافيني كل ليلة على هذا النمط !

الحواجز لا تقف في طريقه ..

ورحت بعد ذلك اللقاء أعتصر مخي بحثا عن وسيلة تزيد من إرضاء عواطفى ونزواتى ، فلم أوفق .. لكن حسنائى اليونانية أثبتت بعد ظهر اليوم التالى مكر الأنوثة : فقد جاءت ببعض السلال والقطن ، وأضافت إلى ركام البضائع التى كانت تحت الشرفة .. ورأيت أنها أصبحت بذلك قادرة على أن تبلغ أسفل الشرفة ، إلا أن الشجرة لم تكن تتسع لرأسها كى يمر منها ! ومن ثم جالت برأسى فكرة جريئة ، عسيرة : أن أحاول أن أخلع لوحا من خشب أرض الشرفة !.. ووفقت إلى خلخلة المسامير فعلا ، فتركت بقية العملية حتى المساء ، والشوق يستنفد صبرى !

وأقبلت الحبيبة فى منتصف الليل تماما ، فتسلقت كومة الأمتعة فى عناء .. وإذ ذاك رفعت اللوح ، ومددت ذراعى حتى التفتا حولها ، ورفعتهما .. وانتششت هى إذ تبينت أن بوسعها أن تنفذ برأسها وذراعيها خلال الفراغ الذى خلفه اللوح .. وهكذا بقينا معا فى بهجة ممتعة حتى انبثق أول خيوط الفجر ، وحين انصرفت الفتاة أعدت اللوح إلى مكانه .. ثم عدت إلى سريرى وليس ما يعكر هنأى سوى أن عيد الأسرة التركية كان يبدأ فى ذلك الصباح ، ويمتد ثلاثة أيام كاملة ، لم يكن فى وسعى أن أحظى برؤية حبيبتى فيها ! وفى الليلة التى أعقبت العيد ، وافتنى .. وقالت إنها لن تسعد بدونى ، وإن مولاها لن يمانع فى بيعها لى ، لأنها مسيحية وهو مسلم .. فلما صارحتها بأننى لا أملك ما يوفى ثمنها ، تنهدت فى أسى .. ثم عادت فى الليلة التالية تذكر أن

مولاهان لئ يمانع فئ بئعها لقاء ألقى قرش بندقى ، وأنها ستوافئنى بالمبلغ ، إذ ستأتئنى بعلبة ملىئة بماسات ثمئنة ، إذا بعتها أمنت وإياها شر الفقر بقئة عمرئنا !.. وقالت إئنئ لئ أندم على الصفقة ، لأنها عذراء .. وإن مولاهان لئ يفتقد علبة الماسات ، ولن يفكر فئ أن يئهمها إذا ما فطن إى ضئاعها !.. على أنئ لئ أرتح لئظئها — رغم شدة هئامئ بها — فلما أحضرت العلبة أبئت أن آخذها ، وقلت لها إئنئ لا أجرؤ على أن أمد ئدى إى حرام ، فأبدت عمئق أساها ، وعمئق إعجابها .. وقالت إن تلك كانت آخر لئلة تستطيع أن توافئنى فئها ، فاشتعلت نئران وئدى ، وألفئئنى أئئئبها إى لأشبع منها حسى — فئ لئلة الوداع هذ — على أكمل وئ . وفجأة أحسست بئدئ قوئئئ تمسكان بكتفى .. فأفلئها لتبسط وتهرع إى غرفئها ، والتفت إى القادم ، فإذا هو خفىر الحجر ! ووددت لو أنقض عئله فأخنقه ، لكنئ نهضت فئ النهاة فأوئت إى فراشئ صامئتا ! » .

وفئ الصبأح التالى أئلى سبئل « كازانوفا » من الحجر ، فاصطحب الرجل الذى كان مئئنا له بأجر غرفئ فئ الحجر إى الراهب « لازارى » صئق الأسقف ، فدفع إىله الراهب دئنه ، ثم أعطئ « كازانوفا » مبلعا يؤاصل به السفر إى روما .. والتقى هذأ بزملئ فئ الحجر الراهب « سئفانو » ، الذى أئلى سبئلئ بدورئ ، لكن كازانوفا لم يلبث أن ازداد تأكدا من زئف صأبئ الراهب ، ومن ولعه بالكذب والغش ، فتشأجر معئ وتضاربأ .. ثم انفصلا ، وواصل كازانوفا الرحلة وحده .. حتى بلغ روما .

الغش .. نوع من المكر الشريف !

« وصلت إلى المدينة الخالدة في الساعة التاسعة من صباح أول سبتمبر .. ولم أضيع وقتي سدى — إذ كانت نقودى قد أوشكت على النفاد ، كما لم أحفل بفخامة مدخل المدينة وجمال معالمها — فيممت فوراً شطر منزل الأسقف ، فإذا بى أفاجأ بأنه قد غادر المدينة قبل عشرة أيام إلى (نابولى) ، وترك تعليمياته بأن ألحق به دون أن أتكبد نفقات ما .. ولم آبه بروما ولا ببدايعها ، بل بادرت فى الصباح التالى إلى الرحيل ، فدخلت (نابولى) فى ٦ سبتمبر .. وهناك أيضاً وجدت الأسقف قد رحل إلى مقره فى (مارتورانو) ، دون أن يترك أية تعليمات لى !.. وألفيتنى وحيداً مفلساً فى مدينة كبيرة لا صديق لى فيها ، فعولت على أن أقطع المائتى ميل التى كانت تفصلنى عن (مارتورانو) سيرا على قدمى ، متسولاً قوتى ومأواى من أهل الخير !.. وانطلقت فبلغت إحدى القرى بعد ساعة ونصف ساعة ، وكان قد برح بى التعب ، وكلت ساقاى عن حملى ، فلجأت إلى فندق صغير ، حيث طلبت حجرة وعشاء ، ثم استسلمت لنوم عميق حتى الصباح .. وحين أفقت أوصيت صاحب الفندق بأن يعد لى غداء ، وذهبت لأتفرج على القصر الملكى . وهناك التقيت يونانى بادى الثراء ، تطوع بأن يرينى روائع القصر . وفى أثناء تجوالنا ، علمت أنه تاجر نبىذ ، وأن لديه فى الفندق بعض عينات من النبىذ ، وبضع قنينات من الزئبق . وإذ ذاك تذكرت حيلة لزيادة وزن الزئبق بنسبة كبيرة ، نتيجة لخلطه باليزموت والريصاص ! وقدرت أن الغش جريمة ، لكننى اعستبرت هذا من

قبيل المكر الشريف الذى هو نوع من الحكمة والمهارة !
وإذ انتهينا من طوافنا ، ذهبنا إلى فندق التاجر ، حيث أمر بغداء لاثنتين .
ورأيت عنده عددا من زجاجات النبيذ ، وأربع قنينات كبيرة من الزئبق ، سعة
كل منها حوالى عشرة أرتال ، فسألته أن يبيعنى واحدة منها بالسعر العادى ..
حتى إذا انصرف لبعض شئونه ريثا يُعَدُّ الغداء ، انصرفت أنا الآخر فابتعت
رطلين ونصف رطل من الرصاص ، ومثلهما من « البزموت » ، كما ابتعت
عددا من الزجاجات الكبيرة الفارغة ، وخلطت المواد معا .
وبينما كنا نتناول الغداء ، سألنى اليونانى ضاحكا عن السبب الذى من
أجله أردت الزئبق ، فدعوته إلى غرفتى ، وأريته العملية ، ثم دعوت الخادم
وأرسلته بإحدى الزجاجات إلى بائع للعقاقير ، فما لبث أن عاد لى بالثمن —
الذى دفعه البائع دون أن يساوره أقل ارتياب فى جودة الزئبق !— وقنعت
بثمن الزجاجات وأهديته الكمية الباقية ، قائلا إننى فى غير حاجة إلى المال ، لأننى
إنما أسعى وراء سر مضاعفة وزن الذهب ، كما فعلت بالزئبق .. ثم فارقتة على
أن ألتقى به بعد أسبوعين فى « نابولى ». ومن المبلغ الذى كسبته دفعت
لصاحب الفندق حسابى ، معتزما أن أرحل فى الصباح الباكر إلى
(ساليرنو) ..

التاجر الغبى يدفع نفقات الرحلة !

وكنيت أدرك أن اللهفة تضطرم فى صدر اليونانى ليعرف سر المواد التى
خلطتها بالزئبق .. وصح ما توقعت ، فما أن انبثق الفجر حتى كان اليونانى فى
غرفتى يساومنى على السر ! فقلت له إننى أحتاج إلى مواد توجد فى

(تور دى جريك) — وهى البلدة التى كنت قد جعلتها قبلتى الثانية — فدفعت إلى بخمسين أوقية من الذهب عربونا ، ثم ألقنى فى عربته إلى (تور دى جريك) . وما أن وصلنا إليها حتى كتبت تعهدا بأن يدفع لى ألفى أوقية من الذهب بمجرد أن أكشف له سر العملية ! وفعلا أطلعتة على الطريقة ، فجر بها ، وغاب برهة ثم عاد بادهى القلق ، وقال إن الزئبق الناتج لم يكن من نفس نوع الزئبق الأصيل ، فقلت له : « إنه من نفس النوع الذى بعته للتاجر فى المرة السابقة » .

قال : « ولكننى كنت أحسب أن نوع الزئبق لن يضار أو يتأثر ! » قلت : « إنك تعرف أن الاتفاق كان على إنتاج زئبق يعادل فى النوع ذلك الذى بعته للتاجر .. فإن شئت أن تلجأ إلى القضاء فستخسر القضية ، وإن كان يؤسفنى أن يشيع السر بين الناس .. ولكن ، لكم سيضحك القوم — ويكسب المحامون — من وراء النزاع ! .. على أننى سأكون جد حزين لتطور الأمر إلى هذا الحد ، فأليك الذهب الذى دفعته عربونا .. » . وأخرجت الذهب وأنا أخشى أن يأخذه فعلا ، ولكنه غادر الغرفة غاضبا ..

وفى الصباح التالى جاء يسألنى أن أرد إليه التعهد الذى كان قد كتبه ، لقاء خمسين أوقية أخرى من الذهب .. وتصلحنا ، حتى إذا آن لنا أن نفترق ، أعطانى رسالة أتسلم بها برميل نبيذ من بيته فى (نابولى) ، كما أهدانى صندوقا أنيقا يحتوى على اثنى عشر موسى للحلاقة ذات مقابض فضية . وافترقنا كخير صديقين !

(مذكرات كازانوف)

بركات الأسقف !

والتقيت أخيرا بأسقف (مارتورانو) الذى سعيت وراءه طويلا ، فاستقبلنى فى ود بالغ واحتضنى فى حنان .. وسرعان ما لمست أنه كان فى ضيق ، إذ كان مضطهدا من الرهبان ، وكان مرتبه ضئيلا .. وقد أبدى أسفه إذ جشمنى مشقة الحضور ، وأبدى استعداده لأن يرسلنى إلى البندقية ثانية .. وأسلمنى خطاب تقديم إلى طبيب وجيه من أهل (نابولى) سألته أن يعطينى ستين « دوكا » — وهى عملة ذهبية إيطالية — كما زودنى بخطاب إلى أسقف (كوسنزا) سألته فيه أن يدبر لى سفرا إلى نابولى دون أن أنكبد شيئا .. فأهديته بدورى الاثنى عشر موسى .. وودعنى باكيا وهو بضفى على بركاته ، فرحلت إلى (كوسنزا) حيث أكرمى أسقفها ، واستضافنى يومين ..

وفى اليوم الثالث أرسلنى إلى « نابولى » بعد أن زودنى برسالة توصية إلى « جينوفيزى » ، الباحث الدينى ذائع الصيت ..

ووصلت إلى (نابولى) فى ١٦ سبتمبر سنة ١٧٤٣ ، فبادرت بتقديم الرسالة التى زودنى بها أسقف (مارتورانو) إلى الطبيب الذى سيعطينى مبلغ الستين « دوكا » ، فأصر على أن أنزل ضيفا عليه ، حيث أعد لى فراشا فى غرفة ابنه .. وكان فتى مليحا فى الرابعة عشرة من عمه ، يجيد قرض الشعر .. وعلى مائدة العشاء فى اليوم التالى ، قدمنى مضيفى إلى « جينوفيزى » الشهير بأبحاثه الدينية .. وسمع أحد أهالى نابولى بأن اسمى يشبه اسمه — إذ كان

يدعى « الدون أنتونيو كازانوف » — فسعى إلى مقابلتى لدى مضيفى ليسألنى عن نسبى ، فما أن ذكرته له حتى احتضننى وهو يدعونى بابن العم .. وأصر على أن يدعونى وصديقى الصغير « بول جينارو » — ابن مضيفى الطبيب — إلى الغداء على مائدته فى اليوم التالى ..

ثروة .. من برمىل نبىذ !

وسألنى « ابن العم » — حين وافيناه فى داره — عما دعانى إلى زيارة (نابولى) ، فأنبأته بأننى أعد نفسى لأكون من رجال الدين ، وأننى فى طريقى إلى روما حيث سأجرب حظى .. وإذ ذاك رغب فى أن يقدمنى إلى دوق « بوفينو » .. وكان « بول جينارو » قد أعد لها قصيدة عرضها علىّ حين التقى بى لأول مرة ، فعدلت من بعض أبياتها ، وكتبت قصيدة من بحر آخر فى نفس المعنى .. ولكننى اعتذرت لقريبى بأننى لا أحمل معى ثيابا تليق بمقابلة عليّة القوم ، وإلا لذهبت لتقديم القصيدة بنفسى إلى الدوقة ، فقال : « إننى غنى .. ويجب ألا تتردد فى أن تصحبنى إلى حائك ثيابى .. » .

وفى اليوم التالى كانت لدىّ الثياب التى تليق بقس شاب . فصحبنى ابن العم إلى الدوقة ، التى أهدتنى علبة سعوط من الصدف ، وأبدت إعجابها الزائد بقصيدتى .. وما إن غادرنا قصرها حتى استأذنت من قريبى وسعيت إلى دار التاجر اليونانى الذى خدعته ، فقدمت الخطاب الذى أوصى لى فيه برمىل نبىذ ، وسألت وكيله أن يقسمه على قنيتين كبيرتين ، أرسلت إحداهما إلى ابن عمى ، والأخرى إلى مضيفى .. فأهدانى ابن العم عصا ثمينة ذات رأس ذهبية ، وثوبا للسفر ، ومعطفا أزرق موشى بالقصب ..

ولو أن القدر كتب لى البقاء فى (نابولى) لحظيت برفاهية ونعيم ، ولكن حظى كان يدعونى إلى روما ، فزودنى مضيفى بخطاب تعريف إلى الكاردينال « أكوافيفا » والأب « جيورجى » ، من على القوم .. كما أهدانى ساعة ذهبية بديعة ، وأسلمنى رسالة توصية إلى صديق حميم له يدعى « دون جاسبار فيفالدى » .

وإلى هذه كلها ، ضمنت الستين « دوكا » التى تقاضيتها منه عند وصولى ، ثم غادرت نابولى ..

أزیز السریر یضیع علیّ الفرصة !

وما أن تحركت العربّة حتى رأيت إلى جوارى سيدا بشوش الوجه فى حوالى الخمسين من عمره .. أما أمامى ، فرأيت وجهين جميلين لسيدتين رشيقتين ، فى مقتبل العمر .. وأدركت أن السيد محام ، وأن إحدى السيدتين زوجته — ولكنى لم أدر أيهما الزوجة — وفى اليوم التالى ، دار بيننا حديث ، فهمت منه أيهما كانت الزوجة .. وإذ أدركت أنها تعجب بالرهبان من أتباع مذهب « الكابوشان » ، فقد زعمت أننى منهم ! .. وفى اليوم الثالث ، سألتنى السيدة عما إذا كنت أزمع أن أطيل مقامى فى (روما) ، فقلت إننى سأعجل بالرحيل إلى البندقية ، إذ أن عدم وجود معارف لى فى روما كان كفيلا بأن يسئمنى ، وأردفت متسائلا : « هل آمل أن تسمحوا لى بأن أزوركم لأقدم لكم احتراماتى ؟ » .

فأجاب المحامى : « لسوف يشرفنا أن تزورنا » .

وكان علينا أن نقضى الليلة الثالثة من رحلتنا فى (مارينو) ، حيث أفردت

لنا حجرتان صغيرتان فى فندق بالبلدة .. وفيما كنا نتناول الحلوى فى نهاية العشاء ، قالت الزوجة الجميلة لزوجها المحامى ، إذ لحت علبة سعوطى الصدفة ، إنها تتوق إلى علبة مثلها .. فقلت للرجل : « تستطيع أن تتنازع علبتى على أن تعطينى الثمن سندا قابل الدفع لحامله ، إذ أننى أريد أن أسد به ديننا لسيد إنجليزى » ، لكنه أصر على أن يدفع الثمن نقدا . وعندما عرضت السيدة أن تكتب لى السند الذى طلبته ، قال المحامى : « أوكد لك أن لا سيد إنجليزى هناك ، وإن صديقنا يتحایل ليعطينا العلبة دون مقابل .. لا تثقى بالقس يا عزيزتى ، فهو مخادع كبير » .

فأجابت وهى ترمقنى : « ما كنت أحسب أن فى الدنيا مكارا بهذا الشكل ! » .

وكانت الحجرتان اللتان أفردتا لنا متصلتين ، وليس من باب بينهما ، فلجأت السيدتان إلى الغرفة الداخلية منهما .. وتشاطرت والمحامى السرير الذى كان فى الغرفة الخارجية ، وقد انتويت أن لا أنام الليل ، إذ أضمرت فى نفسى أمرا !

وليتصور القارئ ويرى حنقى ، حين هممت بأن أتسلل من السرير .. فإذا به يحدث أريزا عاليا يوقظ الموتى ، نتيجة لحركة خفيفة صدرت منى فى نهوضى !

لكن القدر كان يدبر لى تعويضا سخيا عما فاتنى ؟

مغامرات كازانوفا فى روما !

إن الحب أكثر الآلهة مكرا ودهاء ، ولا تتجلى عبقريته قدر ما تتجلى وسط الصعاب والعراقيل .. ولما كان مجرد وجوده يتوقف على إمتاع أولئك الذين يتفانون فى عبادته ، فإن هذا الإله ينتزع النجاح من أعماق الحالات المخفوفة باليأس .. ويخلق المناسبات والملابسات التى تحقق هذا النجاح ! .. كنت قد فقدت كل أمل فى أن أظفر فى تلك الليلة بطائل من فانتى التى فى الغرفة المجاورة — « لوكريزيا » — لولا أن فوجئنا بطلقات البنادق فى الطريق ، فى بهيم الليل ، وصراخ الناس ، ثم انبعثت طرقات مدوية على الباب ..

وتظاهرت بعدم الاكتراث ، وبقيت فى فراشى ، بينما صاححت السيدتان تطلبان ضوءا ، فقفز الزوج من السرير وغادر الغرفة ينشد شمعة .. وإذا ذلك بادرت فدفعت الباب خلفه ، وإذا به يغلق بشدة بحيث لا يتسنى فتحه بغير المفتاح ! .. ثم سعيت إلى السيدتين أهديء من روعهما ، ولم أقابل بمقاومة تذكر ، ولكن السرير لم يحتل ثلاثتنا ، فلم نلبث أن وجدنا أنفسنا على الأرض .. وكان الزوج قد عاد وأخذ يطرق الباب ، فابتعدت عن السيدتين ، وأنبأته بأن لا سبيل إلى فتح الباب .. وبعد حين أقبل الزوج بالمفتاح ، فضحك إذ رأى سرير السيدتين منهارا .. ثم أنبأنى بسر الجلبة ، فقد هاجمت فصيلة من الجنود الألمان القوة الأسبانية بالمدينة واضطرتها إلى الفرار .. وبلغنا روما ، فدخلتها ومعى طائفة من الثياب الأنيقة ، ومالا ، وخبرة ،

وخطابات مقدمة لسادة من علية القوم .. ولم أكن مفرط الجمال ، ولكنى أوتيت شيئا خفيا يستدر عطف من يعرفنى ، ويستميله إلى .. وكنت أعرف أن روما هى المدينة التى يستطيع فيها المرء أن يبدأ من الخضيض ويرقى إلى القمة ، ما دام قادرا على أن يشكل حياته وفقا للظروف ، فيلبس لكل حال لبوسها ، ويروض نفسه على شئ من الدهاء ، وكثير من الصبر والجلد ، ويحرص على سعة الحيلة واستغلال الذكاء .. ويتظاهر بالتقوى فى كل الأحوال !

وبدأت بتسليم رسالة التوصية التى كنت أحملها إلى الأب « جورجى » — وكان راهبا عالما يتمتع باحترام الجميع فى روما ، حتى « البابا » نفسه ! — وما أن قرأ الرسالة حتى تطوع لأن يجعل من نفسه مسسارا وناصحاً لى ، وسألنى أن أتردد عليه كثيرا ، وأن لا أخفى عنه شيئا من أمرى ، ولا مما يجرى لى .. وما أن غادرت داره ، حتى سعيت إلى (كامبو دى فيورى) ، لأقابل « الدون جاسبار فيفالدى » — الذى أعطانى ابن عمى رسالة إليه — ورحب بى الرجل ودعانى لتناول العشاء معه فى اليوم التالى ، على أن يسلمنى إذ ذاك مبلغا سأله ابن عمى أن يدفعه لى .. » .

وسمع « كازانوفا » تذمر الناس فى روما من « البابا » ووزيره الكاردينال ، وسياستهما التى أدت إلى أن احتل الدولة البابوية ثمانون ألفا من الألمان والأسبان ! وفى اليوم التالى — وكان أول أكتوبر سنة ١٧٤٣ — قدم الشاب رسالة التوصية الأخرى التى كان يحملها إلى الكاردينال « أكوافيفا » ، الذى نصحه بأن يدرس الفرنسية إن شاء أن يبرز فى دنيا السياسة ، وعهد به إلى راهب برتغالى فى الأربعين من عمره يدعى « جاما » ، فبادر الراهب بأن أعد له

مسكنا وعهد بتعليمه الفرنسية إلى مدرس من روما يدعى « دالكا » ..
واستطاع « كازانوفا » أن يتصل بمجيبته وزميلة رحلته « لوكريزيا »
— زوجة المحامى — وأن يتقرب إلى أمها ليخفى حقيقة علاقتهما .. وكانت
هذه العلاقة هى الشئ الوحيد الذى كتبه عن الأب « جورجى » !

القلب عدو العقل

« قال الأب يحذرنى : « تذكر دائما أن لا بد لك من كبح شهواتك إن
شئت أن تحيا حياة بعيدة عن النقد .. لقد سمعت عن صلتك بأصدقاء
رحلتك ، وأشهد أنهم من أسرة محترمة ، لا يغشى دارها سوى الأشراف ،
ولكنك لا ينبغى أن تكثر من التردد عليها بحيث تغدو زائرا منتظما .. مالك
تنهد يا بنى ؟ .. أيشعر قلبك بعناء ؟ .. يجب أن تتغلب على قلبك إذا دعت
الضرورة ، واذكر أن القلب عدو للعقل ! » .

قلت أجاده : « ولكن من الممكن التوفيق بينهما » .

— كثيرا ما نخال ذلك ، ولكنك تعلم أن لا سبيل إلى حياد بينهما !
وأحسست بتعاسة ، فشددت على يده وألصقتها بشفتى ، ولكنه ضمنى
إلى صدره ، بحنان الأب ، وأشاح بوجهه حتى لا أشهد دموعه ..

ودعا الراهب « جاما » كازانوفا إلى مقهى سمع فيه حملات صغار الرهبان
على الحكومة ، ومطاعنهم فى « البابا » .. كما رأى فيه صورة من تبذلم .. وما
لبث أن زاره المحامى زميل السفر ، وزوج « لوكريزيا » ، ودعاه إلى قضاء يوم
مع الأسرة فى الريف ، يتعرف خلاله على « دون فرانثيسكو » خطيب أخت

« لوكريزيا » ، الذى كان معجبا بأشعاره .. وكان من حظ « كازانوفا » أن يشاطر الزوجين عربتهما ، بينما استقلت « دونا سيشيليا » — أم « لوكريزيا » — وابنتها الأخرى « إنجيلكة » وخطيبها ، عربة ثانية .. وسعد العاشق الشاب بجوار حبيبته خلال الرحلة التى تمنى لو طالت ، لكنه صدم إذ تبين بعد نصف ساعة أنهم وصلوا إلى غايتهم !

على أنه فى العودة لم يضيع الوقت سدى !

وذهب فى اليوم التالى إلى « دالاكا » مدرس اللغة الفرنسية ، وكانت للرجل ابنة جميلة تدعى « باربارا » ، أحبت شابا صادف هوى من نفس « كازانوفا » ، بيد أن خادما وشى إلى الأب بغرام ابنته فحبسها وطرده حبيبها ، الذى كاد ينتحر ، لولا أن تطوع « كازانوفا » بأن يكون رسولا بينه وبين « بربارا » .. وفى تلك الأثناء ، كانت القضية التى حملت زوج « لوكريزيا » على الحضور إلى روما قد أوشكت على الانتهاء ، وأخذت الزوجة العاشقة تخشى أن يحين الفراق !

اللقاء الأول مع البابا ..

« وأصيب مسيو « دالكا » بمرض شديد ، فتولت ابنته عنه إلقاء الدرس على .. وإذ هممت بالانصراف ، دست في جيبي ورقة ، كانت مليئة بالشكر الحار ، ثم برجاء أن أخبر فتاها بأن أباهما سيستأجر خادما غير الذى وشى بهما ، بمجرد أن يشفى .. وقد تحقق ذلك فعلا ، وسرعان ما كسبت « بربارا » الخادم الجديد إلى صفها .. ولم أعد بحاجة إلى أن أتورط في مغامرة العاشقين .. ولكن الخلاص جاء متأخرا ، كما سيبدو فيما بعد !

وأخذت أتردد في كل مساء على دار الأب جورجى ، فتعرفت بضيوفه الذين أكبرونى كواحد من خاصته ، واكتسبت دراية بما كانوا يتجادبون من أحاديث سياسية وأدبية .. كذلك اعتدت أن أحضر مجالس أستاذى الكاردينال « أكوافيفا » ، بحكم الواجب .. وكانت ألع نجوم مجلسه « المركيزة ج. » وهى سيدة فاتنة ، عالية المقام ، استدرجوني ذات مساء إلى أن أجهز بتقديري لجمالها . وقد اعتادت في كل مساء أن توجه إليّ — وهى تلعب الورق — بضع ملاطفات بالفرنسية ، فأجيبها بالإيطالية ، غير مكترث لضحك القوم ..

وذات مساء ، أوعزت إلى الأب « جاما » أن يدعوني إلى المكان الذى كانت تقف فيه مع الكاردينال ، فلما اقتربت منها ، فاجأتنى بأن وجهت لى بالإيطالية سؤالا كان بعيدا تمام البعد عن خاطرى : « كيف تمتعت برحلتك إلى الريف ؟ .. كانت زميلتك أجمل من المناظر .. وكان غريمك بارع

الذكاء ! » .

فاكتفيت بأن انخيت لها ، وإذ ذاك قال الكاردينال في رفق : « هل أدهشك أن كشفت أنباء مغامرتك ؟ » .

— لا يا مولاي ، وإنما أذهلني أن يتحدث الناس عنها .. فما كنت لأصدق أن روما تشبه القرى الصغيرة في سريان الأقاويل !

— كلما طال بك المقام في روما ، ألفيتها تزداد شبيها بالقرى الصغيرة .. أولم تحظ بعد بتقبيل قدم الأب القدسي (البابا) ؟

وأنبأني الأب « جاما » بأن عليّ أن أتقدم للقاء البابا في اليوم التالي ، وأردف قائلاً :

« أولم تدع إلى قصر المركيزة « ج . . » من قبل ؟ .. إن بأييها مفتوحان للجميع .. » .

— وهل تراها ستستقبلني أو تراني هناك ؟

— بكل تأكيد ..

وحظيت في اليوم التالي بلقاء « البابا » — « بندكت العاشر » — على حدة ، فركعت وقبلت الصليب المقدس . وإذ أعلنت اسمي ، قال لي إنه سمع عني ، وهنأني على أن ظفرت بأن أكون تلميذا للكاردينال العظيم .. ووجدتني أطمئن إليه ، فأروى له الكثير عن المتاعب التي تجشمتها في القدوم إلى روما والفوز بهذه التلمذة ، فأبدى قداسه استمراء للرواية ، وتلطف فقال إنه سيسر بأن يراني ، كلما تقدمت ملتصقا لقاءه .. وإذ ذاك سأله أن يأذن لي بقراءة جميع الكتب المحرمة على التلاميذ ، فسمح لي بذلك ، ووعدني بأن يسجل الإذن بالكتابة ، ولكنه نسي .. وكان البابا عالما ، مفرط اللطف ، شغوبا بالفكاهة . وعندما قابلته مرة أخرى في « فيلا ميديتشي » سأله بأن

يحلنى من تحريم اللحم فى طعامى ، فأذن لى ..
واستجبت لتوجيه الأب « جاما » ، فذهبت إلى قصر الماركيزة الحساء ،
فى الوقت الذى اعتادت أن تستقبل فيه ضيوفها ، ولكن أحدا لم يحفل بى ..
وبعد خمسة أيام أو ستة ، قالت لى الماركيزة ، فى لهجة المتفضلة ، إنها لمحتنى فى
قاعة الاستقبال بقصرها ، ودعتنى إلى أن أكثر من زيارتها !

ليلة للاء !

وفي صباح أحد الأيام الأخيرة من نوفمبر ، دعيت إلى قضاء يوم مع « لو كيريزيا » وزوجها المحامي ، وإنجيلكا وخطيبها ، والأم « دونا سيشليا » .. وكانت الأرملة الفاتنة قد حدثت حبي لابنتها ، فأبدت سرورها .. وقضينا يوما حافلا بالنشاط والتنقل ، فلما أوينا إلى البيت في المساء ، وجدنا في انتظارنا عشاء دسما ، وخمورا معتقة .. وقالت لو كيريزيا إنها ستنام مع أختها في حجرة تفضى إلى بستان البرتقال !.. فلما اطمأنت إلى نوم الجميع ، تسلفت إلى تلك الحجرة ، بعد أن قضيت ساعة أتجسس على الأختين وهما تنضوان عنهما ثيابهما ، وتبديان ما خفى من فتنتهما ، قبل أن تأويا إلى السرير .. وحرصت لو كيريزيا على أن تنام في الجزء المواجه للباب .. وسرعان ما تسلفت إلى أحضان عشيقتي ! وفطنا أخيرا إلى بزوغ الشمس ، فتسلفت عائدا إلى غرفتي .. وبعد لحظات ، سمعت صوت الزوج في غرفة المرأتين يوقظهما ، ثم جاء يوقظني ، ويهددني ضاحكا بأن يدعوها إلى الغرفة إن لم أبادر بمغادرة السرير !

غزو « قلب الماركيزة » !

وسافر الزوجان بعد ثلاثة أيام أو أربعة — إذ انتهت القضية التى حضر الزوج من أجلها — فشعرت بوحشة كتلك التى تكتنف قلب الشاب وهو بعد فى المرحلة التى تجعله يميل إلى التشبث بحبيبة واحدة .. وعكفت على دروس الفرنسية ، حتى امتدح الكاردينال هذا الجدمنى ، وأصر على أن لا أرهق نفسى فى الدراسة .. وكانت الماركيزة حاضرة ، فأشارت إلى أننى ولا بد أجد فى الدرس عزاء بعد رحيل « لو كريزيا » ! .. فقلت مجبياً : « اعترف صراحة يا سيدتى بأننى افتقدتها وحزنت لبعادها ، ولكن صداقتى لها كانت بريئة » .

— لست أرتاب فى ذلك ، وإن كنت قد سمعت قصيدة لك فيها تنم عن هوى مبرح ..

وهنا قال الكاردينال فى لطف : « ليس بوسع شاعر أن ينظم الشعر دون أن يدعى الهوى » ..

فأخرجت الماركيزة ورقة دفعت بها إليه قائلة : « هاك القصيدة .. وأشهد أن الأوساط الأدبية فى روما أجمعت على أنها من روائع الشعر ! » .

وعرض عليها الكاردينال أن تترجمها إلى الفرنسية ، فقالت إنها لا تجيد بالفرنسية سوى النثر .. أما الشعر ، فيحلوا لها أحياناً أن تنظم مقطوعات خفيفة منه بالإيطالية .. وقدم لى الكاردينال آتحر قطعة من نظمها ، فدسستها فى جيبى ، واعدة بأن أقدرها فى روية . وانصرفت وقد استيقظ غرورى وأصبحت أرى نفسى شيئاً مذكوراً .. بل لقد أحسست عن يقين بأننى غزت قلب الماركيزة !.. لذلك سولت لى نفسى حين قرأت القصيدة ، أن

أكتب بوحىها قصيدة أخرى .. ومن المستحيل على الشاعر أن يحجم عن النظم إذا أشرق على خياله موضوع بهيج ، فإن النار الشعاعية التى تجرى فى عروقه لن تلبث أن تتحول فتحرقه هو !

* * *

وفى الليلة التالية ، أطلع الكاردينال كازانوفافى على عشر قصائد غنائية أخرى للماركييزة ، رغم أنها كتبت بوحى من حبه .. وتشبث كازانوفافى بأهداب الحكمة والتروى .. وسأله الكاردينال أن يكتب بدوره عشر أراجيز فورافى ، فاستمهله يوما .. وما لبثت الماركييزة أن أقبلت ، فأثارت فى نفس الشاب شتى العواطف .. وما أن استمعت إلى قصيدته التى نظمها بوحى قصيدتها ، ولاحظت أنه التزم عين البحر والقافية ، حتى رمتة بنظرة أجهزت على ما تبقى من حجاجه واتزانه .. وأقبل على القصائد العشر التى طلبها الكاردينال فوفى فيها إلى درجة دعت الكاردينال إلى أن يهديه علبة سعوط من الذهب المموه بالميناء الدقيقة ، فى مقابل أن يسمح له بأن ينسب الشعر لنفسه ! .. وفى مساء ذلك اليوم ، تناول كازانوفافى العشاء مع الكاردينال والماركييزة ، على مائدة بسطت إلى جوار سرير الكاردينال .. وما لبثت الماركييزة أن أقبلت ، وأبدع الشاب فى إلقاء الشعر حتى انتشى الكاردينال ، وتضرجت وجنتا السيدة .. ومنذ ذلك اليوم ، أخذت تولى كازانوفافى رعاية خاصة ، جعلته يرتقب الفرصة فى عيد الكرنفال .. وفى تلك الأثناء ، لقى الشاب من تقدير البابا والكاردينال ما حملهما على أن يفكرا فى أن يعهدا إليه بمنصب هام .. ولكنه فوجئ ذات يوم بزيارة غير متوقعة من عشيق بربارا ، ابنة مدرس اللغة الفرنسية !

تحاول الفرار .. متكررة في زى راهب !

« كان الشاب يحمل رسالة من فتاته تقول له فيها إنها حامل ، وإنها قد قررت أن تفر قبل أن يكتشف أبوها أمرها .. وسألني رأيي ، فنصحته بأن يبادر إلى الزواج منها ، برغم أبيه وأبيها !

وفي أول يناير سنة ١٧٤٤ ، جاءني يعلن أنه قد أحكم تدبير الخطة للفرار بفتاته إلى (نابولي) .. وغاب أسبوعا ، وفي الساعة الحادية عشرة من إحدى الليالي ، ولج غرفتي وبصحبه راهب ، لم ألبث أن تبينت أنه كان « بربارا » متكررة !.. وقد جاءا يطمئناني إلى أن كل شيء في خطتهما قد اكتمل .. وبعد أربعة أيام ، أنبأني الأب « جاما » بأن « البابا » قد أذن للبوليس بمهاجمة بيت يقيم فيه عاشقان فرا من أهلها ، وقد حدد منتصف الليل لهذه الحملة .. فأزعجني هذا النبأ !

وعند منتصف الليل ، فوجئت وأنا أهم بأن أندس في فراشي ، براهب يفتح غرفتي لاهثا .. وعرفت فيه « بربارا » ، فكدت أجن وأنا أستعرض النتائج التي قد تحيق بها ولى .. ورأيت من واجبي أن أبادر بإقصائها عن غرفتي ، ولكنها ألقت بنفسها على قدمي وراحت تتوسل إلي أن أساعدها ، وكانت دموعها تذيب أقمسى القلوب .. وعلمت منها أن تلك الليلة كانت موعد الفرار ، وأن البوليس قد اعتقل فتاتها وخادمتها وهما ينتظراتها في العربة التي كانت معدة للرحلة !

وأذاب أساها جمودي ، فظللت ساهرا أفكر في حل ، حتى إذا جاء

الصباح ، تركتها في حجرتي بعد أو أوصدت الباب من الخارج ، وانطلقت أتشمم الجو ، فلمحت عددا من المجندين منبثين حول القصر . ويمت في عودتي شطر مسكن الأب « جاما » ، فعلمت منه أن « الأب » النائب العام ، قد أرسل يلتمس الترخيص له بتفتيش القصر !.. وإذ ذاك أسرع إلى الفتاة ، وأمليتها الرسالة التالية بالفرنسية : « أنا فتاة شريفة يا صاحب القداسة ، وإن تنكرت في زى راهب ، وإلى أهيب بنيافتكم أن تسمحوا بأن لا أفضى باسمي إلا إليكم وحدكم ، فإني آمل — لما لنيافتكم من طيبة نفس وصلاح عظيم — أن تنقذوني من العار ! » .

وإذ كتبت هذه الرسالة ، وعدت بأن أدبر أمر توصيلها إلى الكاردينال ، أردفت قائلا لمحدثي إن عليها أن تلقى بنفسها على قدميه ، وتفضي بكل قصتها على حقيقتها ، فيما عدا قضائها ليلة في غرفتي !.. وفعلنا ، استطعت أن أبعث بالرسالة إلى الكاردينال دون أن أكشف عن أية علاقة لي بها ، وبذلك أخليت السبيل للفتاة .. حتى إذا فرغنا من العشاء في تلك الليلة ، استدرجت الأب « جاما » ، فعلمت منه أن الكاردينال « أكوافيفا » كان قد أصدر أمره بالإذن للسلطات المدنية بتفتيش قصره ، ولكنه تلقى رسالة جعلته يوقف هذا الإذن .. وما لبث أن سمح للفتاة الهاربة المتنكرة في زى راهب بأن تمثل بين يديه ، حتى إذا سمع قصتها ، قرر أن يحميها ، وأنزلها في جناحه الخاص ، ووضعها تحت وصايته ، بحيث لا يتاح لأحد — ولا البابا نفسه — أن يمسه بسوء !

وفي اليوم التالي جاءني الأب « جاما » يقول إن الأب النائب العام عرف أن الفتاة كانت صديقة لي ، إذ كان أبوها مدرسي ، ومن ثم فقد حدس أنها قضت الليلة في غرفتي . ولكنني أنكرت في لهجة حاسمة .. حتى إذا انفضضنا عن (مذكرات كازانوف)

العشاء فى تلك الليلة ، أخبرنى بأن الكاردينال أرسل الفتاة إلى دير تحظى فيه
بالرعاية على نفقته ، إلى أن يتم زواجها من فتاها .
وإذ زرت الأب « جورجى » بعد يومين ، أثار الموضوع ، قائلا إن أهل
روما بأسرها يعتبروننى مدبر الخطة للفتاة ! ولكنه ما لبث أن صدق
إنكارى .. وما أن بدأت الضجة التى أثارها الحادث تخفت ، حتى استدعانى
الكاردينال ، وقال إن رأى العام يتهمه ويتهمنى بأننا عاونا الفتاة ، وإنه لا يعبأ
بذلك ، ولو كان فى مكانى لأقدم على عين ما أقدمت عليه .. ولكنه مع ذلك لا
يجرؤ على تحدى رأى العام ، ومن ثم قرر أن يقصينى عنه ، وأن يرسلنى بعيدا
عن روما ، وسيزعم — حرصا على كرامتى — أنه أوفدنى فى بعثة هامة ، كما أنه
يترك لى اختيار أى بلد أحب الذهاب إليه ، واعداد بأن يوصى لى من قد يكون
له من أصدقاء هناك ، وبأن يكتم اسم البلد عن كل شخص ..
وكتمت الأمر عن الأب « جاما » ، وزعمت أن الكاردينال اختارنى لمهمة
خاصة .

مغامرات .. فى القسطنطينية

وكانت مغادرة روما شاقة على نفس « كازانوفسا » .. واختار (القسطنطينية) ، فأعد له الكاردينال جواز السفر ، وأعطاه رسالة توصية إلى حاكم « قرمانيا » التركى ، كما أعطاه سفير البندقية فى روما رسالة توصية أخرى إلى أحد الأتراك من ذوى الجاه .. وتلقى كازانوفسا من الكاردينال كيسا به مائة أوقية من الذهب ، كما كان قد ادخر حوالى نصف أوقية أخرى .. وبارح روما ، فبلغ (أنكونا) فى ٢٥ فبراير سنة ١٧٤٤ ، ونزل فى خير فنادقها ، وهناك تعرف به رجل يدعى « سانشيو بيكو » ، دعاه إلى سماع الموسيقى فى غرفة تجاور غرفته ، حيث وجد سيدة متقدمة فى السن ، وفتاتين صغيرتين ، إحداهما فى الثانية عشرة وتدعى « سيشيليا » — وكانت تدرس الموسيقى — والأخرى تصغرها بعام وتدعى « مارينا » ، وكانت تدرس الرقص فى الأوبرا ، يزاملها شقيق مليح ، وسيم ، يصغرها يدعى « بلينو » .. وقد حدس « كازانوفسا » أن الفتى لجماله كان يقوم بأدوار نسائية فى الأوبرا .

ذو الصوت الملائكى !

« وعزف الفتى « بلينو » على العود ، وغنى بصوت كأصوات الملائكة ، وصديقى ينصت فى نشوة وقد أغمض عينيه ، بينما كنت أخلق فى الفتى مفتونا ، وقد خلعت أن جمال صديقتى « لوكريزيا » والماركية قد اجتمع

فيه .. بل لقد وقر في نفسى أنه لا يمكن إلا أن يكون فتاة متنكرة في زى رجل !.. فقضيت ليلي أحلم بهذه الفتنة .. وشد ما كان سرورى حين رأيته يلج غرفتي في الصباح ، وقد جاء يعرض علىّ خدمات أخ له يصغره يدعى « بيترونيو » كى يرافقنى خلال إقامتى .. ثم أقبلت أختاه ، فإذا ثلاثهم يشيعون حولى جوا من البهجة والطرب .. كانت « سيشيليا » و « مارينا » زهرتين غضبتين بدأت أكامهما في التفتح ، وليس ينقصهما سوى إلهام الحب وسحره .. وما لبث أن أقبل الأخ الأصغر « بيترونيو » يحمل القهوة ، فإذا هو من الخلاعة والمجون بحيث يدرك المرء للوهلة الأولى أنه محترف !— وهذا النوع من المخبثين ليس نادرا في إيطاليا — وقد أظهر الفتى من الخلاعة ما جعلنى أسبه ، فما خجل أو استحي !

وأمرت بغداء لى ولبينو والفتاتين ، فأقبل صاحب الفندق ينذرني بأن كلا من ضيوفى يأكل قدر شخصين ، ومن ثم فسأتكلف ضعف النفقات ! وسعيت إلى غرفة الأم أجاملها ، فشكت لى جشع مدير المسرح الذى يعملون فيه ، فنفتحها ببعض المال .. وفيما كانت تشكرنى ، قلت لها : « أعدك بأن أمنحك قدرا آخر إذا صارحتنى بحقيقة « بلينو » .. أهو حسناء متنكرة ؟ » .

— أوكد لك أنه ولد .. وقد تعرض للفحص قبل أن يسمح له بالغناء على المسرح .. فحصه مساعد الأسقف !

* * *

وفى ليلتين متواليتين ، أدخلت الفتاتان على نفس كازانوفيا بهجة ، وبادلته الغرام ، بتشجيع من أمهما .. ولكنه ظل فى حيرة من أمر « بلينو » ، لا يصدق أنه غلام ، ولا يكاد يتغلب على افتتانه بجماله ورقة صوته .. وذات يوم ، دعى

الفتى للغناء في أوبرا (ريميني) ، فاستأجر كازانوفا عربية ، ورافقه في الرحلة ،
تاركين بقية أفراد الأسرة في (أنكونا) .. وفي الطريق ، أخذ كازانوفا يتغزل في
الفتى ، مصراً على أن يعرف حقيقته .. وإذ ذاك بكى الفتى وأظهر الغضب ،
وأبدى رغبة في مغادرة العربية ، فكف كازانوفا عن مسلكه ..

العين الخيرة لا تخطئ !

« وبقيت واجما ، حتى غدونا على نصف الميل من (سينجاجليا) حيث كنت قد اعتزمت أن نقضى ليلتنا ، وإذ ذاك قلت له : « كان بوسعنا أن نقضى فترة سعيدة في (ريميني) لو أنك أبديت شيئا من الود .. ففى وسعك أن تبرئنى من لوعتى بقليل من اللطف » .

— لن تشفى من وجدك ، سواء كنت رجلا أو امرأة ، لأنك أحببتنى دون أن تكثر لجنسى ، أذكر أنا أم أنثى ؟!

— أنت تخدعنى ، فإننى لا يمكن أن أحس بالحب إلا نحو امرأة !

وقصدنا إلى أفخم فندق في (سينجاجليا) ، فلم نجد سوى غرفة واحدة .. فلم يكن ثمة بد من أن ننام معا .. وتقبل الفتى النبأ في هدوء ، أوحى إلى أننى مقبل على ليلة غرام حارة !.. ولكننى كنت مخطئا فى حدسى .. كانت الليلة أكثر من « حارة » .. كانت ملتبهة .. كانت نارا مشبوبة ، أتت على كل أشجائى السابقة .. وكانت النشوة التى استمرأتها عارمة ، أنستنى الدنيا وما فيها .. نشوة ما زالت دماي تغلى فى عروقي لذكرها رغم تقدم السن لى !.. وقالت أخيرا — (فما أظنك إلا أدركت أيها القارئ أن « بليو » لم يكن سوى فتاة) : « هل ارتويت يا حبيبى ؟.. وهل وجدتنى صادقة الحب لك ؟.. الآن أنصت ، فسأروى لك كل شيء : إننى أدعى « تيريزا » ، وكان والدى كاتباً فقيراً فى معهد (بولونيا) ، أجز غرفة فى بيته لمثل ومطرب مشهور ، أغرم لى ، وعشت مغازلاته بعقلي .. وكنت لم أتجاوز الثانية عشرة من عمري ، حين عني

بتعليمى الموسيقى ، وبترويض صوتى .. وكان جزاؤه أن نال منى وطره ..
وكان له من الجمال ، والمواهب ، وارتفاع الشأن ، ما جعلنى أعبد .. وفى
تلك الأثناء ، كان يتولى تدريب صبى فى مثل سننى هو ابن السيدة التى رأيتها فى
(ريمينى) ويدعى « بلىنو » . وحدث بعد حوالى العام من استسلامى
للمطرب — وكان يدعى « سالبيرى » — أن اضطر للرحيل إلى روما ، فلما
رأى دموعى وأسأى — سيما وأن أبى كان قد مات — قرر أن يأخذنى معه من
(بولونيا) إلى (ريمينى) لأقضى فترة بصحبة « بلىنو » .. ولكننا لم نكد نصل
إلى هناك حتى وجدنا أن الصبى مات فى اليوم السابق ! .. وإذ ذاك خطر له أن
يدعنى فى رعاية الأم المحزونة ، وأن أتزى بزى الغلمان وأنتحل اسم « بلىنو »
ريثا أستكمل تعليمى الموسيقى ، ثم يأخذنى إلى بولندا ، لأكون « ممثلا
ومطربا » فى بلاط ملكها ، ونعيش معا فى مأمن من الفضيحة والعار !
وكان الأمر لا يتطلب أكثر من أن أنبذ جنسى وأنكر نزوات الأنوثة
وأحاسيسها .. ودبر الأمر فعلا مع أم « بلىنو » ، وحرصا كلاهما على كتمان كل
شئ ، وعلى أن تكون لى غرفة خاصة ، تغدو حرما مقدسا حتى بالنسبة لابنتى
السيدة وابنها الآخر ، الذين لم يعلموا شيئا عن حقيقة جنسى كأنثى !!
.. ولكننى لم أر صاحبى المطرب بعد ذلك ، إذ مات فى روما ..
واضطرت إلى أن أكسب عيشى بمواهبى الموسيقية ، فنصحتنى أمى المزعومة
بأن أظل منتحلة شخصية الفتيان .. وها أنتذا أول رجل بعد « سالبيرى »
يعرف سر أنوثتى !.. والحق أننى أحبيتك لأول وهلة ، ولكننى خشيت أن
تكون عاطفتك نحوى نزوة عابرة ، فتركتك تلهو مع « سيشيليا » و
« مارينا » ، وتمنعت عليك . ولكنك بإصرارك على ملازمتى ، أثبتت لى أن
وجدك نحوى ليس نزوة .. » .

واقترح عليها « كازانوفا » أن تتخلى عن تنكرها ، على أن يتزوجها ،
ويتركها تمارس فنها المسرحى والموسيقى .. وارتضت الفتاة أن تتزوج منه ،
وأن ترافقه إلى القسطنطينية .. بيد أنهما فى الطريق ، فوجئا ببعض الجنود
يتفقدون المسافرين ، وكان مع الفتاة جواز سفر ، فتركوها تواصل رحيلها ..
أما « كازانوفا » فتبين أنه فقد جوازه ، ومن ثم استبقى ريثما يكتب للكاردينال
« أكوافيفا » ويتلقى منه جوازا جديدا ..

اتهامه بجرمة قتل

« وقضيت ليلة رهيبة فى ثكنات « سانت ماريا » .. ولكن الخسارة التى ترتبت على هذه الليلة ، لم تدان الكسب العظيم .. أما الخسارة فتمثلت فى فراق « تيريزا » — ولو أننى كنت موقنا أننى لن ألبث أن ألحق بها — وأما الكسب فتمثل فى أننى تلقيت درسا فى التفكير ، والحرص ، وبعد النظر ، والتحوط لكل الأمور .. وكان درسا عظيما بالنسبة لشاب فى العشرين من عمره ! ولكن الليالى التالية كانت سهلة هينة ، إذ رضت نفسى على تحمل الأمر الواقع ، وأخذت أختلط بالضباط والحراس .. وهكذا قضيت تسعة أيام أو عشرة فى ثكنات الأسبان — إذ كانت البلاد موزعة بين الأسبان والألمان والتمسويين — وذات صباح ، رأيت جوادا أصيلا لأحد الضباط ، فخطر لى أن أمتطيه ، ولم أكن خبيرا بالركوب .. ولست أدرى ما الذى حدث ، ولكننى ألفت الجواد ينطلق بسرعة أخذت تتضاعف فى جموح ، دون أن أملك إيقافه ، حتى انتهى بى إلى خطوط التمسويين ، فاستطاع حراسهم أن يوقفوا الجواد ، ليسألونى بغيتى ، بيد أننى قلت لهم بإننى غير مكلف بأن أدلى بمهمتى لغير الأمير « لوبكوفيتش » — وكان مقر قيادته فى (ريمينى) — ومن ثم صحبنى جنديان إليه ، حيث أفضيت إليه ، على حدة ، بجلية ما حدث . فلما ذهب عنه الغضب ، تلطف معى ، وأمر بإطلاق سراحى ، فبادرت إلى البحث عن « تيريزا » . ولما لم يكن من المأمون أن أبقى بلا جواز سفر ، فقد اتفقنا على أن أسبقها إلى (بولونيا) فأكتب لقائد الثكنات التى كنت أسيرا

فيها ، أعرض عليه ثمن الجواد الذي فقده ، وأسأله أن يبعث إلى بالجواز الجديد إذا ما وصل .. وفي (بولونيا) ، وجدت أنه لم يعد لي أمل في أن أكون من رجال الكنيسة ، فقررت أن أغدو ضابطا عسكريا .. وسرعان ما ابتعت ثيابا عسكرية ، وسيفا ، فراق لي منظرى الجديد ، ورحت أسير في الطرقات وأرتاد المحال العامة ، مزهوا ، وقد ظننت أنني تخلصت من المتاعب .. لذلك كانت دهشتي بالغة حين زرت مدير مصرف (بولونيا) لأستبدل بذهبي عملة وخطابات اعتماد ، فإذا به يطلعننى على نبأ نشرته الصحف ، مؤداه أن ضابطا في خدمة ملكة أسبانيا يدعى « دى كازانوفا » فر من الخدمة بعد أن قتل زميلا له ! ولقيت عناء في أن أتمالك نفسى ، ولكنى سرعان ما غالبت روعى وقلت له إن « كازانوفا » المقصود لا بد أن يكون رجلا آخر سوى — وكانت خطابات التوصية التى حملتها من الكاردينال كافية لأن تؤكد أنني لم أكن قط في خدمة ملكة أسبانيا ! — وفي اليوم الرابع تلقيت خطابا من « تيريزا » تقول فيه إن دوق « كاسترو بنيانو » عرض عليها ألف أوقية من الذهب سنويا مقابل أن تكون كبيرة مغنيات مسرح « سان كارلو » نابولى .. ووجدتنى — لأول مرة في حياتى — أطيل التفكير والتروى ، وقد تنازعتنى فكرتان : الأولى أنني لا يجب أن أدع حبنى يفسد على الفتاة مستقبلا .. والثانية ، أنني إذا رافقتها إلى نابولى وعشت معها ، فقد أبدو أمام الناس عالة عليها ، وهذا ما لا تقبله كرامتى — سيما وأن ابن عمى « أنتونيو » ، ومن تعرفت بهم من علية القوم ، يعيشون هناك — لذلك كتبت إليها أنصحها بأن تقبل العرض ، واعداد إياها بأن ألحق بها إذا ما عدت من القسطنطينية .. » .

.. ووصل الجواز الجديد أخيرا . وبعد أن دفع « كازانوفا » خمسين قطعة

ذهبية في مقابل الجواد الذى قرّ عليه من الثكنات ، رحل إلى البندقية ، حيث ساعده أصدقائه في الحصول على رتبة عسكرية من وزارة الحربية ، « كعضو في جيش البندقية » ..! ثم استأنف رحلته إلى القسطنطينية .. ورسّت البارجة — في طريقها — على ميناء « أوديسا » ، فهبط كازانوف إلى البر ، وأخذ يجوس خلال المدينة ، فإذا به يصادف رجلا يطيل التحديق فيه ، والتفرس في ملامحه ، ثم يقترب منه ، فيسأله إن كانت تلك أول مرة يزور فيها المدينة ؟

مصائب قوم .. عند قوم فوائد !

« وإذا قلت له إننى زرت المدينة في العام الماضى ، قال : « ولكنك لم تكن في الزى العسكرى ، وإنما كنت في زى رجال الدين .. أليس كذلك ؟ » . — بلى .. ولكن أسئلتك بدأت تثير ظننى .. — ألا اغفر لى يا سيدى ، فإن فضولى وليد العرفان بالفضل .. إننى مدين لك بالكثير ، وما أرى أن القدر أرسلك مرة أخرى إلا لكى تضاعف جمالك وعرفانى ! وضقت بمعمياته ، فاستحثثته على الإيضاح ، وإذا ذاك دعانى لتناول الفطور في بيته .. وبين أطباق الطعام الشهى ، وأقداح النبيذ المعتق ، شرع يتكلم :

— لقد ظللت أمارس الطب والجراحة في هذا المكان عشرين عاما ، عانيت خلالها الشظف ، إذ لم يكن لدى ما أفعله اللهم إلا بعض عمليات « الحجامة » ، وتضميد بعض الجروح التافهة التى لم تكن تدر على ما يقيم

أودى .. غير أن الحال تغيرت منذ العام الماضى ، وأخذت المهنة تدر على أرباحا طائلة .. بفضلك أنت !

— ولكن ، كيف كان هذا ؟

— لقد قامت بينك — خلال زيارتك للمدينة فى المرة السابقة — وبين خادمة الدون جيروم علاقة ما ، تركت لها فى أعقابها ذكرى .. هدية .. خلعتها بدورها على صديق لها ، نقلها بدوره إلى زوجته .. ولم تشأ السيدة أن تكون أنانية ، فوهبت الهدية إلى صديق راح يوزعها بسخاء ، فلم ينقض شهر حتى كان لدى خمسون مريضا ! .. وأخذ الداء ينتشر ، وعدد المرضى يزداد .. ولكن عنايتى بهم ما لبثت أن أثمرت ، فأخذ عددهم يتناقص من جديد ، حتى أوشكت أن أعود إلى تعطلى القديم .. فهل يدهشك بعد ذلك اغتباطى بلقائك !؟

وضحكت من القصة ، ثم أكدت للطبيب أننى شفيت ، فودعنى وهو يؤكد أنه سيكون سعيدا بخدمتى إذا عاودنى الداء ..

وعادت السفينة تستأنف رحلتها ، حتى (كورفو) — بإحدى جزر اليونان — حيث كان عليها أن ترسو حتى تلحق بها بارجة « الشيفالييه فينيير » ، قائد أسطول البندقية فى الجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، (وكانت البندقية إذ ذاك سيدة البحار) . وغرق « كازانوفافا » فى المقامرة — خلال الشهر الذى أقامه هناك — حتى خسر كل ما كان يحمل من مال وتحف .. وما لبثت بارجة القائد أن وصلت ، فاستأنف الأسطول رحلته ..

يفوت على نفسه فرصة الزواج من حسناء تركية ثرية !

ووصلنا إلى سفارة البندقية في (بيرا) حوالى منتصف يوليو ، حيث أعدت مساكن مريحة للضباط .. وحظيت بمرافق عسكري يلازمنى ، إذ كان الشعور العدائى ضد الأجانب مشبوبا . وفي اليوم الأول لوصولنا ، اصططجت تابعى لزيارة « عثمان باشا » والى قرمانيا — وهو الاسم واللقب اللذان اتخذهما « كونت دوبونفال » منذ اعتنق الإسلام وارتدى العمامة والذى التركى — وأبدى « الباشا » عطفًا على أمثالى من الشباب الذين يسلمون أقدارهم للحظ ، إذ يمضون فى الحياة بلا هدف معين ، وقال إن الكاردينال قد كتب له عنى بما يجعله يعنى أشد العناية بأمرى ، ووعد بأن يقدمنى إلى أربعة من أصدقائه الأتراك . ثم دعانى ليرينى مكتبته التى أقامها فى مبنى خاص بالحديقة .. وخلف أرفف الكتب ، كشف لى عن مخبأ يضم أشهى أنواع الخمور ! .. ثم أبدى رغبته فى أن أتناول الغداء على مائدته فى يوم الخميس من كل أسبوع .

* * *

وعلى مائدة « الكونت دوبونفال » تعرف « كازانوفا » إلى « إسماعيل أفندى » و « يوسف على » .. ودعاه كل منهما إلى داره .. أما الأول ، فقد خيل إلى « كازانوفا » أنه يسعى وراء مأرب فيه شئ من الشذوذ ، فأجفل منه ، والتزم الحذر ! .. وأما الآخر فقد أخلص له الود والوفاء ، وكانت لهما معا مساجلات ومناقشات دينية .. وزعم « كازانوفا » أن « يوسف على » بلغ فى

حبه له أن تمنى لو أنه اعتنق الإسلام ليزوجه من ابنته « سلمى » — وكانت حسناء باهرة الجمال فى الخامسة عشرة من عمرها — على أن يترك لهما كل ثروته .. ولكن « كازانوفا » كان يتوق إلى النجاح ، والشهرة ، والمغامرة .. فما لبث أن رحل مع قطع الأسطول مغادرين تركيا إلى (كورفو) ثانية .. وهناك عاش حياة دعة ، وانغمس فى الميسر ، واتفق مع مقامر عريق يدعى « مارولى » على أن يستثمرا مالهما معا فى اللعب ..

ياور .. بدون قفازات !

« وكان يشرف علينا فى (كورفو) المقيم العام ، مسيو « أندريه دولفين » . وكان فى الستين من عمره ، صارما ، عنيدا ، جاهلا .. وكانت له سلطة واسعة ، سيما بين رعايا البندقية ، فقد كان فى (كورفو) إذ ذاك ثلاثة من الضباط العاملين ، يشرفون على ثلاث سفن راسية فى مياه (كورفو) ، وثلاثة ضباط يشرفون على الجنود التابعين للسفن الثلاث . وكان تحت قيادة الأولين عشرة ضباط آخرون ، وتحت قيادة الآخرين عشرة أيضا ، كلهم من أبناء الأسرات العريقة فى البندقية .. ثم كان هناك عشرة من التلاميذ البحرين يتمون إلى الأسرات النبيلة فى البندقية ، وتراوح أعمارهم بين العشرين والثانية والعشرين .. فضلا عن عدد الموظفين المدنيين فى بوليس الجزيرة ، وفى الإدارة والقضاء .. وكانت دور المتزوجين منهم تحفل بالزوار الذين يسعون للتقرب إلى الزوجات .. بيد أن الجزيرة لم تشهد كثيرا من الفضايح الغرامية .. ولعل هذا كان يرجع إلى وجود عدد من غانيات اليونان الفاتنات ، اللاتى كن يبعن الهوى لمن يدفع الثمن ! وكانت أبرز السيدات ،

وأجملهن ، وأرقهن إذ ذاك ، « مدام ف . » ، زوجة ربان إحدى السفن الثلاث .. فقد خلب جماها ألباب ضباط البحرية ، ولكنها آثرت « د. ر. » — قائد أسطول الزوارق التابع للسفن الثلاث — الذى اختارنى « ياورا » له بمجرد وصولى ، استجابة لخطابات التوصية التى كنت أحملها ..

ورأيت « مدام ف . » للمرة الأولى ، فى اليوم الذى توليت فيه منصب « الياور » ، إذ ضمتنا مائدة العشاء .. واستهوانى جماها لأول وهلة ، فقد كان من مستوى غير عادى ، حتى لقد كان من المستحيل ألا يقع الرجال فى هواها .. وكان مركزى يتيح لى شرف الجلوس إلى مائدة المسيو « د. ر. » كغيرى من « الياوران » ، ولكننا لم نكن نعتبر ضيوفا ، ولم يكن أحد يحفل بالتحدث إلينا .. بل ولا بإيثارنا بنظرة ! .. وكان هذا يثير سخطى وغيظى ، حتى إننى أحسست — بعد نحو عشرة أيام — بكراهية لمدام « ف » ، لتعاليتها وصلفها .. وفى ذات ليلة ، دفع أحد السادة فى يدى ، ونحن نغادر مائدة العشاء ، مبلغا من المال كان مدينا لى به فى الميسر . ولحمت مدام « ف » ما جرى ، فسألتنى فجأة : « ماذا تفعل بنقودك ؟ » .

قلت : « أدخرها اتقاء الخسارة فى اللعب » .

— ولكن .. ألا يحسن بك أن تكف عن اللعب ؟ .. إنه مضيعة للوقت .

— إن الوقت الذى يسدد فى متعة ليس بالوقت الضائع يا سيدتى .. إنما الوقت الضائع هو ذاك الذى يقضيه الإنسان فى هم ، ونكد .. فإنه فى هذه الحال يكون عرضة لأن يقع فريسة للحب ، وأن يلقى من محبوبته النبذ والازدراء !

— قد يكون هذا صحيحا ، ولكن الادخار يوشك أن يجعل منك شحيحا بخيلا .. والمقتر لا يقل عن المحب المتهالك استحقاقا للنبذ والازدراء .. لم لا

تبتاع لنفسك زوجا من القفازات ؟
وأثارت كلماتها ضحك القوم .. وزادنى غيظا أنها كانت على حق ، فما
كان للياور أن يحضر مجالس علية القوم ، دون أن يحمل قفازين .. ورحت
أقضى أيامى بعد ذلك ، ونار الغيظ تكوينى ، ويقض مضجعى نوع من الشقاء
استبدلى ، إذ شعرت بعجزى عن كبج جماح كراهيتى لامرأة لم أكن أجد لها
— فى الحق — أى ذنب أو جريرة معى .. كل ما هنالك أنها لم تكن تحبنى ، لا
ولا كانت تكرهنى ، وقد أثار مسلكها هذا الطبيعى ثائرتى ، وأخذ غرورى
يوحى إلىّ بأن أقدم على شئ يجعلها تندم على هذا المسلك إزائى ؟

صفعة على وجه كازانوفاف = الموت !

« وفي ذات مساء ، أوفدني مسيو « د. ر. » في مهمة لم أعد منها إلا في منتصف الليل ، فإذا به قد أوى إلى مضجعه . لذلك كان أول ما فعلت في الصباح التالي ، أن سعيت إليه أفضى إليه بنتيجة مهمتي .. وفيما كنت بين يديه ، أقبل خادم برسالة من مدام « ف » فاكفهر وجهه بعد أن قرأها ، ثم مزقها وأمر بصرف الخادم الذي حملها !

وما أن غادرت حجراته في ذلك المساء ، حتى أنبأني خادم بأن مدام « ف » أرسلت تدعوني ، فأسرعت إلى دارها وأنا جد مشوق لأن أعرف سر هذه الدعوة !

وقالت بعد أن جمعت شتات خواطرها : « لقد خسر زوجي ليلة أمس مائتي قطعة ذهبية ، على المائدة التي يديرها شريكك ، ولم يكن معه المبلغ فتعهد بدفعه اليوم ، ظنا منه أنني أملك هذا القدر .. ولكنني للأسف في ضائقة ، والدين — كما تعلم — دين شرف ، لذلك خطر لي أنك قد تقبل أن تذكر لشريكك أنني دفعت لك المبلغ عن زوجي ، وهاك خاتم ثمين أرهنه لديك حتى أول يناير .. » .

ولكنني أبيت أن أحرمها من الخاتم ، واكتفيت بوثيقة تعهدت فيها بدفع المبلغ ، ثم غادرتها ، وعدت بعد عشر دقائق بمائتي قطعة ذهبية .. وكان أول ما فعلت ، حين رجعت إلى غرفتي ، أن رحت أطمس بالمداد الأسود الكثيف كل كلمة في الوثيقة ، عدا توقيعها ، وغيبتها في ظرف ، ثم أسلمتها لمسجل (مذكرات كازانوفاف)

المدينة ، على أن لا يسلمها بدوره لأحد سوى مدام « ف » إذا شاءت أن تستردها ..

وكان أشد ما أذهلنى أن مدام « ف » ظلت على نفس مسلكها السابق معى ، وإن بدأت — كلما جاء مجلسها فى مواجهتى حول المائدة — تؤثرنى ببعض الحديث ، فاتاحت لى بذلك فرصا كى أكشف عن ثقافتى ، وذكاى !.. وكنت فى ذلك الحين أجيد إضحاك الغير برواياتى وفكاهاتى ، دون أن تهتز جارحة واحدة فى جسدى أو وجهى !.. وهى ميزة ليست بالسهلة ، فكلما بدا المرء جادا ، كان ضحك المستمع أكثر !

* * *

وحوالى منتصف نوفمبر ، مرض الجندى الذى كان معيننا تابعا لى .. وفى لحظة من لحظات استفحال الداء ، طلب أن يرى قسًا ، وأوهمه بأنه ابن الملك « فرانسوا الخامس » من الأميرة « جابريل دى بليس » .. وأعطاه وثيقة أوصى فيها بالحرص على جسده ، والاتصال بسفير فرنسا فى البندقية ..

وضحكت من هذه القصة حين سمعتها .. ولكن السادة الذين كان يضمهم مجلس المسيو « د. ر. » لم يخالجهم شك فى صحتها ، فليس يعقل أن يفترى مخلوق وهو على عتبات الموت !.. وعبثا حاولت أن أقنعهم بأن « فرانسوا الخامس » لم يتزوج قط من آل « بليس » ، وأن أخلاق ذلك الجندى لا تنم عن عراقة أصل أو نبيل محتد .. ولكننى لم أقابل بغير ضحكات السخرية ..

وحدث أن تغلب الجندى على المرض .. وما إن غادر المستشفى ، حتى دعاه مسيو « د. ر. » إلى مأدبة عشاء ، أخذت خلالها السيدات يتقربن إليه ، والرجال يتملقونه ويعاملونه على أنه أمير .. وشاءت إحدى الحسنات أن

تخرجني أمامه ، فذكرت له أنني أؤكد أن روايته عن نسبه زائفة !
وشحب وجه الرجل الذي كان قبل ذلك بأيام خادما لي .. ثم تقدم
وصفّعني !.. ولولا خشيتي من نقمة رئيسي لنكلت به .. ولذا آثرت
الانسحاب بين ضحكات القوم الشامته ، ثم تربصت له في ركن مظلم من
الطريق ، حتى إذا انصرف ، تصدّيت له ، ودعوته للنزال .. ثم غسّلت الإهانة
التي نالتي منه .. وما أن رأيت جثته عند قدمي ، حتى ذهبت إلى المقهى الذي
كنا نديره للميسر ، فما لبث أن جاءني ضابط يعلنني بأن القائد يأمرني بأن
أسلم نفسي كسجين على ظهر البارجة « باسترادا » .. وكان السجين على هذه
السفينة يعامل أسوأ معاملة ، فتكبل يداه وساقاه بالأغلال ! » .

فراره إلى جزيرة صغيرة

وبادر « كازانوفا » إلى جمع كل ما كان لديه من مال ، وكل ما استطاع
شريكة أن يعطيه ، ثم حزم ما كانت تدعو إليه الضرورة من متاع ، واستقل
زورقا راح يهدف فيه ، حتى صادف سفينه أنزلته في جزيرة على بعد عشرين
ميلا من (كورفو) .. وهناك ، استأجر منزلا على قمة مرتفع يشرف على
البحر ، واستخدم بعض الأهالي فأعد منهم حرسا له ، ثم عاش في ترف محيطا
نفسه بعدد من حسان الجزيرة ، لمدة أسبوع أو عشرة أيام .. وفي ذات يوم ،
بدت في البحر بارجة ، لم تكد تقترب من الجزيرة حتى أنزل منها قارب فيه
ضابط وجنديان ، أخذ يتجه إلى الشاطئ .. وسرعان ما قاد حرس
« كازانوفا » الضابط إلى « مولا هم » ، فإذا به « ياور » زميل له ، أوفد إليه لينبئه
بأن خدعة الجندي القتل قد كشفت ، وأن القائد قد عفا عنه ، على شريطة أن

يعود فيسلم نفسه لقائد البارجة « باسترادا » ريثما يصدر أمر العفو ، صونا
لكرامة القائد وسلطته ..
وهكذا عاد « كازانوفا » ثانية إلى (كورفو) .. وفعلا لم يقض في سجن
البارجة ساعة ، حتى أطلق سراحه ..

عودة البطل .. ودعوة من مدام « ف » !

« وما إن ظهرت في مجلس المسيو « د. ر. » حتى قرأت السرور على كل وجه ، وكان في هذا خير عزاء أنساني كل شيء .. واحتضنني المسيو « د. ر. » ، وقدم لي خاتما ثميناً ، ثم قال : « ما أظنك تتصور مدى اهتمام مدام « ف » بمصيرك .. لسوف تغتبط إذا أنت ذهبت إليها فوراً » .

* * *

ولكن « كازانوف » وجدها مستسلمة للنوم حين ذهب ، ف قضى ساعة مع خادمتها الحسنة ، ثم قصد إلى دار القائد ، ف تلقاه هذا وهو محوط بكثير من الأصدقاء والضيوف .. وغمره بعطفه ، وسأله أن يروى له ما جرى .. فأخذ يروى قصته ، والكل يصغون ، معربين عن إعجابهم .

* * *

« وذات صباح ، تلقيت دعوة من مدام « ف » ، فقصدت إليها فوراً ، وإذا بها ترد لي القطع الذهبية التي كانت قد اقترضتها مني .. وبادرت إلى المسجل ، فأحضرت لها الوثيقة .. وما أن رأت كيف طمست الكلمات ، حتى هتفت : « يا له من برهان على مدى رقتك وشهامتك .. لقد تصرفت بنبل كبير » ..

على أنني حرت في أمرها حين وجدت أنها قد عادت مرة أخرى إلى مسلكها القديم من التعالي وعدم الاكتراث !
وفي أحد الأيام دعيت إلى مرافقة مسيو « ف » في بعض المناورات .. فلما

عدنا ، طلب مسيو « ف » إلى مسيو « د. ر. » أن ينزل له عنى .. وأدرك
مدام « ف » كانت وراء هذا الطلب ، حين ألفت مسيو « د. ر. » يستر
فأغدو ياورا للمسيو « ف. » .. وأفردت لى حجرة مجاورة للحجرة
الفاطنة ، ولكنها ظلت على فتورها نحوى !

وقدر لكازانوفا يوما أن يسرق خصلة من شعرها ، فلما أصر ،
استردادها ، استجاب لرغبتها ، ثم تمارض ، فأشفقت عليه ، ورق قلا
فأعطته بعض شعرها .. وفى الحال ، نسج من جزء من الشعر الحروفر
من اسمه واسمها ، على عصابة من الحرير الأخضر ، أحاط بها ذراعه ..
بجزء آخر حبلا صغيرا عقده حول رقبته لينتحر به إذا ما يمس م
المبرج .. ثم بخل بالشعيرات التى تخلفت عن العمليتين أن تذهب فى
فأحرقها ، وعهد بها إلى يهودى يصنع الحلوى ، فأعد له نوعا من الحلوى
به رماذ الشعر .. واعتز بهذه الحلوى ، فلم يكن يسمح لأحد بأى جز
مما أثار فضول السيدة « ف » ، فراحت تستفسره عنها !

أخيرا .. تستجيب المتمنعة !

« وقلت لها إن الحلوى مصنوعة من مواد تجعل من يتناولها يتدله فى
فلم يزدها هذا إلا إصرارا على معرفة سرها .. وفتحت الصندوق ، فتنا
تبقى من محتوياته ودسسته فى فمى دفعة واحدة وقلت : « إن كمية أحد
هذه الحلوى كفيلا بأن تجعلنى أموت وأنا مجنون بحبك ، وإذ ذاك
وهمت بالخروج ، فأمسكت بذراعى ، وأجلستنى فى مقعد

منها ، وراحت تهيب بى أن لا أرتكب من الحماقات ما يعكر سعادتها .. ثم قالت : « إنك لتعرف مدى حبنى لك .. حبا لم يجتلب بعقار ما » .. وإذ ذاك ركعت عند قدميها ، واغرورقت عيناي بدموع العرفان بالحب ، ورحت أروى لها ما فعلت بشعرها ، وكشفت عن العصابة المحيطة بذراعى ، والحبل المحيط بعنقى .. فابتسمت وأنهضتنى ، وجففت دموعى ، مؤكدة أننى لن أجد داعيا قط لأن أحنق نفسى بالحبل المجدول من شعرها ! ولم تفرغ من قولها حتى التقت شفاها فى وئام هنىء . وضمتنى إلى صدرها فى شدة لم أستطع معها أن أحرك يدى .. وبعد عناق لذيذ ، سألتها أن تسمح لى ببعض المداعبات ، فقالت :

— مستحيل يا أحب صديق .. إن الحب طفل يجب إرضاءه بالتوافه ، لأن الأكل الدسم يقتله !

وصدعت لرغبتها ، وإن رحت أرجو أن تتغلب الأيام على تمنعها ، فقد كان الحظ دائما صديقى الذى أدين له بالفضل فى كثير مما نلته من هناء !
وحدث أن أصيبت مدام « ف » ذات يوم بجرح عميق فى ساقها ، خيف أن يتطور إلى ما هو أسوأ ، إذ لم تلق عناية بالغة .. ومن ثم أخذ يتردد عليها فى كل صباح طبيب يقوم بتنظيف الجرح ومعالجته . ولم تكن تشهد هذه العملية سوى وصيفتها . ولكننى كنت أقف كل يوم الى جوار الباب ، فى انتظار الوصيفة ، لأسألها فى لهفة عن حال الفاتنة .. إلى أن جاءتنى الوصيفة ذات صباح ، تدعونى إلى الغرفة والطبيب يضمّد الجرح ..

وكان الطبيب منهمكا فى إعداد الضمادة فى الطرف الآخر من الحجرة حين دخلت .. وإذ خرجت الوصيفة ، رحت أتحمس ما حول الجرح ، وأسألها ما إذا كانت تشعر بألم .. ولم يكن ثمة التهاب .. وقبل أن تتوغل

أصابعى ، جذبت المريضة الحبيبة ستارا حجبنا عن الطبيب ، وجادت على بقبلة جميلة أدار شذاها رأسى .. وانتقلت شفتاى من فمها إلى الجرح ! ودخلت مخدعها فى الصباح التالى ، والطبيب يعنى بجرحها .. وما أن غادرها منصرفا ، حتى سألتنى أن أسوى الوسائد حولها .. وفيما هى تعتدل فى فراشها ، انزاح طرف ثوبها ، فبهر جمال ساقها عيني ..

وفى الصباح التالى ، لم يكد الطبيب ينصرف ، حتى أوفدت المريضة وصيفتها فى بعض المهام ، وهتفت بعد خروج الفتاة :

— آه .. لقد نسيت الوصيصة أن تبدل لى قميصى ..

فسألتها أن تسمح لى بأن أقوم بالمهمة ، فقالت :

— ليكن .. إنما تذكر أننى لا أسمح لغير نظراتك أن تستغل الفرصة !
— وخلعت القميص المتسخ .. ولم أكن سريعا فى إلباسها القميص النظيف ، فقد شغلت بالتهام مفاتن جسدها بنظراتى .. وأخذت أطرافى ترتعش حتى أشفقت على .. وهويت فى أحضانها ، والتصقت شفاهنا .. ونعمنا بلحظات هنيئة ، لم تطفئ سعي رغبائنا ، ولكنها خلعت عليها تسرية مموهة !

وأخذ الجرح يقترب سريعا من البرء .. وفى ذات يوم ، رحل مسيو « ف » إلى موقع بعض المناورات البحرية ، على أن ألحق به فى الصباح التالى .. وتناولت العشاء مع مدام « ف » ، وحدنا .. وقالت : « لنعوض فى هذا المساء ما سنعانى غدا من فراق ، ولنقض الليل معا فى مناجاة .. فإذا ما انصرف الوصيصة بعد أن آوى إلى مضجعى ، فتعال عن طريق غرفة زوجى .. » .

الدواء الوحيد .. للحب !

لم أتردد فى اتباع تعليماتها بدقة متناهية ، فإذا بنا نحظى بخلوة كان مقدرها لها أن تظل خمس ساعات .. وكنا فى شهر يونيو ، والحر قائل ، واحتويتها بين ذراعى ، وضممتها إلى صدرى ، فقالت :

— يجب أن نكبح جماح الحب بيد قوية ، وأن نضحك منه ، رغم ما فى ترويضنا إياه من ظلم عات ، فهذا نوقفه عند حده ، ونرضى رغباتنا فى الوقت ذاته !

— يا لك من قاسية أيتها الحبيبة !.. إنك تكتوين بنار الهوى ، ومع ذلك تحرمين نفسك من الدواء الوحيد الذى يسكن مشاعرك المشبوبة .. أواه ، يا نور قلبى !.. إن الحب ليضعف من وجودى ، ويبعث فى نفسى ضياء الأمل فى أن أموت بتأثير النشوة التى أيقظتنى الآن منها !

— أرانى مدفوعة إلى أن أصدق ، ولكن دعنا ننتظر . وفى خلال فترة الانتظار ، تعال نستمتع بالتفاهات الأولية التى نلقاها على هامش الحب !.. وإذا كانت ليلتنا هذه جد قصيرة ، فلنخفف عن نفسينا لوعة غدنا ، بتدبير لقاء آخر ..

— وإذا كشف أمرنا ؟

— وهل نحن نجعل منه سرا ؟.. إن السماء والطبيعة لا بد أن تحميها ، فليس من جريمة فى اندماج قلبين فى حب صادق .. لقد كان الحب إله كيانى ، منذ فطنت إلى نفسى فى هذا الوجود .. وما من مرة رأيت فيها رجلا إلا وهزنى

الطرب ، إذ أرى فيه النصف الآخر من نفسى ، وكأننى ما خلقت إلا له ، وما خلق إلا لى ! .. ومن ثم تاقت نفسى إلى الزواج ، فى شوق العذراء التى تملأ قلبها أحلام المراهقة فى سن الخامسة عشرة .. ولم أكن أدرى ما الهوى ، ولكنى كنت أتصوره مقترنا بالزواج .. وبذلك ، لك أن تتصور مدى الصدمة التى أصبت بها ، حين أغفل زوجى أمر سعادتي ، وهو يجعل منى امرأة ! .. كان خيالى أبهج من الحقيقة التى فاجأنى بها زوجى ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ، أن أصبحنا صديقين حميمين ، وزوجين متباعدين ، فى الوقت ذاته ! .. كان يرضيه أن يجذبنى طوع رغباته ، ولكن الفتور الذى كان يلقيه منى فى سويغات النشوة ، لم يلبث أن زهده فى تلك النشوة ، فقل تردده على مخدعى ! .. وذكرت مدام « ف » لى أنها حين تنهت إلى حبنى لها ، راحت تزيد ناره تأججا ، اطمئنانا منها إلى ما بدا لها من أنها لن تحببني قط .. حتى إذا شعرت بالحب يفتح قلبها اقتحاما ، اشتدت جفوة وقسوة ، انتقاما منى لانتصار حبنى على فؤادها .. ولم تلبث مقاومتها أن انهارت بفضل صبرى وإلحاحى .. واستطردت تقول : « وبعد القبلية الأولى ، لم أعد مسيطرة على نفسى .. فقد أذهلنى الأثر الذى أحدثته قبلية واحدة ، وشعرت على الفور بأن سعادتي مرتبطة بسعادتك .. وقد ازدادت الليلة يقينا من هذا » !

وقضينا الليلة فى مناجاة ونشوة ، حتى انبثق ضوء النهار ، فانتزعت نفسى من بين ذراعيها فى أسف ، لألحق بزوجها .. وما كان ليخطر لها ببال أننى سأجد فى كيانى قوة تمكننى من أن أنشط لواجبنى بعد تلك الليلة !

أحزان كازانوفات

وانقضت بعد ذلك عشرة أيام أو اثنا عشر يوماً ، لم نطفئ خلالها ذرة من ظمأنا العاطفى الذى كان يلهب جوانحنا !.. ثم وقع ذلك الحادث الأليم .. فقد قربتنى إليها ذات ليلة حتى أو شكت الحجب أن تنزاح عن طريق حبنا ، وإذا بها فى اللحظة العارمة ، تقصينى عنها .. فاندفعت كالجنون أهيم على وجهى ، وإذا بى أصادف غانية كانت تعرفنى ، فنادتنى .. ولم تكن الشهوة ، ولا جمال المرأة ، ولا الوهم .. وإنما كان الضعف والغضب هما اللذان دفعانى إلى أحضانها !

وفى الصباح التالى ، دعتنى مدام « ف .. » إلى مخدعها وبادرتنى قائلة : « لن أكنم عنك يا حبيبى أننى شعرت بأسى عميق ، بعد أن غادرتنى فى الليلة الماضية ، إذ فطنت إلى ما سببته لك من لوعة وضنى .. ولم يغمض لى جفن فى انتظار عودتك ، ولكننى لم أر ضوءاً فى نافذتك .. وعندما أرسل زوجى فى الصباح يدعوك ، فوجدك تزال تغط فى نومك ، شعرت بالحزن يملأ قلبى ، لا عن غيرة — فأنا واثقة من أنك لا يمكن أن تحب سواى — وإنما عن إشفاق من أن تكون قد أصبت بضرر ما .. وإذا سمعتك قادما ، عاودنى الهناء ، إذ شعرت بأن فى وسعى أن أثبت لك ندمى وأكفر عن قسوتى .. ولكننى حين رأيتك ، فطنت إلى تغير اعتراك .. إن روحى تقرأ على محياك أمارات الذنب .. فصارحنى إذا كنت قد خذلت حبنا !

وكم من مرة وجدت نفسى فى مثل هذا الموقف أمام امرأة ، فعرفت كيف أروغ وأهدئ من هواجسها .. ولكننى أمام هذه الفاتنة لم أجرؤ على

الكذب .. فصارحتها بما جرى .. ولم تغضب ، بل تقبلت توبتي قبولاً حسناً !
ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد .. فبعد ثلاثة أيام ، أحسست بأعراض
مرض خبيث .. وأسرعت بعرض نفسي على أحد الأطباء ، فوعدني بأن يبذل
جهده .. على أن يستمر العلاج لمدة شهرين .. وما كان أشد كربى
وأحزاني !.. ولم أجد بداً من أن أصارح معبودتي والحسرة تفرى فؤادى !..
وكان القدر لم يكتف بهذه النكبة ، إذ رزأني بأشد منها .. فقد اضطرت إلى
مبارحة دار المسيو « ف .. » ، وعدت ياورا للمسيو « د. ر. » مرة أخرى ..
وكان هذا إيذاناً بانقطاع الصلة بينى وبين فانتنى ، إذ أعرضت عني !
وما لبثنا فى نهاية سبتمبر سنة ١٧٤٥ أن رحلنا إلى البندقية ، فغادرت
(كورفو) معدماً ، خالى الوفاض ، مضطجع الحواس !.. وما أن هبطت إلى
البر فى البندقية ، حتى سعت إلى دار مدام « أوريو » فألفتها خاوية . وعلمت
أن السيدة تزوجت من مسيو « روزا » — وقد رويت فى الجزء الأول من
مذكراتى مدى صداقتى لهما — ومن ثم ذهبت إلى دار مسيو « روزا » حيث
استقبلنى الزوجان فى حفاوة بالغة ، وعلمت من مدام « أوريو » أن « نانيت »
تزوجت ونزحت مع زوجها إلى (قشطالة) بأسبانيا ، فى حين أن أختها
« مارتون » زهدت فى الدنيا ، وغدت راهبة .. وقد تلقيت من الأخيرة خطاباً
تعلن لى فيه غفرانها لإغوائى إياها ، وتعدنى بأن تصلى من أجلى كى يغفر الله
لى !

وسعت بعد ذلك إلى الاستقالة من الخدمة العسكرية . وما لبثت أن
حصلت على إذن من وزير الحربية بذلك ، فبادرت إلى خلع الزى العسكرى ،
والإقامة مع شقيقى « فرانسوا » . وكان لا بد لى من أن أبحث عن عمل بعد
قليل ، فاستغللت ما كنت قد تلقيت على يدى الدكتور « جوتسى » من دروس

في العزف على الكمان ، وانضمت إلى فرقة موسيقية في مسرح « سان صمويل » .. ورحلت أرتقب تطورات الحظ .. ولم أجسر ، خلال هذه الفترة ، على الظهور في الأوساط الراقية .. ولكن اعتدت أن أنطلق مع أفراد الفرقة عقب العمل — في كل ليلة — لنعيث في أرجاء المدينة فسادا ، ونقوم بمغامرات عجيبة .. فكنا أحيانا نتسلق أبراج الكنائس وندق الأجراس ، أو نفك « الجندولات » من عقاها ، ونتركها للتيار .. إلى أن كانت ليلة من ليالى الكرنفال في سنة ١٧٤٥ ..

* * *

في تلك الليلة ، قصد « كازانوف » وزملاؤه ، بعد الفراغ من المسرح ، إلى مشرب بساحة « الصليب المقدس » ، فإذا به خاو إلا من ثلاثة رجال وسيدة ، جلسوا يشربون ويسمرون في مقصورة خارجية خاصة ، فتقدم منهم رئيس الفرقة ، وزعم أنه موفد من مجلس العشرة — وهو الهيئة الحاكمة التي كانت تتحكم في مصائر أهل البندقية — وأن على الرجال أن يسلموا أنفسهم ! .. بينما تولى كازانوف وزميل له أمر السيدة ! .. ونقلت الفرقة الرجال الثلاثة إلى مكان ناء ثم عادوا فقادوا السيدة إلى نزل ، وطلبوا شرابا وعشاء .. وأخذوا يرحون ! .. وفي الصباح التالي ، قدم الرجال الثلاثة شكوى إلى مجلس العشرة عما حدث .. وكان أن أعلن المجلس عن مكافأة لمن يرشد إلى المعتدين ، فكفت الفرقة عن مغامراتها !

كازانوف .. يمارس الطب !

« في منتصف إبريل سنة ١٧٤٦ ، حضرت زفافا لفتاة إحدى أسر الطبقة الحاكمة ، وعزفت على الكمان مع الفرقة الموسيقية التي كانت تحيي الحفلات الراقصة ثلاثة أيام تباعا .. وفي نهاية الرقص — في اليوم الثالث — ألح على التعب ، فانصرفت قبل مطلع النهار بساعة . وفيما كنت أهبط السلم ، رأيت أحد أعضاء مجلس الشيوخ يهم بأن يستقل « الجندول » ، فإذا برسالة تقع منه بينما كان يخرج منديله . وسارعت بالتقاطها وتقديمها إليه ، فأصر على أن يصطحبني في جندوله . وإن هي إلا دقائق ، حتى التفت يسألني أن أدلك له ذراعه اليسرى ، إذ أحس فيها بألم طارئ ! .. ولكن الألم سرى في كل جانبيه الأيسر ، فلم يعد يستطيع حراكا . وأدركت أنه أصيب بنوبة شلل مفاجئة ، فأسرعت أصرخ في الملاح أسأله أن يعرج على أقرب نقطة في طريقه ، ثم هرعت ألتمس جراحا عدت به إلى « الجندول » حيث قام بحجامة للشيخ الكبير .. ومزقت قميصي ليتخذ منه ضمادات ، ثم رافقت الشيخ إلى قصره ، ووجدتني بحكم الظروف قائد الموقف ، فأمرت الخدم باستدعاء طبيب .. ومكثت بجوار سرير المريض ، أعنى به .. وجاء الطبيب فقام بحجامة جديدة للشيخ ، ثم أقبل اثنان من أقاربه فهمت منهم أن الرجل من كبار ساسة جمهورية البندقية ، وإنه يدعى « براجادين » . ومالبت الرجل أن أبدى رغبته في أن أظل وحدي إلى جواره . وأخذ الطبيب يتردد عليه ، ولكن الدواء الذي وصفه له ، أصابه بحمى جعلتني أضرب بتعليمات الطبيب عرض الحائط ،

وأعجله بنفسى ، الأمر الذى ضاعف من ثقة « براجادين » فى ، وفى استياء
الطبيب وإعراضه عن المضى فى العلاج !

كازانوف .. الساحر !

وهكذا وجدتنى طبيبا لعضو من أبرز أعضاء مجلس شيوخ البندقية .
وأعترف بأننى كنت شديد الاعتباط بذلك . واستطعت بما التزمته من تنظيم
لتغذية المريض ، أن أدفعه قدما نحو الشفاء !
وأبى الشيخ الجليل أن يصدق أن ما أبديته من مهارة فى علاجه ، وما لاح
خلال أحاديثى من معرفة ودراية ، كانت من ثمار العلم وحده ، فإن صغر سننى
لم يكن يوحى قط بأننى وجدت من فسحة العمر ما يكفى لتحصيل كل هذه
العبقرية .. وإنما ذهب إلى أننى ولا بد كنت أمتلك قوة سحرية خفية !..
فاستغللت هذا الاعتقاد ، ورحت أذكىه فى نفسه وفى نفس صديقين حميمين
له — من أعضاء مجلس الشيوخ أيضا ، وكانا يقيمان فى القصر نفسه —
ولجأت إلى الدجل لإقناعهم بأننى أستطيع أن أكشف الغيب وأنبأ
بالمستقبل !!

المغامر الأعظم .. يجد له أبا !

وأرى من واجبى أن أعترف بصراحة بأننى كنت أخدعهم ، وأننى لم
أعاملهم بأمانة وصدق . ولكنى أناشد القارئ أن لا يتعجل الحكم علىّ ، فإن
من يعرف الدنيا ويفهم روح المجتمع ، لا شك سيلتمس لى الأعذار .. سيما

وأنتى كنت فى العشرين من عمرى ، ذكيا وموهوبا .. ورغم ذلك لم أبلغ إذ ذاك إلا مركز عازف الكمان !.. ثم إننى كنت خليقا بأن أفقد صداقة وعطف ثلاثة من عليّة القوم كهؤلاء ، لو أنتى آثرت أن أكون أمينا معهم !

وفى اليوم الذى قدر فيه لمسيو « براجادين » أن يغادر القصر ليحضر اجتماع مجلس الشيوخ — لأول مرة منذ إبلاله من المرض — قال لى : « إننى مدين لك بحياتى .. لقد أرسلك الله بلا شك لتكون ملاكى الحارس ومنقذى ، وقد عرفت فىك ما يجعلنى أقدرك ، وأجعلك منى بمنزلة الابن .. فلو شئت أن تتخذنى أبا ، لعاملتك حتى مماتى كما ينبغى أن أعامل ابنا من دمي ولحمى .. وقد أفردت لك جناحا فى قصرى ، وسيكون لك خادم خاص ، و « جندول » ومقعد حول مائدتى ، وعشرة جنيها فى الشهر ، وهو المبلغ الذى كنت أتلقيه من أبى وأنا فى مثل سنك . وليس عليك سوى أن تستمتع بالحياة كما تشاء ، وأن تتخذنى مرشدا وناصحا كلما أعوزك الرأى !

وحين انتهى الشيخ من حديثه ، ألقى بنفسى عند قدميه ، معبرا عن شكرى ، فأنهضنى واحتوانى بين ذراعيه ، فى حنان الأب . ووعدته بأن أحبه وأطيعه .. واحتضنتنى رفيقاه فى القصر — مسيو « داندولو » ومسيو « باربارو » — وأقسمنا جميعا بأن نصون الود إلى الأبد !

وهكذا ابتسم لى الحظ وأولانى السعادة . ولو أنتى انتهجت سبيل الاعتدال والقصد ، لتوطد مستقبل على أسس عزيزة متينة .. بيد أنتى كنت مفطورا على الاندفاع ، وحب اللهو ، والاعتداد باستقلالى ، فلم أشأ أن أخضع للقيود التى كان يحتمها علىّ مركزى الجديد !.. وكان لى من شبابه ، ووسامتى ، وما توفر بين يدي من المال ، ما ضاعف هذا الاندفاع منى .. وما شجعتنى على الإسراف ، والانغماس فى المقامرة !

وتعرفت يوما إلى نبيل بولندى شاب يدعى « زافويسكى » — سأعود إلى التحدث عنه فى جزء تال من مذكراتى — عرفنى بدوره بكونتس حسناء ، فتحت وزوجها لى أبواب قصرهما .. وأطمعنى ما كانت تبديه لى الكونتس من ود ، فرحت أتهور فى المقامرة على مائدتهما ، حتى جاءت ليلة خسرت فيها خمسمائة جنيه ، لم أكن أملك منها شيئا ، فوعدت بشرى أن أدفع الدين فى الصباح التالى !

وتولانى كرب ما بعده كرب .. واشتد همى حين أقبل الصباح التالى ، ولما أجد نخرجنا من هذا المأزق .. وأدرك لى نعمتى ، مسيو « براجادين » ، ما أعانيه ، فلم يزل لى حتى أفضيت إليه بأمرى ، محتتما حديثى بأنى لن أحتمل أن أعميش حتى أرى الفضيحة تحقيق لى ، والعار يصمنى لعجزى عن الوفاء بوعده الشرف . وأصغى الشيخ فى انتباه ، ثم تحول يسرى عنى ، مؤكدا أن الدين الذى كان سببا فى شقائى ، لن يلبث أن ينزاح عن عاتقى !

وفىما كنت أجلس إلى مائدة الغداء مع الأصدقاء الثلاثة فى ذلك اليوم ، أقبل خادما يحمل رسالة وطردها صغيرا إلى مسيو « براجادين » . وإذ قرأ الخطاب ، أشار إلى فتبعته إلى حجرة مكتبه ، وهناك دفع إلى بالطرد ، فوجدته — إذ فتحته — يتضمن أربعين جنيها . وضحك وهو يلمح دهشتى ، ثم أسلمنى الخطاب ، فقرأت فيه : « ليتأكد مسيو كازانوفاف أن لعبنا بالأمس لم يكن سوى مجرد تسلية ، فهو ليس مدينا لى بشيء ، بل إن زوجتى لترسل إليه هذا المبلغ مقابل نصف ما خسر من جيبه ، إذ كانت شريكة له فى اللعب » ! وقال لى الشيخ : « إذا لعبت مرة أخرى ، على وعد ، فلا تدفع » .

— ولكن هذا يسبب فضيحة تودى بشرى !

— إن هذا أدعى إلى أن لا تعد إذا وجدت أنك عاجز عن الدفع .. وفى هذا (مذكرات كازانوفاف)

إنقاذ لشرفك ومالك .

وأتبع درسه لى بأن راح يلقننى كيف ينبغى أن أتفادى الخسارة فى اللعب ! وبعد ثلاثة أشهر أو أربعة ، لقننى درسا آخر .. إذ حدث أن وفد على البندقية رجل فرنسى تقدم إلى الحكومة بالتماس تعيينه مفتشا لجيوش الجمهورية .. وإذ تعرفت به ، قدمته إلى مسيو « براجادين » الذى وعده بأن يساعده ، وفى ذات يوم ، وقعت فى ضائفة ، فطلبت من مسيو « براجادين » مائة جنيه ، ولكنه أشار علىّ بأن أسعى إلى اقتراضها من ذلك الفرنسى .. بيد أن الرجل راح يعتذر فى أسلوب معسول .. حتى إذا جاء اليوم الذى عرض فيه طلبه على مجلس الشيوخ ، حمل مسيو « براجادين » لواء المعارضة ، وأثار حماسة الأعضاء ، بأن ردد أن من العار أن يعهد إلى أجنبى بمثل هذا المنصب فى جيش (البندقية) !

وراح الفرنسى يطلق لسانه فى كل مكان بأن معارضة مسيو « براجادين » إنما انبعثت عن رفضه أن يقرضنى المائة جنيه .. ولم ينل هذا من سمعة ولى نعمتى ، ولكنه نبّه القوم إلى أهمية مركزى ، فأصبحت مقصد أصحاب الحاجات !

خاطئة .. تعترف لكازانوفاً !

وفي أوائل أكتوبر سنة ١٧٤٦ ، كنت أسير وقناعى على وجهى ، حين لمحت سيدة شابة تغادر زورقا غريبا عن المدينة ، وقد بدت عليها الحيرة . وألفيتنى مدفوعا إليها بقوة خفية ، فاقتربت منها وسألتها عما إذا كانت بحاجة إلى أية خدمة ؟

وفي استحياء قالت إنها تريد الاستفسار عن بعض أمور عميت عليها ، لأنها غريبة عن المدينة .. فدعوتها إلى مقهى قريب ، رافقتنى إليه بعد تردد ، فقدتها إلى مقصورة خاصة ، حتى إذا خلونا فيها ، رفعت نقابى ، فخفضت نقابها حتى ظهر نصف وجهها . واستطعت أن أتبين أن لها أنفا دقيقا ، وعينين جميلتين ، وفما بديعا . وكانت ملاحظها تنم عن حسن ، ونبل ، وأسى ، امتزجت معا فأضفت عليها فتنة ساحرة لا سبيل إلى وصفها !

وبعد أن جففت الحسنة دموعا كانت تفيض من عينيها ، ذكرت لى أنها من أسرة نبيلة ، من مدينة « ك .. » ، وأنها هاربة من أسرتها ، سعياء وراء شاب من (البندقية) أغواها ، وقضى عليها بشقاء أبدى ! قلت : « وهل جئت تناشدينه أن يقوم بالواجب ؟ .. هل وعدك بالزواج ؟ » .

— بل سجل وعده كتابة ، وهذا ما أغراى على أن أمهد له سبيل التسلل إلى دارنا دون أن يشعر به أحد .. فاستغل ثقتى أشنع استغلال .. ورحت أطمئنها حتى وثقت لى ، وإذ ذاك أخرجت من صدرها ورقة

تضمنت وعدا من « زانيتو ستيفانى » إلى الكونتيسة الشابة « ا. س. » ، يؤكد لها بشرفه أنه سوف يتزوج منها خلال شهر واحد .. وأدركت أن ليس للورقة أية قيمة ، فقد كنت أعرف الشاب .. كان موظفا في حكومة البندقية ، وكان غدا ندلا ، ولكنه كان الوارث الوحيد لأم غنية !

وهتفت الفتاة ضارعة إذ رأت أنى أعرفه ، كى أصبحها إلى داره ، فقلت لها : « إننى لن أتوانى عن أن أفعل كل ما تطلبينه ، ولكنى أسألك أن تمنحني كل ثقتك ، وأن تأخذى بنصحى .. لست أرى جدوى من الذهاب إلى داره . لقد ألحق بك أبلغ الضرر .. ولو أننا وجدناه فى داره ، فمن المحتمل أن يسىء استقبالك .. أما إذا لم يكن فى البيت ، فقد لا ترحب بك أمه . ثقى بى ، وتأكدى أن الله قد أرسلنى كى أساعدك ، وإنى لأعدك بأن آتيك نبأ « ستيفانى » غدا . ولا أنصحك بأن تدعيه يعلم بوصولك إلى (البندقية) قبل أن أتجسس أمره » .

— يا إلهى !.. وإلى أين أذهب الليلة ؟

كنت أعرف أرملة أمينة ، تقية ، أفردت فى مسكنها حجرتين تؤجرهما للنزلاء . فما زلت بالكونتيسة الشابة حتى قبلت أن أقودها إلى هناك . وفيما كنا فى « الجندول » ، مضت تروى لى تفاصيل مأساتها .. فذكرت أن الشاب التقى بها فى زفاف حضرته بصحبة أمها ، وما لبث أن عرف بيتها ، فأخذ يتسلل كل ليلة ليقف تحت نافذتها يناجيا ، ويقسم أغلظ الأيمان على حبه ، ويمنحها الموائيق على صدق نيته فى الزواج منها . وكان كلما دعته أن يتقدم لأسرتها ينتحل شتى المعاذير .. ثم راح يغريها بأن تفر خلسة معه ، مؤكدا أنه لن تنقضى أيام ثلاثة على فرارها ، حتى يصل إلى أسرتها ما يؤكد أنها

قد غدت زوجة له ، ثم يعودان بعد أن تهدأ الضجة فيزوران أهلها ويسترضيانهم !

واستطردت الفتاة : « والآن ما جدوى الندم يا سيدى ١٩ .. لقد أعمانى الهوى ، فترديت .. وافقته على كل شيء .. وأعطاني الورقة التي سجل فيها تعهده بالزواج ، فسمحت له بالتسلل إلى غرفتي ، وأسلمته نفسي ، واثقة من صدقه وإخلاصه ! .. وتركنى على أن يوافيني في الليلة التالية لنفر معا ، ولكنه لم يأت ! .. وعلمت أنه غادر المدينة بعد أن وصمنى بعار أبدى . ولن تستطيع أن تتصور مدى حيرتي وقنوطي .. ولم يكن ثمة حل سوى واحد ، ومن ثم هربت من دار أهلي بعد يومين وسرت على قدمي أربعاً وعشرين ساعة ، حتى عثرت على زورق قادم إلى (البندقية) .. ومع أن ظروفى كانت توجب على ألا أثق في رجل ، ولا أطمئن إلى شاب ، إلا أن قوة خفية أوحت لى أن أركن إليك » !

وتمالكت أنفاسها ، وعادت تقول ضارعة : « هذه قصتى يا سيدى ، ولكننى أضرع إليك ألا تقسو في حكمك على .. لقد كنت طيلة حياتى صالحة ، تقية ، عفة .. وكنت إلى شهر مضى بريئة ، طاهرة .. وما أحسب إلا أن الدمع السخين الذى أذرفه ليل نهار ، كفيل بأن يحوزلتى .. لدى الله على الأقل ! .. إننى أسلمك زمامى ، وأدعو الله ألا يحدث ما يجعلنى أندم على ذلك » !

وعاودت جهودى لأبعث الطمأنينة في نفسها ، وقلت لها إن خداع « ستيفانى » لها ، وهجره إياها في نذالة ، لم يكونا سوى حلقتين من تدبير خبيث ، وإنها يجب أن تركز أفكارها في أن تثار لنفسها .. فارتجفت المسكينة ، وأخفت وجهها في راحتها .

تحريض .. على النار !

وبلغنا المنزل ، فأسلمتها إلى السيدة الطيبة ، وأمرت لها بعشاء ، وأوصيت صاحبة المسكن بأن تجيب كل طلباتها ، ثم استأذنت السيدة في الانصراف ، على أن أوافيها في الصباح التالى ..

وما أن بارحتها ، حتى يمت شطر دار « ستيفانى » ، فعلمت أنه كان بالفعل فى مدينة (ك ..) وعاد إلى البندقية ، ولكنه لم يلبث ثلاثة أيام حتى رحل ثانية ، منذ أربع وعشرين ساعة ، ولم يدر أحد مقصده أو شيئاً عن رحلته !

وذهبت إلى الفتاة فى الصباح الباكر ، فوجدتها ما تزال فى مخدعها ، وقد أوصدت الباب دونها .. فظللت أنتظرها حتى نهضت من نومها ، وفتحت بابها ، وإذ ذاك استأذنت فى الدخول ، وأفضيت إليها بما علمت .. وتبدى الأسى عميقاً على محياها .. وأعربت عن يقينها من أن « ستيفانى » ولا ريب قد عاد إلى (ك ..) ، فأبديت لها استعدادى لأن أرحل خلفه لأدركه ، وأرشدتها إلى مكانه . ولكنها خشيت أن يكون قد تبين فرارها ، فانخذ طريقه عائداً إلى (البندقية) . واستدرجتها حتى عرفت أنها تقضى أوقات فراغها فى القراءة والموسيقى ، فما أن غادرتها ، حتى بادرت إلى شراء بعض الكتب ، وقيثارة ، ثم عدت إليها بها . وشعرت باغتراب ومتعة غريبة وأنا أتلقي شكرها ، وأرى التأثير الذى تركه فى نفسها ما أظهرت من اهتمام بالغ بها ، زعزع الفكرة السيئة التى كان « ستيفانى » قد تركها فى نفسها — بفعلته — عن الرجال !

وفي اليوم الثالث ، سألتني في غمرة ما كانت تضيفه عليّ من آيات الشكر والعرفان ، عما يدعوني إلى أن أبدى لها كل هذه الرعاية والعطف ، بدلا من أن أسئ الظن بها .. فقلت إن ما دعاني إلى ذلك ، هو عين ما دعاها إلى أن تطمئن إليّ حين تقدمت إليها ، برغم أنها لم تكن تعرفني ، ورغم اللثام الذي كان يعلو وجهي ..

واستطردت قائلا : « كان من السهل أن أحس أنك حسناء في محنة ، فلما رأيت شبابك ، ونبلك ، وأساك ، شعرت بقوة خفية تدفعني إلى أن أساعدك .. وكان طابع الصدق الذي لازم كلماتك الأولى كفيلا بأن يجعلني لا أرتاب قط في قصتك .. ثم أن الشعور بالشرف والرغبة في محو العار ، يبرران فرارك من أهلك .. إن الجبان الذي خدعك لا يستحق أن يتزوج منك ، بل يجب أن يدفع حياته جزاء جرمه ! » .

— هذا حق ، وأرجو أن يثار لي أخى !

وعلمت أن لها أخا ضابطا في خدمة البابا .. فقلت لها :

— تخطئين إذا ظننت أن « ستيفاني » يستحق أن ينزل أخاك .. إنه جبان لن

يجرؤ على أن يعرض نفسه لأية ميتة شريفة نبيلة !

وإذ كنت أتكلم ، مدت يدها إلى أطواء ثيابها ، فأخرجت شيئا تأملته ، ثم

وضعته على المنضدة .. وكان هذا الشيء خنجرا طوله خمسة عشر سنتيمترا !

عابد الجمال .. مخلص له !

نفذت عبارات الثقة التى أبدتها الفتاة إلى أعماق قلبى ، وقد كدت أهن للطيش والنزق .. على أننى حين زرتها بعد ظهر اليوم التالى ، ألفتها أمام المرأة تزين .. وكانت المرة الأولى التى أرى فيها وجهها بأكمله ، ونحرها ، ونصف ذراعها اللتين أجادت الطبيعة صوغهما .. ورأيت على منضدة الزينة خاتما فتناولته وأخذت أتأمله ، وإذا بى أشهد فيه إطارا يحوى صورة شخص يشبهها تمام الشبه ، وإن كان فى زى الرجال . وكأنا لاحظت ما دار بخلدى ، فقالت : « .. إنها صورة شقيقى الضابط فى الحرس البابوى .. إنه يكبرنى بعامين » !

وسألتها أن تسمح لى بأن أضع إصبعها فى الخاتم .. حتى إذا انتهيت ، وجدت من الشهامة أن أطبع قبلة على يدها ، وإذا بها تسحبها وقد تضرج وجهها . وخشيت أن تظن بى الظنون ، فرحت أؤكد لها احترامى .. وكأنا خشيت بدورها أن تكون قد آذت شعورى ، فجلست إلى القيثاره التى ابتعتها لها ، وأخذت تعزف بعض القطع ، فى دقة وبساطة المتمكنة من فنها .. وأسكرتنى النغمات ، فتوسلت إليها أن تغنى .. وليس بوسعى أن أصف عذوبة غنائها !.. ثم ألحفت فى أن تسمح لى بأن أقبل يدها ، فكانت القبلة التى طبعتها مزيجا من الحب ، والتقدير ، والاحترام ، والإعجاب !

وغادرتها وقد اشتدت بى تباريح الهوى ، وعزمت على أن أسعى لمكاشفتها بوجدى .. ولكنى كنت أرجئ عزمى يوما بعد يوم .. إلى أن كان ذات صباح

زرتها فيه ، فأعربت لها عن عجبى لأنها لا تعرف عنى شيئا ، أنا الذى أنقذتها وأخذت أغدق عليها من كرمى ! .. ومن ثم رحت أروى لها كل شىء عن نفسى .. وما لبث أن تحول الحديث إلى « ستيفان » — الحبيب الذى غرر بها — وكيف أن أحدا لا يعرف له مكانا ، فى حين أن أباهم ولا بد يظنها مختفية معه .. وكانت عند ذكر « ستيفانى » تبدى اشمزازا بالغا ، وأردفت أنها تحب أن تقضى ما بقى لها من عمر فى دير ناء ، حيث لا يعرف أحد فضيحتها المخزية !

السباحة .. فى بحر الهوى !

ولكن القدر كان ينفذ خطة أخرى .. فبينما كنت و « ألى » — الشيخ « براجادين » — وزميلاه حول مائدة العشاء فى ذلك المساء ، قال « باربارو » : « لقد جاءنى اليوم أحد رعايا البابا بتوصية خاصة ، كى أساعده بنفوذى فى مسألة دقيقة ، شائكة .. إذ يبدو أن أحد رعايا جمهوريتنا اختطف ابنته وفر بها ، وقد عزم الأب على أن يعرض المسألة على مجلس العشرة .. » . وخفق قلبى ، ولكنى تظاهرت بعدم الاكتراث ، حتى إذا كان الصباح التالى ، بادرت مبكرا إلى حسنائى أحمل إليها النبأ ، فتوسلت إلى أن أحمل مسيو « باربارو » على أن يتوسط بينها وبين أبيها .. وأعطينى التعهد الذى كتبه خادعها الوغد ، قاطعا فيه الوعد على نفسه بالزواج منها ، حتى يقوم دليلا لدى أبيها على أنها كانت ضحية ! وأخذت أفكر فى الخطة التى أتهجها .. فإن تنفيذ رغبة الكونتيسة الشابة كان يقتضى البوح بأنها تحت رعايتى .. وفى عصر ذلك اليوم جاء الكونت « ا. س. » — أبوها — يصحبها شقيقها ، الذى كان صورة دقيقة منها ، واختليا بمسيو « باربارو » ساعة ،

حتى إذا انصرفا ، تحايلت حتى استدرجت مسيو « باربارو » ليسألنى أن أكتشف الغيب وأستقرئ ما فيه بصدد هذا الموضوع . وتظاهرت بالاستغراق فى التأمل ، ثم قلت فى هدوء تام : « من واجبك أن تنصح الأب بأن يغفر لابنته ، وأن يتخلى عن كل فكرة ترمى إلى إجبارها على الزواج من الشاب الذى خدعها ، لأن الله قضى على هذا بالموت » .

وراق الرد للشيخ الثلاثة . وقال مسيو « براجادين » لمسيو « باربارو » إنه يحسن به أن يدعو الكونت وابنه فى اليوم التالى للغداء ، ثم يسعى فى روية وحكمة لحمل الأب على الصفح عن ابنته .. وإذ وعد الشيخ بذلك ، تعهدت بدورى أن أسأل الأرواح عن مكان الفتاة . ثم أسرع إليها أطلعها على التطورات .. وأمضيت الأمسية فى صحبتها ، وقد استبد بها الاغتيال لقرب ارتدادها إلى أبيها .. وأخذت تعرب عن مدى تقديرها لى ، واعترافها بفضلى ، فقلت :

— كوفى صريحة وقولى الحق .. إنك ما كنت لتترددى فى الارتياح فى شخصى لو أننى وقعت فى هواك ..

— بل إننى لا أخشى شيئا سوى أن أفقدك !

وكان صوتها ووميض عينيها يؤكدان صدقها .. ووجدتنى أحتويها بين ذراعى وألصق شفتى بشفتيها .. وأسلمت نفسى للهوى الجارف ، أصبح على أمواج النشوة التى يزخر بها بحره .. وضاعف من نشوتى أن قرأت على وجه الحبيبة آيات الهناء ، والحب ، والعاطفة المشوبة !

وإذ انتصف الليل ، استأذنت فى الانصراف ، حرصا على سمعتها !!

الفتيات في أمان .. مع كازانوفافا !!

وتناول الكونت وابنه الغداء معنا في اليوم التالي .. كان الابن آية في الحسن ، ونبل الخلق ! وكان صورة طبق الأصل من أخته ، وقد سعت لأكسب صداقته .. وإذ رأى الكونت الجو الذي يسود القصر ، اطمأن قلبه ، فراح يروي لنا قصته ، وكان من قبل قد قصر ثقته على مسيو « باربارو » .. ومضى يؤكد أن « ستيفاني » لم يلج داره قط ، وأنه كان قد عرف أنه أمضى ليلة تحت نافذة مخدع ابنته يناجيهها ويغازلها .. وأخذ يتساءل : أى سحر في الشاب جعل الفتاة تستجيب له بهذه السرعة ؟! .. وكان الأعجب من هذا أن الشاب غادر المدينة قبل فرار الفتاة بيومين .. ثم أخذ يردد وجوب قسر الشاب على الزواج من ضحيته !

وهنا قال مسيو « باربارو » : « ليس هناك ما يؤكد أن الفتاة تعيش مع الشاب الذي غرر بها .. ويخيل إليّ أنه من الخير أن لا تصر على هذا الزواج القسري الذي قد يقضى على ابنتك بشقاء أبدى ، إذ أن « ستيفاني » من أحقر الشبان الذين يعملون في حكومتنا ومن أدناهم قدرا ! » .

وقال مسيو « براجادين » : « لو أنني كنت في مكانك لتركتم ندم ابنتي وتوبتها يطفآن جذوة غضبي ، ولصفحت عنها » .

— وأين هي ؟ .. ما كنت لأتردد في أن أغفر لها لو أنها جاءتني تائبة .. ولكن ، كيف أتوقع منها التوبة وهي معه ؟ .. لقد علمت من تحرياتي أنها جاءت في قارب صغير لنقل البضائع ، وهبطت على مسافة عشرين ياردة من البوابة الرومانية ، حيث التقى بها شخص يخفى وجهه خلف قناع ، فسار

معها ، ثم .. اختفى كل أثر لها !.. على أننى لا أملك إلا أن أستبعد أن يكون ذلك الشخص هو « ستيفانى » ، لأن الأوصاف التى نمت إلّى تخالف أوصاف « ستيفانى » .. لقد رأى هذا الشخص أربعة أفراد ، وحصروا شبهاتهم فى أربعة شبان ، هذه أسماءهم ، وسوف أتهمهم أمام مجلس العشرة .. » .

وقرأ مسيو « باربارو » الأسماء ، فإذا اسمى بينها !.. وضحك أصدقائى الشيوخ الثلاثة ، وقال مسيو « براجادين » : « ها هو ذا كازانوفا .. ابنى ، وأقسم لك بشرفى أن لو كانت ابنتك فى رعايته فسوف تكون فى أمان !! » .

واستبدت الحيرة بالكونت وابنه .. وأخذ الأب يلحف فى الرجاء ، والدموع تنساب من عينيه ، أن أرشده إلى مقر ابنته ، فوعده بأن أسعى للعثور عليها ، على أن يرجئ شكواه إلى مجلس العشرة ..

ساعات .. فى محراب الهوى !

وأسرعت بعد هذا الاجتماع إلى محبوبتى أروى لها بإسهاب ما دار . وكانت تبكى فرحاً وهى تستعيدنى ما قاله والدها ، فوعدها بأن أصبحب أحباها إلى مقرها فى اليوم التالى . وتناولت عشاءى معها ، ثم أمضينا ساعتين فى محراب الهوى . ولولا خشيتى من أن ترتاب صاحبة المنزل ، ما فارقتها ! .. وما أن بلغت بيتى بعد منتصف الليل ، حتى ألفت أصدقائى الشيوخ الثلاثة فى انتظارى ، وبادرنى مسيو « براجادين » قائلاً إن نبوءتى قد صحت ، وإن « ستيفانى » مات — بالنسبة للعالم — إذ غدا راهباً . فانتهزت فرصة إيمانهم بصحة اتصالى بالأرواح — بعد هذا الدليل ! — وقلت :

— إذن ، فأنا الآن فى حل من أن أصارحك يا أبى العزيز ، بما كانت الأرواح تضطرنى إلى تكتمه من قبل !

ورويت لهم ما كان من أمر لقاى للفتاة ، ولم أكنم إلا ما رأيت أن ليس من شأنهم أن يعرفوه .. وقال مسيو « براجادين » :

— إذن فلنبق مقرها سرا حتى نستوثق تماماً من أن أباه قد غفر لها ، وأنه سيأخذها معه إلى مدينة (ك ..) .

قلت : « إنه لا يملك سوى أن يغفر لها ، لأنها لم تفر من أهلها إلا اعتماداً على وعد بخط الشاب تعهد فيه بأن يتزوجها .. وقد واثق إلهام من الأرواح بأن أسعى إلى « البوابة الرومانية » ، فى نفس اللحظة التى غادرت فيها القارب وأن أدعوها لأن تبغنى ، فسارت معى دون أن تمنع ، وكأنها هى الأخرى كانت

تطيع إرادة خفية روحية .. ومن ثم صحبتها إلى بيت مأمون ، وتركتها في رعاية امرأة تقية ..
ونصحتهم بأن يدعوا الكونت في اليوم بعد التالى للغداء .

رياضة غرامية .. فى الصباح !

ولم أتم إلا ساعات قلائل .. وما أن انبثقت أولى بوادر ضياء النهار ، حتى بادرت إلى حبيبتي .. وتلقنتى فى فراشها ، وعيناها تفيضان حبورا ، فلم نضيع الوقت ، ورحنا نثبت مدى حبنا ، وهوانا . وبعد رياضتنا الغرامية ، أفضيت إليها بالجديد من الأنباء . وأخيرا أدركنا أن وقت فراقنا لن يلبث أن يحين فى اليوم التالى ، فأشاع هذا أسى فى قلبينا ، رحنا نحاول إغراقه بإطلاق عواطفنا تتدفق كالسيل يجرف كل ما أمامه !

على أن الوقت مر سريعا .. وعندما عدت إلى دارنا ، وجدت الكونت وابنه فى زيارتنا ، وقد اشتد القلق بالأب فعاد يتعجل الرغبة فى رفع قضيته إلى مجلس العشرة . وكان هذا العزم سببا فى أن أفضينا إليه بأن ابنته فى رعايتى . وفى الصباح المبكر التالى ، أسرعت إلى معبودتى ، فغرقتنا فى بحر الغرام حتى الظهر ، حين اضطرت إلى مغادرتها ، لأن أباه وأخاها كانا مدعوين للغداء على مائدتنا ..

وعرض مسيو « براجادين » على الكونت الورقة التى كتبها « ستيفانى » للفتاة .. ومضى يشرح له قصتها ، مبررا فرارها ، فما كان من الرجل إلا أن هتف متأثرا : « أواه ! .. أكدوا لها أننى غفرت لها .. إن سعادتى أصبحت تتوقف على رؤيتها ! » .

وأكدت له أنني سأرد له ابنته في اليوم التالي . ولكي يطمئن ، دعوت ابنه
ومسيو « باربارو » إلى أن يصحباني لزيارتها ..
وكان اللقاء بين الشقيقين مؤثرا .. وأخذت الفتاة تعرب لأخيها عن
الصنيع الذي أدبته لها ، وأسمتني « ملاكها الحارس » .. وإذ تأهبنا
للانصراف ، راحت تقول إنها تتعجل اللحظة التي ترتدى فيها على قدمي
أبيها !

وأمضيت سحابة النهار التالي مع الحبيبة ، نغترف أكبر قدر من ملذات
الهوى قبل أن يقدر لنا الفراق .. ثم بارحتها في المساء ، لأعود بأبيها وأخيها
ومسيو « داندولو » ومسيو « باربارو » .. وما أن رأت أباها حتى ارتمت على
قدميه .. فاندفع الرجل باكيا ، وأنهضها ليحتويها في أحضانه ، ويغمرها
بقبلاته ، ويؤكد لها صفحه !

مبارزة .. فى الليل !

بعد أيام ، ذهبت مع الشيوخ الثلاثة إلى « بادوا » لنقضى بضعة أيام .. وكاد الملل يقتلنى ، لولا أن وقعت فى حب غانية تدعى « إنسيلا » .. وكان الذى قدمنى لها ، شاب من عشاق اللهو مثلى ، يدعى « الكونت مدينى » .. وكان مقامرا عريقا ، ومن ثم رحنا نقضى ليالينا نحن الثلاثة فى اللعب ، إلى أن اكتشفت ذات مساء ، أنهما متآمران على الغش لابتزاز نقودى ، فشهرت مسدسى فى صدر الكونت وأجبرتهما على أن يردا كل ما أخذاه منى ! وبعد أن ردّا المال ، أخذت « الكونت » العزة بالإثم ، فدعانى إلى المبارزة . وخرجنا نسعى حتى وجدنا بقعة مناسبة ، فرحنا نتبارز تحت ضوء القمر ، حتى أصبت غريمى بجرح فى كتفه ، وأجبرته على أن يسألنى العفو ! وأفضيت إلى أبى فى الصباح بما جرى ، فنصحنى بأن أغادر « بادوا » فورا ، خشية نفوذ « الكونت مدينى » — الذى ظل غريما لى بعد ذلك طيلة العمر — ومن ثم رحلت إلى نابولى ..

وأمضيت ما تبقى من سنة ١٧٤٦ دون ما مغامرة تستحق الذكر ، اللهم إلا أننى وقعت فى هوى فتاة حسناء لم يلبث أن فرق بيننا زواجها من راقص فرنسى ، استوطن البندقية من أجلها ..

زواج .. بدون عقد !

وفي يناير سنة ١٧٤٧ ، وجدتني في ضيق شديد ، اضطرني إلى أن أسعى إلى بلدة على بضعة أميال من البندقية ، تدعى (تريفيو) ، لأرهن خاتما لدى مراب كنت أثق فيه .. ولهذا خرجت في الصباح الباكر ، وسرت إلى نهاية قناة (ريديجو) ، لأستأجر « جندولا » يقلني إلى (ميسترا) ، ومن هناك أستقل عربة تحملني إلى (تريفيو) .

ومر بي « جندول » صغير ، رأيت فيه فتاة ريفية في ثياب بدیعة مع قس مسن ، فأنخيت لأتأملها ، وظن النوتي أنني أريد أن أنضم إلى راكبيه ، اقتصادا في النفقات . ولم أتردد ، حين أوقف « الجندول » ، في أن أهبط إليه .. ودفعت له ضعف ما طلب ، كي لا يسمح لأحد آخر بمشاطرتنا « الجندول » . وأراد القس أن يتنحى عن مجلسه ، ولكنني أبيت في تأدب ، ليتاح لي أن أجلس أمام الفتاة ، التي كانت غاية في البهاء .

واتصل الحديث بيني وبين القس ، فما لبثت الفتاة أن اطمأنت إليّ .. وسرعان ما عرفت أن أباه مات تاركا إياها في رعاية عمها القس ، فورث عنه ثروة لا بأس بها .. كما أنها توشك أن ترث أمها التي طال بها المرض واقترب أجلها !

ورحت في لباقة أطرى جمال الفتاة ، فإذا بها وعمها يضحكان .. وسألتهما في دهشة عن سر الضحك ، فقالت « كريستينا » ، وهذا اسمها :

— لأن الغزل وإطراء حسنى هما كل ما فزت به من رجال (البندقية) ، ولكنني لم أصادف بينهم من لديه الجرأة على أن يثبت صدق تأثيره بجمالى ، (مذكرات كازانوفا)

فيقودنى إلى الكنيسة ليرتبط بى ويحظى بجمالى ، له وحده إلى نهاية العمر ..
لقد اضطررنا إلى أن نغادر (البندقية) — بعد أسبوعين — كما أتيناها !
وقال العم القس : « إن هذه الفتاة أهل لخير زوج ، سيما وأنها تملك ثلاثة
آلاف جنيه .. ولكنها تصر على أن يكون زوجها من أهل (البندقية) .. ولقد
أمضينا فى المدينة أسبوعين ، ترددنا خللها على عدد من الأسرات ، والتقت
الفتاة بكثير من الشبان ، ولكن الذين أعجبت بهم لم يسألوها الزواج ، والذين
طلبوها لم يروقوا لها ! » .

وإذ بلغنا نهاية الرحلة بالجندول ، قال القس إنه سيسير على قدميه إلى
بلدته ، بعد أن يجد للفتاة مكانا فى إحدى العربات ، اقتصادا للنفقات ..
فقلت :

— إنكما تسديان صنيعا لى ، لو قبلتما دعوتى إلى أن تصحبانى فى العربة التى
سأستقلها .

ودعانا القس إلى القداس فى كنيسة القرية التى هبطنا بها . وفى طريقنا
إليها ، قدمت ذراعى للفتاة ، قائلا — إذ رأيتها تتردد موجسة — : « إن أصول
المجاملة تقتضى أن أقدم لك ذراعى تعتمدين عليها ، خشية أن يظن الناس أننا
نجهل آداب السلوك » .

— أولا تخشى أن يرانا أحد من معارفك ، فيشى بك إلى حبيبتك ؟
— ليست لى حبيبة .. ولن تكون لى فى المستقبل حبيبة ، لأننى لن ألقى فى
(البندقية) حسناء فى مثل جمالك !

— ليتنى التقيت بك هناك ، فكانت تتاح لنا الفرصة كى يدرس كل منا
صاحبه ، وكى يطمئن عمى إلى مركزك ..

— إننى على استعداد لأن أتحمّل نفقات عودتكما إليها ..

— أجاد أنت في قولك ؟ .. إذن ، فقل لعمى ..
— وهل تقبلين شابا مثلى زوجا ؟ .. هل تظنين أنك ستحبيني ؟
— أجل ، سأحبك كل الحب إذا ما تزوجتني !
وتطلعت إلى الفتاة مأخوذا .. كانت فاتنة .. وكانت ساذجة !
وتعمدت أن أدعوها خلال الرحلة إلى فندق ريفى صغير ، غير مطروق .
وجلست أمام الفتاة ، حين ضمنتنا مائدة العشاء ، فأخذت أكتشف مزيدا من
آيات فتنتها ، ومن ثم قلت لعمها :
— إننى أنصحك يا أبى بأن تصحب ابنة أخيك ثانية إلى (البندقية) ،
وسأتكفل بنفقاتكما ، كما سأدلك على سيدة تقية ، طيبة ، تستطيع أن تأمنها
على الآنسة « كريستينا » ، فإننى أريد أن تتاح لى فرصة دراسة شخصيتها عسى
أن أتخذها زوجة ..
وإذ أبدى الرجل رضاه ، وعدته بأن أكتب له خلال أسبوع .
ودعوت صاحب الفندق لأحجز غرفتين ، ولكنه قال إنه لا يملك سوى
غرفة واحدة ، فأظهر القس الطيب أنه لا يمانع فى أن ننام معا ، فسوف يشغل
وابنة أخيه سريرا ، ويدعان لى السرير الثانى ..
وسمعت الفتاة فى الظلام تتودد إلى عمها وتلاطفه .. ومالبت القس الطيب
أن ضحك قائلا : « أتعرف ماذا تحاول ابنة أخى ؟ .. إننى كنت سأعرج على
بلدة أخرى فى طريقنا إلى بلدتنا ، وهى تحاول أن تقنعنى بأن أعفيها من عناء
السفر ، فأذهب لأداء مهمتى ثم أعود لأصحبها إلى بلدتنا ، قائلة إن بوسعى أن
أطمئن عليها فى رعاية سيد نبيل كريم مثلك !
قلت : « إننى إذ أشكر لكما هذه الثقة ، أعتقد أن ليس لك أن تخشى على
فتاة عاقلة حكيمة مثلها » .

قال : « الحق أنكما أهل للثقة . إذن سأدعها لرعايتك يا سيدى ، وسأعود في صباح بعد باكر » .

وأمضيت نهاية اليوم التالى وأنا أحرم نفسى من استغلال أية فرصة ، وأنا فى صحبة زميلتى الحسنة . ولكننى كنت أزداد تدلها ووجدتها بها ، دقيقة بعد أخرى .. وما أرانى بحاجة إلى أن أذكر أننى عوضت نفسى عن هذا الحرمان ، حين انفردنا فى غرفتنا .. وكانت النشوة أقوى من أن نفطن فى غمرتها إلى الحدود التى كان ينبغى أن نقف عندها ..

وهتفت « كريستينا » إذ أفقنا من نشوتنا : « ماذا فعلنا ؟ » .
— أصبحنا زوجين !!

— وماذا يقول عمى حين يأتى ؟

— لا داعى لأن يعرف شيئا ، إلى أن يبارك زواجنا !

ولكنها ما لبثت أن أخلدت إلى وجوم رابنى ، فسألتها عما أصابها ، وإذ ذاك قالت : « إن ما جرى بيننا خليك بأن يجعلنا نعمل على عقد الزواج بأسرع ما نستطيع . ولكنك تعرف أننا الآن فى أواخر أعياد « الكرنفال » ، وسيتبعها الصوم الكبير ، ومن ثم فلن يتاح لنا أن نتزوج قبل عيد الفصح ..

قلت : « فى وسعنا أن نحصل على إذن خاص .. »

فقبلتنى فى تقدير .. ولا أكنم إننى ، وقد أشبعت وجدى ، بدأت أشعر بالندم على التورط ، وبالرغبة فى البحث عن منفذ . على أننى لم أكن أقوى على أن أسلم تلك الفتاة الساذجة للشقاء .

وإذ عاد عمها ، وعدته بأن أتصل به فى الأيام الأولى للموسم الكبير .. وأسرعت عائدا إلى البندقية ، فوجدت أصدقائى الشيوخ الثلاثة أشد ما يكونون شوقا لرؤيتى ، وقلقا علىّ ، إذ لم أكن قد أنبأتهم بأننى سأغيب عنهم ليلتين .

« كازانوفا » يبحث عن زوج لحبيته !

وفي اليوم التالي ، خطرت لى فكرة تمكّنى من أن أحقق السعادة لكريستينا دون أن أضطر إلى الزواج منها . وفي المساء ، جلست إلى الشيوخ الثلاثة ، الذين راحوا يسألوننى أن أستشير الأرواح فى بعض المسائل . وفجأة قلت لهم : « بهذه المناسبة ، لقد تعهدت لفتاة طيبة بأن أحصل لها إذن بابوى لعقد قرانها خلال الصوم الكبير ، فى كنيسة قريتها .. إن عمها يريد أن يزوجهها ليطمئن عليها ، وإن كان لم يجد لها بعد زوجا .. »

ووعدتنى « أبى » بأن يكتب إلى روما لينطلب من سفير البندقية أن يسعى للحصول على هذا الإذن . وإذ ذاك تظاهرت بأننى أستغرق فى غيبوبة روحية ، ثم قلت : « إن الأرواح تكلفنا نحن الأربعة أن نبحث لها عن زوج ! » .

وواتانى الحظ فى اللعب بألف جنيه بندق ، فسددت ديونى ، وبدأت الراحة تعاود بالى . وإن هى إلا عشرة أيام ، حتى وصل الإذن البابوى لكريستينا بأن تعقد قرانها خلال فترة الصوم الكبير . ولم يبق إلا تعيين الزوج .

وبادرت أكتب إلى القس كى يلقانى فى (تريفيو) .. ولم أدهش حين وجدت ابنة أخيه معه ، إذ ظننت أنى أعددت العدة لزواجها منى ، حتى إنها تلقتنى بالعناق والقبلات .. ولو لم يكن عمها حاضرا ، لانصهرت إرادتى ، وارتضيت أن أكون زوجها ، فقد عاد جمالها يخلب لى !

العثور على الضحية !

وفي اليوم التالى ، سنحت لنا فرصة خلونا فيها ، بيد أننى وقد عقدت العزم على أن لا أكون زوجها ، استطعت أن أكبح جماح نزواتى .. وغادرتها وعمها فى ذلك اليوم ، على أن أعود إليهما بعد عشرة أيام .

وفي يوم الأحد الثانى ، فى فترة الصوم الكبير ، عثر مسيو « داندولو » على شاب رشحه لأن يكون زوجا لكريستينا .. وكان حسن الخلق ، مليح الوجه ، فى الثانية والعشرين من عمره ، يتيم الوالدين ، وفى حاجة إلى زوجة صالحة تعنى به ، وتكون ذات ثروة تمكنه من أن يؤسس مكتبا للمحاماة والتسجيلات القضائية . وعرفنى فى اليوم التالى بالشاب ، فوجدته صالحا من كل النواحي .. وملت إليه ، فتوثقت بيننا أواصر الود . وإذ أنبأه مسيو « داندولو » بأن أمر العروس التى ينشدها فى يدى ، ألح فى أن أقدمه إليها ، فسألته أن يفرد يوما لهذه الزيارة . وصحبته فى ذلك اليوم إلى قرية القس ، فبلغناها قبل منتصف النهار بساعتين . وما أن استقررنا بدار القس ، حتى أقبلت « كريستينا » فحيتنى فى شوق ، وهى تجهل ما دبرت . على أننى ما لبثت أن تحينت فرصة خلوت إليها فيها لأوصيها بأن تتحفظ إذا ما اجتمعنا حول مائدة الغداء ، لأن زميلى قد يكون الزوج الذى أراده الله لها !

وفي وسع القارئ أن يتصور مدى الألم الذى كنت أعانيه وأنا أفضى إليها بهذا . ولكن الأدعى للدهشة هو ذلك المسلك الذى واجهت به الموقف ، فقد

تلقت النبأ في سكون ورزانة .. وبعد وجوم قصير ، سألتني : « إن هذا التطور
جد غريب . هل أنبأت عمي به ؟ .. ثم ، متى يتم الزواج إذا أنا رقت في نظر
صاحبك ؟ » .

ووعدها بأن أنبئ عمها بما جد ، وأن أعمل على أن يكون الزواج خلال
عشرة أيام .. فقد أدركت ما كان يقلقها : كانت تخشى أن تكون علاقتنا ذات
ثمرة !

مبارزة .. بسبب عشيقة قديمة !

غادرت البندقية ذات مساء ، فلم ينقض يومان حتى بلغت (مانتوا) .
و كنت وحيدا ، أحمل الكثير من الثياب والجواهر والمال .. ومع أنى لم أكن
أعرف أحدا هناك ، إلا أنى كنت أحظى بجرأة وصحة الشاب الذى لم يجاوز
الربيع الثالث والعشرين من عمره .. لذلك نزلت فى فندق كبير ، وبعد أن
تناولت عشاء فخما ، خرجت للنزهة ، ثم ذهبت إلى المسرح .. وشد ما كان
اغتيابى حين شاهدت « مارينا » — صديقتى القديمة التى رويت مغامرتى
معه فى حلقة سابقة — تؤدى لونا من الرقص والمرح ، بين تصفيق المفتونين
بجمالها . ولما كان حسننا قد نضج ، فقد عولت على أن أجدد علاقتى معها ،
واستأجرت من أرشدنى إلى دارها فى نهاية السهرة .. فوجدتها تجلس إلى مائدة
العشاء مع شخص .. ولكنها لم تكذ ترانى حتى قفزت من مكانها وأخذت
تحتضننى وتغرقنى بالقبلات .. فقابلت استقبالها بمثلها ، بعد إذ اطمأنتت إلى
أنها لم تكن تعباً بجليسيها . وأجلستنى إلى جوارها ، فسألتها عن زميلها ، وقد
ساءنى أن لم يبادر بتحيتى ..

وأجابت : « إنه » كونت شيل « من روما .. وهو عشيقى ! » .
فتحولت إلى الرجل أهنته بحظه وأداعبه قائلا : « لا يسوؤنك هذا اللقاء
الحار بيننا ، فإن مارينا ابنتى ! »

فأجاب : « بل هى عاهرة ! »

قالت لى الفتاة فى لهجة لاذعة : « صدقه .. فإنه النذل الذى يأتينى

بالرجال » !

وقذفها الوغد بسكين ، فتحاشتها ، وإذ جرى وراءها ، شهرت سيفى فى طريقه .. واتفقنا على أن نلتقى فى كازينو « بومى » فى اليوم التالى لنسوى حسابنا .. وإذ هممت بالانصراف ، تشبثت « مارينا » بى ، وألحت فى أن أضعها معى ، فأنزلتها فى غرفة ملاصقة لغرفتى فى الفندق . وأمرت بعشاء ، ثم سألتها عن قصتها مع « الكونت شيلى » ، فروت لى أنه مقامر محترف ، ينتحل لقب « الكونت » ، وقد استدرجها بلقبه المزعوم حتى أصبحت عشيقته ، فأخذ يستغلها فى غشى ضحاياها فى الميسر !

واختتمت قصتها قائلة : « سأكون لك وحدك منذ الليلة ، إذا كنت لا تزال على ما كنت عليه فى (كورفو) من عزوبة ، وكنت لا تزال تحببى » .. فلما اطمأنت إلى حبى ، راحت تؤكد لى أن ذلك الوغد لن يفى بوعده للمبارزة .. ولكنى لم أشأ أن أركن إلى تأكيدها ، بل وضعت كل ما أملك من مال ومجوهرات فى جيبى ، وذهبت إلى « الكازينو » . ولم يكن « الكونت » الزائف قد وصل بعد . على أننى صادفت فرنسيا مليحا طاب لى أن أتحدث إليه . وما لبث أن جاء الشقى ومعه شخص يحمل سيفاً طويلاً ، ويبدو عليه مظهر الأثقياء .. وذهبنا إلى بقعة مناسبة .. وبينما انهمكت فى مبارزة غريمى ، تحرش زميله الشقى بالفرنسى معيراً إياه بأنه يحترف الرقص ، فسرعان ما أخذنا يتبارزان هما الآخران .. وانتهى الصراع بتغلبى والفرنسى على النذلين .. » .

وتوثقت العلاقات بين « كازانوفاف » والفرنسى الذى تبين أنه راقص مشهور يدعى « باليتى » .. ولم يلبث أن أعجب بمارينا ، وابتكر رقصة بديعة يظهران فيها معا .. وإذ رأى « كازانوفاف » أن أمامهما مستقبلاً فى (ميلان) ،

تركهما يرحلان معا ، وبقي في (مانتوا) . وحدث ذات مساء ، أن تأخر في الخارج دون أن يكون معه مصباح ، وكانت القوانين تحتم على كل من يسير في الطريق أثناء الليل أن يحمل مصباحا ، ومن ثم قبض عليه أحد رجال الشرطة . وكان ضابط البوليس شابا لطيفا ، مرحا ، لم يملك أن يطلق سراحه ، ولكنه استبقاه كضيف ، ودعاه إلى عشاء بهيج ، انضم إليهما فيه ضابطان آخران ، وامرأتان مبتذلتان . حتى إذا فرغوا من العشاء ، انتظموا حول مائدة للمقامرة .. وخرج « كازانوفا » في نهاية السهرة وقد ربح في الميسر ، ولكنه أصيب بعدوى مرض من إحدى المرأتين ، قضى ستة أسابيع قبل أن يبرأ منه !

مغامرة .. من نوع جديد !

« وقضيت عيد الفصح في (مانتوا) .. وبعد افتتاح موسم الأوبرا ، تبينت أن كيس نقودي ما زال مفعما بالمال ، فقررت أن أرحل إلى (نابولي) لأزور عزيزتي (تيريز) و « دونالو كريسيا » . و « دون أنتونيو كازانوفا » ، وصديقي الشاعر الصغير « بالو » وأباه .. ولكنني في الليلة السابقة على الرحيل ، ذهبت إلى « الأوبرا » فإذا بي أصادف ما جعلني أعدل عن الرحلة . ففيما كنت أتهيا لمغادرة دار المسرح ، اقترب مني شاب بادرني — دون أي تعارف أو مقدمات — بأن من الخطأ أن أقضي شهرين في « مانتوا » دون أن أشهد مجموعة التاريخ الطبيعي التي يقتها أبوه .. « دون أنطونيو كاييتاني » .. النائب الأسقفى .

وواعدته على أن يوافيني في الصباح التالي .. وبالفعل جاء فصحبني إلى حيث التقيت بأبيه الذي أدركت لأول وهلة أنه كان ذا نزوات تهوسية . كانت مجموعته تتألف من كتب السحر ، وبعض التمايم والعملات القديمة ، ونموذج لسفينة نوح في مستقرها على جبل « أرات » بأرمينيا ، وبضع من ميداليات نقش عليها صور « سيزوستريس » و « سميراميس » ، وخنجر قديم غريب الشكل قد علاه الصدا .

ولم أملك أن سأله عن علاقة هذه الأشياء بالتاريخ الطبيعي ، فطفق يلقي عليّ شرحا طويلا مليئا بالمعلومات المشوشة ، حتى انتهى إلى الخنجر فزعم أنه عين الخنجر الذي قطع به القديس بطرس أذن الخارس الذي أراد القبض على

السيد المسيح !

وهتفت : « وكيف لم تصب ثراء وأنت تملك هذا الخنجر ؟ .. إن لذلك طريقتين : أولاها ، أنك بهذا الامتياز تملك حق الاستيلاء على الكنوز الدفينة تحت الأرض ، في البلدان الخاضعة لسلطان الكنيسة .. والثانية ، أن بوسعك أن تبيع الخنجر للبابا ، إذا كنت تملك الدليل على أصله » !

— تقصد « الرق » القديم الذى كتب عليه أصله ؟ .. إننى أملكه ..
— إذن ، فلست أشك فى أن البابا على استعداد لأن يعين ابنك كاردينالا فى سبيل اقتناء هذا الخنجر .. هل لديك غمده ؟

— لا .. على إننى لا أراه ضروريا .. ثم إننى صنعت له غمدا !
— لا قيمة لهذا ، إذ لا بد من عين الغمد الذى غيب فيه القديس بطرس الخنجر .. إن هذا الغمد موجود ، وهو فى حوزة شخص على استعداد لأن يبيعه بثمن معقول ، أو أن يتنازع الخنجر .. إذ لا جدوى ولا قيمة لأحدهما بدون الآخر !

— وكم يطلب ثمننا للغمد ؟

— ألف قطعة ذهبية من عملة البندقية .

— وكم تراه يدفع ثمننا للخنجر ؟

— ألف قطعة .. لأن كلا منهما يعادل الآخر فى القيمة .

وتولت الرجل دهشة مشوبة بالحماس ، ففتح درجا أخرج منه مخطوطا قديما كتب باللغة العبرية ، واشتمل على رسم دقيق للخنجر .. فتظاهرت بالدهشة ، وازددت تحمسا فى نصحه بشراء الغمد ، ولكنه قال :

— لا داعى لأن أشتري الغمد ، أو أن يسعى صديقك إلى شراء الخنجر ..

إننا نستطيع أن نتشاطر حق التنقيب عن الكنوز الدفينة .

فقلت له إن الطلسم الذى عقد بمقتضاه السحر الذى أخفيت بقوته الكنوز تحت الأرض ، يحتم أن يكون الخنجر والغمدة فى حوزة شخص واحد .. فإذا قدر للبأبأ أن يملك الاثنين ، فسيغدو بوسعه — بطريفة سحرية أعرفها — أن يقطع إحدى أذنى كل ملك مسيحي تخالجه الرغبة فى العدوان على حقوق الكنيسة !

« كازانوفأ .. السأحر المزعوم !

وإذ أبدى ميله لبيع الخنجر ، وعدته بأن آتبه بالثمن فى منتصف النهار التالى ، على أن يكون النصف نقدا ، والنصف الآخر بمقتضى سند قابل للدفع بعد شهر واحد .. وغادرته وقد ازددت شوقا إلى المضى فى الدعاية الخادعة حتى النهاية .. وبالفعل عدت إليه فى اليوم التالى ، فكان أول ما بادرنى به أنه علم أن ثمة كنزا هائلا مدفونا فى بقعة من الأراضى الخاضعة للبأبأ ، ومن ثم فقد رأى أن من الأفضل أن يشتري الغمدة . وإذ اطمأنت إلى أنه عدل عن بيع الخنجر ، أخرجت كيسا مملوءا بالعملة الذهبية ، وقلت إننى كنت متأهبا لشراء الخنجر .. وإذ ذاك قال إن رجلا يقيم فى أراضى البأبأ قد أرسل له خطابا يعرب فيه عن يقينه بأن ثمة كنزا تحت أرض قبو داره .. وقرأ على ابنه بعض فقرات من الخطاب محتفظا بباقى المعلومات ، ولكننى استطعت أن ألح اسم قرية الرجل ، وهى (شيزينا) .. وعاد صاحب الخنجر يقول :

— إن كل ما تمس إليه الحاجة الآن ، هو أن تتيح لى فرصة الحصول على الغمدة بضمان منك ، لأننى لا أملك مالا .. وإذا أرشدتنى إلى السأحر الذى يعرف كيف يفك السحر عن الكنز ، تقاسمت وإياه الثروة !

قلت له : « أنا الذى أعرف السحر ، ولكن لا سبيل إلى الاتفاق ما لم تدفع لى خمسمائة قطعة ذهبية فوراً ، أو أن تبيعنى الخنجر ! » .
وإذ رفض الرجل ، هددته بأن بوسعى أن أنتزع الخنجر منه بقوة السحر ، فلما تحدانى قلت له : « إذن ، فسيكون الخنجر فى حوزتى غداً ، وإذ ذاك لا تطمع فى أن تراه ثانية ! » .

يزور وثيقة عن الكنز الموهوم !

وتحدى الرجل مرة أخرى مقدرتى على الاتصال بالأرواح ، وطلب برهانا ، فتظاهرت بأننى أستغرق فى غيبوبة ، حتى إذا أفقت قلت له إن الأرواح أنبأتنى بأن الكنز غير بعيد عن (رويكون) ، وهو مجرى قديم لنهر غاض مأؤه ، فرجع وابنه إلى كتاب تبينا منه أن هذا النهر كان يجرى يوماً على مقربة من قرية (شيزينا) .. وإذ ذاك استولت عليهما دهشة طاغية .. بينما انصرفتا من لدهما .

ولم يكن فى نيتى أن أغتصب خمسمائة قطعة ذهبية من الأحق وابنه ، وإنما كانت خطتى تتمثل فى أن آخذ منهما المبلغ فأدفنه فى دار أحق آخر ، ثم أظواهر بالكشف عنه ككنز قديم ، وأضحك من ثلاثتهم ، فقد تولتني رغبة فى أن أظواهر بالدراية فى السحر . وما أن فارقتهما حتى يمت شطر مكتبة عامة ، فاستعنت بكتاب قديم فى اختلاق وثيقة مزورة جاء فيها :

« إن الكنز مدفون على عمق سبع عشرة عقدة ونصف العقدة من سطح الأرض ، وقد ظل فى مكانه هذا ستة قرون . وتقدر قيمته بنحو مليونى قطعة ذهبية ، وهو فى صندوق كان « جودفرى دوبويون » قد أخذه من « ماتيلدا »

كونتة توسكاني ، في سنة ١٠٨١ ، عندما أقدم على مساعدة هنرى الرابع في التغلب على الأميرة . وقد دفن الصندوق بيديه قبل أن يخرج ليشارك في حصار بيت المقدس . ونمى إلى جريجورى السابع — الذى كان ساحرا ماهرا — أمر الكنز فأصر على أن يستولى عليه ، ولكن الموت حال دون تنفيذ عزمه . وفى وسع ساحر أن يكشف عن الكنز فى ليلة يكون فيها القمر بدرا ، بأن يقف وسط الدائرة السحرية ، فيرتفع الكنز إلى سطح الأرض .

الساحر المسحور بفتنة عذراء ريفية !.

وصبح ما توقعت ، إذ أقبل الرجل وابنه فى الصباح الباكر ، فأطلعتهما على تلك السطور ، وأظهرت استعدادى لأن أنزل لهما عن ربع الكنز إذا هما ابتاعا غمد الخنجر ، وعدت إلى التهديد بالاستيلاء على الخنجر ذاته .

وشيثا فشيئا ، استولى الطمع تماما على نفس الشيخ المأفون فاتفقنا على أن يعهد بالخنجر إلى ابنه ، على أن يصحبنى هذا إلى (شيزينا) حيث يقوم بيت صديقهما الذى زعم أن الكنز مدفون تحت داره .. ورحلت مع الابن ، فتلقانا الفلاح بالترحاب .. ووعدت الرجل بأن يكون له مثل نصيب « كاييتانى » ..

أى ربع ثان من الكنز . ثم طلب أن يفرد لى وحدى حجرة ذات سريرين ، تتصل بها حجرة داخلية مجهزة بأدوات الاستحمام ، فى الطرف الأقصى من الدار ، على أن تزود بمنضدتين صغيرتين وثلاثة كبيرة ، وأن يبحث لى عن فتاة ، عذراء ، تجيد الحياكة ، وتتراوح سنها بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، على أن تكون أمينة على السر ، حتى لا يتسرب إلى السلطات شئ من أعمالنا .. وأضفت قائلا : « لسوف نقضى ليلتنا فى فندق القرية ، على أن

أحتل حجرتى هنا غدا ، فأوفد خادما أميناً فى الصباح لينقل متاعى .. ولن يلزمنى سوى وجبتين فى اليوم ، وأعدك بأن أدفع نفقات إقامتى لديك إذا لم نوفق إلى استخراج الكنز . وأرجو أن تضع فى البيت مائة شمعة جديدة وثلاثة مشاعل تكون رهن أمرى .

وانتقلنا فى اليوم التالى إلى ضيافة الفلاح الغنى ، وكان يدعى « فرانتسيا » ، فأولم لنا الساذج مادية فخمة جعلتنى أنصح به بالاقتصاد .. وبعد العشاء ، قال لى إنه لا يجد عذراء يأتّمها على السر — وفقا لتعليماتى — خيراً من ابنته الكبرى « جافوتى » التى تجاوزت الرابعة عشرة من عمرها ، فقلت له : — لا بأس .. والآن ، ما الذى يجعلك تعتقد أن الكنز مدفون تحت دارك ؟ — هناك أولاً حكايات تناقلتها أسرتنا من أب إلى ابن خلال الأجيال الثمانية الأخيرة .. وهناك — ثانياً — أصوات غريبة نسمعها فى الليل منبعثة من تحت الأرض ..

وأظهرت اقتناعاً ، ثم تماديت فى تمثيل دور الساحر ، وما لبثت أن أخرجت مفكرتى وأوهمتهم أنها كتاب سحرى دعوتهم لكى يقسموا عليه بأنهم طاهرون ، أوفياء ، كما جعلت « جافوتى » تقسم بأنها عذراء .. حتى إذا لاحظت ما اعتراها من خجل ، رحت أشرح لها قيمة ذلك بالنسبة للعمل العظيم الذى كنت مقدما عليه .. ثم دعوت رب البيت و « كابيتانى » و « جافوتى » إلى اتباع نظام يوجب أن يتناول كل واحد منهم عشاءه معى ليلة ، متبعين فى الدور ترتيب أعمارهم ، وعلى أن لا يتناول من يكون عليه الدور طعاماً طيلة اليوم السابق على ليلة عشاءه معى ، ثم أن يسمح لى بأن أغسل جسمه فى الغرفة الملحقة بغرفتى قبل العشاء بنصف ساعة .. كما اشترطت أن تنام « جافوتى » فى تلك الغرفة فى كل ليلة . ثم أعددت قائمة

بلوازم دعوت « فرانتسيا » إلى أن يبتاعها لى بنفسه ، وكان بينها قطعة من الكتان طولها بين ٢٠ ، ٣٠ ياردة ، وخيط ، ومقص ، وإبر ، وورق ، وريش للكتابة ومداد ، وبعض الأعشاب والعطور ، وقدر من زيت الزيتون ، وغصن من شجر الزيتون يبلغ طوله ١٨ بوصة !

وقبل ظهر اليوم التالى ، كان الرجل الطيب قد أحضر كل هذه الأشياء ، فدعوت « جافوتى » إلى غرفتى ، وأمرتها أن تقطع القماش إلى سبع قطع ، أربع منها طولها أربعة أقدام ، وقطعتان طولهما قدمان ، والقطعة الباقية تحاك على شكل « طرطور » للثوب الذى سأرتديه حين أقوم بالعملية الكبرى . وطلبت إليها أن تتناول الغداء فى حجرتى ، وأن تلزمها طيلة يومها ، فلا تبرحها إلا حين يفد أبوها ليتناول العشاء معى . ثم تعود بمجرد انصرافه ، وتلج الغرفة الداخلية فتنام .

وسارت الأمور كما أهوى .. وفى المساء ، تركنى الرجل الساذج أغسل جسمه ، ثم تناول العشاء معى فى نهم ، قائلاً إنها المرة الأولى التى استطاع أن يصوم فيها عن الطعام يوماً كاملاً .. وتحت تأثير النبيذ ، نام — بعد أن غادر حجرتى — نوما عميقاً حتى الصباح ..

« كازانوفات » يطهر الفتاة العذراء !!

وظلت « جافوتى » طيلة اليوم التالى منهمكة فى الحياكة فى غرفتى فلم تبرحها حتى أقبل « كابيتانى » للعشاء ، ففعلت به ما فعلت برب البيت فى الليلة السالفة .. حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، حان دور « جافوتى » .. وقبل العشاء بنصف ساعة ، قلت لها :

١ مذكرة كازانوفات

— الآن اذهبي إلى الحمام ، ونادينى إذا ما أصبحت على استعداد كى
أطهرك كما طهرت أباك و « كابيتانى » ..

وغسلت كل جزء من جسمها وأنا أتمم بكلمات غير مفهومة .. وكان
قوامها بديعا ، فلاقيت عناء شديدا كى لا أكشف انفعالاتى . وتعمدت أن
أجرى راحتى طويلا على المواضع الحساسة ، حتى اتقدت الدماء فى عروق
الفتاة .. وكان كبح جماح نفسى من أقسى الواجبات !

وإذ كانت صائمة طول يومها ، فقد أقبلت على الطعام فى نهم ، وأسرفت
فى احتساء النبيذ حتى تورد وجهها ، وقلت لها إذ فرغت من العشاء : « ترى
هل تضايقت يا عزيزتى جافوتى مما اضطررت إلى عمله الليلة ؟ » .

فأجابت : « أبدا .. بل إننى ارتحت إليه » !

— إذن ، أرجو أن لا تجدى مانعا من أن تغسلى جسمى ليلة غد كما فعلت
بك اليوم .. وفى المستقبل ، آمل أن تنامى فى غرفتى ، حتى أتأكد من أننى
سأجذك ليلة العملية الكبرى كما ينبغى أن تكونى ..

ومنذ تلك الساعة اطمأنت الفتاة إلى ، وأصبحت تبتسم لى ، فقد فعلت
الطبيعة فعلها فى ذهن الفتاة العذراء .. وأوت فى تلك الليلة إلى أحد السريرين
اللذين فى غرفتى فى غير حياء ، إذ لم يعد لديها ما تخفيه عنى بعد أن وقفت أمامى
عارية فى الحمام !. وكان من أقسى الأمور على نفسى ، ألا ألتبس المتعة قبل
ليلة « العملية الكبرى » .

وقضت الفتاة يومها التالى فى الحياكة .. حتى إذا ما اقترب موعد العشاء ،
ذهبت أنا إلى الحمام ، وما أن جلست فى المغسل حتى ناديتها ، فأقبلت تغسل
جسمى .. وكانت لمساتها لطيفة ، أنعشتنى ، ولكننى حرصت على أن أكبح
عواطفى !

بدء التجربة الكبرى !

ثم جان اليوم الذى كان مقدرًا للقمر أن يكتمل فى ليله .. وفى النهار ، استخدمت الورق فى عمل دائرة كبيرة وأخذت أرسم عليها بالمداد أشكالًا غريبة .. حتى إذا أقبل الليل ، ارتديت الثوب الذى صنعه يدا عذراء طاهرة ، وتناولت عصا الزيتون فى يدى اليمنى والخنجر فى يدى اليسرى ، وحملت الدائرة الورقية ثم خرجت إلى ساحة الدار ، بعد أن سألت « فرانتسيا » و « كاييتانى » أن يقفا فى الشرفة حتى لا يسترق أحد النظر إلى .. ثم وضعت الدائرة الورقية على أرض الساحة ، وأوقدت نارا فى بعض الأعشاب العطرية ، ورحلت أدور حول الدائرة عدة مرات ، ثم قفزت فى منتصفها ، وأنا لا أكف عن التمتمة والهمهمة .. وبقيت جامدا بضع دقائق ، ثم سمعت رعدا قاصفا ، فرفعت بصرى ، وإذا السحاب ينعقد فى الغرب ، ولا يلبث أن ينتشر سريعا ، والبرق يسرى فى أرجائه .. كانت ثمة عاصفة تقترب .. وشعرت بالخوف يسرى فى جوانحى ، وقد خيل إليّ أن الله قد غضب علىّ لقلّة إيماني ، ولفجورى وجحودى .. وأخذ خوفي يزداد باشتداد الرعد وتوالى البرق .. قط لم أعرف معنى الخوف كما عرفته فى تلك الليلة !

وما لبث المطر أن تدفق غزيرا .. وكأثما غسل سيله الخوف عن نقبى .. وأدركت أن الله قد شاء أن يمهلىنى ، وأن هذا الخوف لم يكن سوى لون من الإنذار !

وكنت أعرف من البداية أن فشلى سيفتضح للجميع ، ولكننى كنت قد دبرت الأمر .. فما لبثت أن خرجت عن الدائرة ، وسعيت إلى غرفتى ، حيث

أقبلت « جافوقى » تجفف جسمى من البلل .. ثم دعوت « فرانتسيا » و « كاييتانى » فقلت لهما إن العاصفة أفسدت العملية ، ولكننى اتفقت مع حراس الكنز السبعة من الجان على أن نرجى استخراج الكنز .. ودفعتم إلى « فرانتسيا » بالورقة التى كنت قد كتبتها فى المكتبة العامة فى (مانتوا) قبل حضورى ، قائلا إنها خلاصة المعلومات التى أفضى لى بها الحراس السبعة !

السماء تنقذ الحمل من الذئب

وشعرت برهبة لم يسبق لى بها عهد .. خيل لى أن السماء كانت تنذرنى كى لا أمس الفتاة العذراء الساذجة ، لذلك وجدتنى أتأمل مفاتن جسمها حين نامت ، دون أن تهتز جارحة من جوارحى !
ولاذ تنفس الصباح ، كان أول ما شغلنى ، هو أن أبعد عن الدار بأسرع ما أستطيع ، سيما وقد خشيت أن يتسرب شىء من قصتى إلى السلطات .. وكانت عقوبة من يزعم السحر أن يحرق حيا .. لذلك أمرت « كاييتانى » أن يبادر بحمل متاعنا إلى فندق البلدة . ثم التفت لى « جافوقى » التى كانت بادية الأسى ، فأكدت لها أننى عائد ، وقلت لها إننا وقد أتممنا الإجراءات الأساسية ، لم نعد بحاجة إلى أن تظل عذراء ، بل لها أن تتزوج إذا شاءت ! وفى الفندق ، رددت الخنجر لى « كاييتانى » وافرقتنا .. دون أن يتكبد أحد منا أية خسارة .. وهكذا تدخلت السماء لتصدنى عن وزير لعل عبئه كان يلازمى طيلة العمر لو أننى ارتكبته !

حسناء .. فى زى ضابط !

قبل أن يبرح « كازانوفا » بلدة (شيزانى) ، مسرح مغامراته الأخيرة ، التقى بصديقه القديم الكونت « سبادا » .. وفى الصباح التالى ، استيقظ على ضجة فى الفندق ، إذ أقبلت ثلة من حرس الأسقف لاقتحام الغرفة المجاورة لغرفته ، بعد أن نعى إلى الأسقف أن نزيلها يصحب امرأة ليست زوجة له .. وتدخل « كازانوفا » فى الأمر ، إذ وجد أن الرجل لم يكن يعرف الإيطالية ، وأن الشخص الذى كان يزامله فى الغرفة لم يكن امرأة ، وإنما كان ضابطا شابا .. وبعد أن انصرف الحرس ، علم « كازانوفا » من النزىل أنه من ضباط حاشية إمبراطور المجر ، وأنه يحمل جواز سفر من الوزير البابوى .. على أن أعظم ما أدهشه ، هو أنه لم يلبث أن تبين أن الضابط الآخر — الشاب — كان بالفعل امرأة .. امرأة فرنسية متكرة .. وكان من العجيب أن الضابط المجرى لم يكن يعرف اللغة الفرنسية ، ولم تكن المرأة تعرف سوى لغة بلادها !

فى ركاب الفرنسية الحسناء ..

دعيت والضابط المجرى وزميلته — وكانت تدعى « هنرييت » — إلى العشاء فى منزل الجنرال « سبادا » .. وكانت الحسناء متكرة فى زى الضابط ، وإن لم يغفل حقيقة أنها أحد .. والواقع أننى بدأت أحس باهتمام نحوها ، واشتد إعجابى بها فى تلك المأدبة ، حتى أننى قررت أن أرافقها وزميلها إلى (بارما)

— حيث كان الضابط المجرى موفدا — متظاهرا بالرغبة في أن أعاونهما لجهلها باللغة الإيطالية !.. وراودنى الأمل في أن أستطيع خلال الرحلة أن أكتسب ود الفرنسية ، سيما وأن الفارق بينى وبين « الكابتن » المجرى كان شاسعا .. إذ كان الرجل فى الستين ، بينما كنت فى الثالثة والعشرين ، وسيما ، جميل الطلعة !

وقبل الرجل أن أصبحه وزميلته إلى (بارما) ، مغتبطا بأنه وجد من يؤدى لهما مهمة المترجم !.. ومن ثم بادرت إلى شراء عربة من طراز إنجليزى .. وأتاحت لى هذه الرابطة الجديدة فرصة الحديث إلى الحسناء بلغتها ، وأنا مطمئن إلى أن زميلها لا يفقه حديثنا !.. وكم كانت دهشتى حين تبينت أنها لم تكن مجرد مغامرة مستهترة ، وإنما كان لها من الخلق ما لا يتوفر إلا لسيدة على قدر كبير من الثقافة والتربية الراقية !

نيران .. فى فؤاد كازانوف

وغادرنا (شيزانى) بعد الغداء فى اليوم التالى .. وكان حتما علينا أن نقضى أولى ليالينا فى غرفتين متجاورتين فى (فورلى) ، فلم يقدر لى أن يغمضا لحظة ، إذ كان إدراكى أن « هنرييت » مع « الكابتن » المجرى فى خلوة يثير أقسى الانفعالات فى نفسى !

وقضينا ليلتنا الثانية فى (بولونيا) .. وساعد العشاء الدسم ، والجو الدافئ ، على إذكاء ضرام الجوى فى جوانحى .. وخطر لى أن أسأل الفرنسية عما جمعها بالضابط الكهل ، فابتسمت ودعتنى إلى أن أسأله ، فقال فى بساطة أنه كان يتنزه مع صديق من زملائه فى روما ذات يوم ، على مقربة من النهر ، فرأى

ضابطا مسنا يغادر قاربا في صحبة الشابة التي كانت في الزى العسكرى ،
ففتن بها ، وعهد إلى خادمه بأن يبحث عن مقرها .. واستطرد قائلا :
« وشاءت المصادفات أن يعهد إليّ « الكاردينال آلبانى » — الوزير البابوى —
بالسفر بعد يومين إلى (بارما) ، فى مهمة ديبلوماسية ، وزودنى بجواز خاص
وبمال يكفينى .. وقبل أن أرحل ، جاء خادمى يعلننى باهتدائه إلى مقر الفتاة ،
فأوفدته ينشدها أن تلقانى ، وينبئها بأننى راحل فى اليوم التالى ، فكان جوابها
إنها على استعداد لأن تقابلنى خارج أبواب روما إذا حددت موعد سفرى ..
وبالفعل برّت بوعدى ، وما لبثت أن صعدت إلى عربتى ، فبقيت فى صحبتى
منذ ذلك الحين » ..

محاولة .. قبل انتهاء الرحلة !

ولم يكن الضابط الكهل يعرف عنها سوى الاسم الذى ذكرته له الحسنة ،
وسوى ما لمسه من رقى منبتها .. ثم استطرد قائلا : « لكم يسرنى لو أنها روت
لك قصتها فترجمتها لى باللاتينية ، فإننى أنشد ودها صادقا ، وسيحزننى أن
تفارقنى فى بارما » .

وترجمت للشابة حديثه ، فقالت : « أرجو أن تنبئه بأننى كنت أستطيع أن
أكذب عليه ، ولكننى أعزف عن الكذب .. وفى الوقت ذاته ، لست فى حل
من أن أذكر الحقيقة .. كل ما أرجوه هو أن يدعنى وشأنى بمجرد وصولنا إلى
(بارما) ، وأن لا يحاول التحرى عني .. وإذا شاءت المصادفات أن نلتقى ،
فلسوف أذكر له صنيعه إذا حرص على أن يتظاهر بأنه لم يرنى من قبل » !
وما أن آويت إلى مخدعى فى تلك الليلة ، حتى كنت فى أقصى حالات

الحيرة ، واللهفة .. كان لا بد لي من أنال هذه الفرنسية الفاتنة مهما يكلفني ذلك من ثمن .. لذلك قضيت الليل بطوله أفكر في الأمر ، وخطر لي أن الضابط لن يضمن على بأن أجرب حظي معها ، ما دام مضطرا إلى أن يفارقها في (بارما) فراقا نهائيا .. لذلك أسرع إلى غرفتهما في الصباح ، فقلت له إنني لم أعد أشك في أن إصرار الشابة على أن تفارقه في (بارما) ، معناه أنها تأمل في أن تلتقي هناك بعشيق لها ، فليس يضيره ، والأمر كذلك ، أن يسمح لي بنصف ساعة ، أحاول فيها أن أطفئ نار الوجد التي كانت تضطرم في فؤادي !

استجابة غير مباشرة !

وكان الرجل المجري طيبا ، فأشفق لحالي ، ووعدني بأن يغادر الفندق بعد الفطور ، متظاهرا بالانطلاق لمهمة خاصة ، وبذلك يخلى لي الجو .. وبالفعل بر بوعده . فما أن خرج ، حتى سألت « هنرييت » أن تسمح لي بأن أونس وحدتها ، فأبدت سرورها . وإذ خلا لنا الجو ، بادرتها قائلا : « لست أدري أى عاطفة يكنها لك هذا الرجل الأمين ، وإنما الذى أدريه أنه أوقى من السيطرة على نفسه ما لم يتح لي .. إذ أراى مضطرا لأن أصرحك بأننى أحترق بنيران هواك ، فإما كنت لي ، وإما مكثت هنا ، لأننى لا أطيق أن أراك تفارقيننا في (بارما) لتلتقى بعشيق آخر ، أو بزوج .. لقد عقدت العزم ، وعليك الآن أن تختارى بين أن أصحبك أو أن أبقى هنا .. فإذا كان الجواب الأخير ، فلسوف أفارقك ، وأرحل إلى نابولي لأنشد شفاء من حبك .. أما إذا رأيت أن أصحبك إلى (بارما) ، فيجب أن تعدنى بأن تكونى لي ! » .

قالت ضاحكة : « ما تصورت من قبل أن يجهر الإنسان بمثل هذا الحب

المتقد .. كنت أتصور حديث الحب ناعما ، رقيقا ، لطيفا .. » .
— ولكن وطأة عواطفى لم تدع سبيلا للرقّة واللفظ .. هل تستطيعين أن تتصورى وطأة العذاب الذى يبرح بالرجل حين يتدله فى هوى امرأة ، ويجد نفسه فى حيرة مما إذا كان سيحظى بها أو يظل معذبا طوال العمر .. لشد ما ألعن الحظ الذى ساقنى إلى لقائك !

— إذن ، فأنت آسف على أن عرفتني ؟
— أوليس لى عذر فى أن أكون كذلك ؟
— لا .. لأننى لم أقرر بعد أمرا فيما عرضت على ..
— إذن ، فهل لى أن أطمئن ؟ .. هل لى أن أثق فى أنك تحبين أن أصبحبك إلى (بارما) ؟

— أجل .. تعال إلى (بارما) !
(ويمضى « كازانوف » مع « هنرييت » والضابط المجرى إلى (بارما) وهو يكاد يطير فرحا . وقبل أن يبلغوها ، يقترح أن لا يصلوا ثلاثتهم معا إلى المدينة ، حتى لا تثير صحبتهم الأقاويل ، فيتنازل الضابط عن مكانه ، على أن يستأنف الرحلة فى عربة أخرى .. وإذ يصل « كازانوف » إلى المدينة ، يسجل اسمه لدى البوليس باسم السيد « فاروسى » — وهو لقب أمه — بينما تسمى « هنرييت » نفسها « آن دارسى » .. ويقيمان فى فندق « داندرومونت » ، ويستأجران خادما ، ثم يخرج كازانوف لبيتاع ثيابا لفاتنته) .

المدينة الزاخرة بالجواسيس

« كانت (بارما) إذ ذاك تئن تحت نير حكومة جديدة ، بثت الجواسيس في كل مكان ، حتى لقد كان من المحتمل أن يكون خادمي جاسوسا ! .. على أن (بارما) كانت مسقط رأس أبى ، فاتخذت سبيل في المدينة .. ولم أكد أصدق أننى في إيطاليا ، إذ لم يكن أحدا ليتحدث بغير الفرنسية أو الأسبانية ، أما الذين لا يعرفون سوى الإيطالية ، فكانوا يتكلمون همسا .. وآثرت أن لا أسأل أحدا ، فظللت أجوس خلال المدينة ، حتى عثرت على متجر للأقمشة ، تجلس فيه سيدة بادية الطيبة ، ظنت لأول وهلة أننى من الفرنسيين ، ولكننى طمأنتها إلى أننى إيطالى فهتفت : « شكرا لله .. ما أندر الإيطاليين في هذه الأيام ! .. فإن الدون فيليبو وصل أخيرا ، ولن تلبث زوجته مدام دى فرانس أن تلحق به ! » .. وسرعان ما تحولت تعد لى ما طلبت من أقمشة تكفى لأن تسد جميع حاجات فاتنتى .. » .

(وتطوعت المرأة . بإرشاد كازانوفيا إلى حائكة وابنة لها تجيد التطريز ، ووعدت بإرسالهما إلى الفندق .. ثم طلب كازانوفيا صانع أحذية لصنع عدد من الأحذية للحسناء الفرنسية .. وإذ رأى الرجل أنها لا تعرف الإيطالية ، وعد بأن يحضر لها أستاذا فلمنكى الأصل .. وما لبثت الحائكة أن أقبلت مع ابنتها ، فأكبنا على إعداد ثياب « هنرييت » .. وفى تلك الأثناء ، ارتاب « كازانوفيا » فى أن خادمه جاسوس للسلطات ، فسرعه .. وعند ذاك عرضت الحائكة أن تحضر ابنها بدلا منه) .

كازانوفا يخفى قرابته لحائكة !

وجاء الخادم الجديد ، فإذا به شاب بشوش ، مليح ، متواضع ، فى الثامنة عشرة من عمره ، ذكر أن اسمه « كودانيا » .. وتذكرت إذ ذاك أن إحدى أخوات أبى تزوجت فى (بارما) من رجل من أسرة « كودانيا » .. واستطعت فيما بعد أن أتأكد من أن المرأة هى عمتى بالفعل ، وأن ابنتها وابنها من أقرب أقاربى ، ولكننى لم أصارحهم بهذه القربى ! .. على أننا إكراما للأم أصبحنا ندعوها لتناول الطعام على مائدتنا ..

وفى مساء اليوم الثانى ، جلست مع حبيبتى نتناول عشاءنا وحيدتين ، فلاحظت على وجهها أمارات الأسى . ولذا سألتها قالت : « إنك يا حبيبى تسرف فى الإنفاق علىّ ، فإذا كنت ترمى بذلك إلى أن أزداد لك حبا ، فاعلم أننى لا أحبك اليوم أكثر مما كنت أحبك بالأمس ، إذ أن حبك يملأ كل قلبى ! » .

فهتفت : « أواه يا حبيبتى ! .. دعينى أشعر بأننى غنى ، وثقى أنك لن تكونى سبب إفلاسى .. إنك لم تخلقى إلا لإسعادى ، وكل ما أرجوه هو أن لا تفارقينى أبدا »

— وهذه كل أمنيتى .. ولكن كيف لنا أن نثق بالمستقبل ؟ .. أنت حر ؟ ..
ألست مرتبطا بأحد ؟

— لست مرتبطا فى الحياة كلها بسواك ، وكم أرجو أن تكونى كذلك بالنسبة لى !

— لن يستطيع أن ينتزعك من أحضانى إلا شىء واحد : الواجب ! .. إننى

واثقة من أن هناك من يبحثون الآن عنى ، ولن يلبثوا أن يعثروا علىّ ، أينما كنت .. وما أشد تعاستى إذ ذاك !

— ما أظن هؤلاء الأشخاص هنا فى الآونة الحاضرة ، فلا تعكرى بالخوف ههنا.. أوتخشين الضابط الذى فررت منه فى روما ؟

— إن هذا الضابط والد زوجى ، وما فررت منه إلا لأنه كان يبغي أن يزج بى فى الدير ، فيدفننى حية !.. ألا اغفر لى اضطرارى إلى أن لا أبوح لك بقصتى !

.. وأقبل مدرس اللغة الإيطالية فى الصباح التالى .. كان رحلا محترم المظهر ، مؤدبا ، متحفظا فى حديثه .. ولكنه من ناحية أخرى كان مثالا للنفاق المهذب !

.. وتركته مع « هنرييت » ساعة ، فلما عدت صارحنى بأنه وجد « هنرييت » على قدر وافر من الثقافة .. وكان هذا الأستاذ — ويدعى « فالفتان ديلاهائى » — مهندسا فى الأصل ، وما أراى بحاجة إلى أن أصفه للقارئ ، إذ أنه لن يلبث أن يعرفه فى كثير من المناسبات فى مذكراتى ..

وأثبتت « هنرييت » على مر الأيام وفاء ، وهياما ، مع ذكاء ، وحضور بديهة ، وثقافة رفيعة نمت عن اطلاع واسع .. والذى لا يؤمن بأن من النساء من تستطيع أن تكفل للرجل سعادة متواصلة طوال ساعات اليوم الأربع والعشرين ، لم يحظ من دهره ولا بد بامرأة مثل « هنرييت » .. كانت هى الرقة ، والحنان ، والذكاء .. وكانت كفيلة بأن تأسر قلب كل إنسان !

وفى ذات يوم ، ذهبت إلى مكتبة فرنسية ، فالتقيت هناك بأحد يدعى « دييوا شاترلرو » .. وكان حفارا بارعا ، يتولى إدارة دارسك النقود التابعة لولى عهد أسبانيا ، فسرعان ما غدا صديقا وفيا ، يبادر إلى أداء كل خدمة أرجوها ..

سمو مكانة الحبيبة

وما أن لحقت « مدام دى فرانس » بزوجها « الدون فيليبو » — ولى عهد أسبانيا — فى (بارما) حتى بدأ موسم الأوبرا .. واحتجزت هنرييت ولى مقصورة فى دار « الأوبرا » ، حرصت على أن تكون بمنجى عن اجتذاب الأنظار إلينا !

وبعد شهر ، كانت « هنرييت » قد تمكنت من اللغة الإيطالية ، وأخذت تحرص ما استطاعت على أن تدرب لسانها على الانطلاق بها .. وأصبحت أصحب حبيبتي معي أينما خرجت ، ونحن نحرص على أن نسدل الستائر على نوافذ العربة ، ونتجنب التعرف بالناس أو مخالطتهم .. وكان « ديوا » يعجب من أمرنا ، ويحاول أن يعرف شيئا من قصتنا ، بيد أنه كان أمكر من أن يفضح فضوله ، فظل يتحين الفرصة ، إلى أن ذكر لى يوما أن بلاط ولى العهد الأسباني قد غدا أبهج مكان فى المدينة ، وملتقى الأجانب جميعا .. ثم التفت إلى « هنرييت » قائلا : « إن كثيرا من السيدات الأجنبية عندنا يجدن فى البلاط سماء تتألق فيها نجومهم .. وكم أرجو لو أن السيدة أسعدتنا ، فراها هناك » ! فقالت فى ترفع : « إننى أعتبر الظهور فى البلاط دعاية ممجوجة ، ولا سيما إذا كان من حق السيدة أن تظهر فى البلاط بالفعل ، ولكن أحدا لم يدعها ! » وكان عذرا لبقا ، أفحم الرجل ، وأقنعه فى الوقت ذاته بسمو مكانة حبيبتي !

لقاء .. يثير الهواجس !

هكذا ظلت أيامنا تترى مفعمة بالسعادة والهناء .. حتى إذا كان اليوم التالى لانتهاؤ موسم الأوبرا ، قال « دييوا » — وهو يتناول الغداء على مائدتنا — إنه دعا كبار فناني « الأوبرا » إلى تناول الغداء على مائدته في اليوم التالى ، وإن المغنى الأول والمغنية الأولى سيؤديان بعض أغانيهما .. ودعانا إلى حضور المأدبة ، فلما انصرف ، تشاورنا في الأمر ، فقالت « هنرييت » إنها تخشى أن يكون بين المدعويين من يعرفها فيقضى على سعادتنا ، ولكنها تخشى أيضا أن تزيد من فضول « دييوا » بعدم تلبية الدعوة ، ومن ثم اتفقنا على أن نتأخر عن موعد المأدبة ، بحيث نصل إلى الدار أثناء الغناء ، فنندس بين الجمع دون أن نثير انتباهها !

وكانت مفاجأة لنا حين ذهبنا في اليوم التالى ، فوجدنا أن موعد الحفل قد أرجئ إلى ما بعد العشاء .. واضطررنا إلى البقاء .. ولو أنني كنت على دراية بقصة « هنرييت » لكان لي تصرف آخر ، بل لما مكثت في (بارما) ، ولبعدت بجيبتى إلى أقصى أطراف الأرض !

كان « دييوا » قد دعا إلى مأدبته أشهر نبلاء البلاط ، من أسبانيين وفرنسيين .. وكان جمال « هنرييت » كفيلا بأن يثير اهتمامهم ، ويجتذب أنظارهم .. على أن الحفلة انتهت على خير حال .. وانقضى بعدها شهر ، حظينا خلاله بأشهى متع الجسم ، والفكر ، والروح ! .. ثم انتقل البلاط إلى (كولورنو) ، وتقرر أن يقيم مهرجان هائل ، رأيت أن نرحل لمشاهدته .. وفيما كنا نتمشى ذات مساء — مع « دييوا » — في حدائق القصر الأميرى ،

الذى فتحت أبوابه لجميع الناس ، التقينا بمدام دى فرانس تتمشى مع نفر من حاشيتها .. ولاحظت أن سيدا من مرافقى الأميرة أخذ يرمق « هنرييت » بنظرات ثاقبة ، متفحصة .. حتى إذا هممنا بالعودة بعد فترة ، التقينا بذلك السيد يعترض طريقنا ، ثم يشير إلى « ديوا » ، فينتحى به جانبا . وطال حديثهما .. وكانت أنظارهما تتطلع إلينا بين وقت وآخر ، وما لبث السيد أن سار نحونا ، فاعتذر فى أدب ، ثم انحنى لهنرييت وسألها عما إذا كان قد تشرف بمقابلتها من قبل ، فأجابت مضطربة : « ما أظننى أذكر أننى حظيت برؤيتك قبل اليوم » .

قال : « إذن ، اغفرى لى خطئى يا سيدتى » ..
وكرر الرجل اعتذاره ثم انصرف ..

وبدت « هنرييت » فى تلك الليلة قلقة ، مهمومة . ولما سألتها عما بها ، ذكرت لى أنها أدركت من اسم ذلك الرجل — وكان « دانتوان » — أنه من أسرة عريقة فى مقاطعة (بروفانس) الفرنسية ، ولكنها لم تره من قبل .. فصارحتها بأننى تطيرت من ذلك اللقاء ، ودعوته إلى أن نبادر بالعودة إلى (بارما) حيث أسوى بعض المسائل ، ثم نرحل إلى (جنوا) ، فقالت : « إن هذا أدعى لراحتنا يا عزيزى ، بيد أننى لا أرى حاجة بنا إلى العجلة ! »

موعد مع السيد « دانتوان » !

وعدنا إلى (بارما) .. وبعد يومين ، أحضر لى خادمنى رسالة ، ذكر أن حاملها يرتقب ردا .. وناولتها إلى حبيبتي فقضتها ، وأرسلت بصرها خلال سطورها ، ثم أسلمتها إلى قائلة : « أعتقد أن السيد دانتوان رجل شريف ، وأن

لا داعى لأن نخشاه .. وقرأت فى الرسالة هذه السطور :
« أناشدك يا سيدى أن تحدد موعدا ألقاك فيه — فى فندقك ، أو فى
مسكنى ، أو فى أى مكان تختاره — لتحدث فى موضوع عظيم الأهمية
بالنسبة لك ، ويشرفنى أن أكون المخلص : دانتوان » .

غيوم .. فى سماء الغرام الجديد !

كانت الرسالة باسمى الذى اتخذته فى (بارما) : « فاروسى » ، فقلت :
« أعتقد أنه يجمل بى أن أقابله ، ولكن .. أين ؟ »
قالت هنرييت : « لا هنا ، ولا فى مسكنه .. فلتقابلا فى حدائق قصر
الدوق .. ولتذكر فى ردك المكان وساعة اللقاء فقط » !
فكتبت إلى السيد « دانتوان » أعده بأن ألقاه فى الحدائق ، فى منتصف
الساعة الثانية عشرة .. وبعد أن حمل خادمنى الرد إلى الرسول ، بادرت إلى
ارتداء ثيابى ، وأنا أحاول أن أبدى استبشارا ، و « هنرييت » تبذل جهودها هى
الأخرى لتبدو مشرقة .. على أننا لم نفلح فى التخلص من المخاوف التى شرعت
تساورنا !

والتقيت بالسيد « دانتوان » فى الموعد .. وما أن استوثقنا من أننا بمنجى عن
الأسماع ، حتى بادر قائلا : « إنما اضطرت يا سيدى أن أسألك أن تسمح لى
بلقائك ، لأننى لم أجد أسلم من هذه الطريقة لإيصال رسالة إلى السيدة
دارسى .. فأناشدك أن تسلمها إليها ، وأن تعذرنى إذا قدمتها إليك مغلقة ..
فإذا كنت مخطئا فى شخصيتها ، فلا حاجة بها إلى الرد .. أما إذا كنت على
صواب ، فهى وحدها التى تستطيع أن تبث فيما إذا كانت تطلعك عليها ، أو

تحتفظ بما فيها لنفسها .. وهذا هو المبرر لإبقاء الرسالة مغلقة .. فإذا كنت صديقا لها حقا ، فأعتقد أن ما تتضمنه هذه الرسالة يهملك بقدر ما يهملها ، ومن ثم أتوقع أن تطلعك عليها ! » .

وانحنى كل منا للآخر في احترام ، ثم افترقنا ، وأسرعت عائدا إلى الفندق .. وما أن وصلت إلى الجناح الذى كنا نستأجره ، حتى كان قلبى يخفق فى عنف ، ويكاد يقفز من صدرى لهفة وقلقا .. وأعدت على مسمع « هنرييت » كل ما دار بينى وبين السيد « دانتوان » ، ثم أسلمتها الخطاب ، ففضته لتجد رسالة من أربع صفحات ، أخذت تقرأها بإمعان ، وعلى وجهها إمارات الانفعال العاطفى ، ثم قالت لى :

— يا أحب عزيز ، أرجو أن لا تظن فى تصرفى أى مساس بشعورك وكرامتك ، إذا حجبت عنك محتويات هذه الرسالة .. فإنها تتناول أسراراً تمس شرف أسرتين .. ثم إننى أرانى مضطرة إلى أن أستقبل السيد « دانتوان » الذى يؤكد أنه أحد أقاربى !

فهتفت : « آه ! .. هذه بداية النهاية ! .. لم تلكأت بك فى (بارما) ، ولم أبادر إلى الابتعاد بك عنها ؟ .. يا له من غباء . ما أراه يفضى إلى خير ! » .
— أناشدك يا حبيبى أن لا تستبق الحوادث ، أو تفترض الشر قبل وقوعه .. فلتسرى عنك ، ولنحتفظ بكل ما أوتينا من عقل وحكمة لتغلب على الظروف ، مهما تكن .. عليك الآن أن تكتب إلى السيد « دانتوان » لتدعوه للحضور إلى غدا ..

— أوام ! .. ما أشق ما تدعيننى إليه !

— يجب أن تبقى إلى جانبى عندما يفد السيد « دانتوان » ، حتى إذا حييته ، وقضينا بضع دقائق فى تبادل المجاملات ، فأرجو أن تتحل أى عذر لمغادرتنا (مذكرات كازانوفا)

وتركنا وحيدين . إن السيد « دانتوان » يعرف كل شيء عن حياتي وقصتي ، ويعرف فيم أخطأت ، وفيم أصبت .. وأعتقد أنه — بوصفه قريبا لي ، رجلا شريفا — سيعدل في حكمه ، ويقيني أي شر قد أعرض له ، ويرشدني إلى خير مسلك .. على أنه لن يقسرنى على ما لا أحب ، وإذا اشتممت منه أية رغبة في الظلم أو التحيز ضدى ، أو المراوغة في الشروط التى سأملئها عليه ، فثق أننى سأرفض العودة إلى فرنسا ، وسأتبعك أينما شئت ، مكرسة كل حياتي لك .. ومع ذلك ، فأرجو يا حبيبى أن تروض نفسك على توقع أحداث قد تؤدى إلى أن نسلم معا بأن الفراق هو أسلم طريق ننتهجه .. وإذا تحقق هذا ، فعلينا أن نحشد كل شجاعتنا للإقدام عليه !

الحب .. يكلف غاليا !

وأقبل السيد « دانتوان » فى اليوم التالى ، فعملت بما أشارت به حبيبتي ، وبقيت وحيدا ست ساعات ، كانت من أقسى الساعات على قلبى .. وما أن لاحظت أن عيني « هنريت » كانتا محقتين — بعد انصرافه — حتى جزعت ، ولكنها ابتسمت قائلة : « هلا رحلنا غدا يا حبيبى ؟ » . وكدت أطير فرحا ، فقلت : « أجل يا حبيبتي .. إلى أين تريدان أن أحملك ؟ »

— أينما شئت ، وحيثما يروق لك ، ولكن .. وطارت الفرحة من نفسى ، حين استأنفت قائلة : « يجب أن نكون هنا مرة أخرى ، بعد أسبوعين » .. فهتفت محسورا : « آه ! .. يا خيبة آمالى ! » . فقالت : « لا مفر ، للأسف !.. لقد وعدت بأن أكون هنا فى ذلك

الموعد ، لأتلقى الرد على خطاب مكتبته منذ لحظات .. وليس لنا أن نخشى أية إجراءات عنيفة ، أو أى عنف أو قسر ، ومن ثم ففى وسعنا أن نبقى هنا ، ولكننى كرهت (بارما) ، فلم أعد أطيق فيها بقاء ! » .

وفي اليوم التالى رحلنا إلى (ميلانو) ، حيث قضينا الأسبوعين فى هناية ، لانكاد نفترق لحظة .. ولم نلتق خلالها بغير صاحب الفندق الذى نزلنا فيه ، وحائكة الثياب التى قامت بصنع سترة من فراء الثمر أمرت بها هنرييت الحبيبة .. وكان فرحها بهذه الهدية بالغاً .. وكانت — لفرط رقة شعورها — تشفق على من النفقات المرسفة ، وإن أحجمت عن أن تسألنى عن مواردى .. وقد حمدت لها ذلك ، إذ كنت أتكتم ما بدأت أشعر به من تناقص مواردى .. وما أن عدنا إلى (بارما) ، حتى كان كل ما بقى فى كيسى لا يتجاوز أربعمئة دينار !

وفي اليوم التالى ، أقبل السيد « دانتوان » لزيارتنا ، وتناول الغداء معنا .. وما لبثت أن انسحبت وأخليت له الجومع « هنرييت » .. وطال حديثهما وقتا يقرب من الوقت الذى استغرقه لقاؤهما السابق . وما أن انصرف ، حتى أنبأتنى « هنرييت » بأن فراقنا صار أمراً مقرراً ، فبقينا فترة طويلة صامتتين ، متعانقين ، نذرف الدمع سخينا ..

(وجاء فراق « كازانوف » عن « هنرييت » نهاية محزنة لقصة الغرام الذى يعتبر من أسعد المغامرات فى حياة أمير العشاق .. وتقرر أن يرحل كازانوف بحبيبته إلى (جنوا) ، ثم يودعها إلى الأبد . وفى عناقهما الأخير ، أصرت « هنرييت » على أن يتقبل « كازانوف » منها خمسماية جنيه فرنسى من الذهب ، كهدية له .. وتركت الفرنسية الحسناء رسالة إلى السيد « دانتوان » .. وفيما كان كازانوف يهم بمبارحة الفندق بعد رحيلها ، لمح على

زجاج إحدى النوافذ عبارة حفرتها « هنرييت » بماسة خاتمها : « لن تلبث أن تنسى .. هنرييت » .. فتعمم لنفسه محزوناً : « لا ، لن أنساك ما حييت » .. (وقد كتب في مذكراته معقبا : « .. وإلى اليوم ، وقد كسا الشيب شعري ، لا تزال ذكرى هنرييت نبعا أستمد منه الهناءة ») .. وما أن وصل إلى (بارما) ثانية ، حتى أسلم رسالة حبيبته إلى « دانتوان » ، فإذا بداخلها رسالة أخرى له هو ، جاء فيها : « لن يكون لي بعدك حبيب .. أما أنت ، فأمل أن تعثر على هنرييت أخرى تنسيك إياي .. فوداعا ! ») .

أشجان .. « كازانوف » !!

« لازمت غرفتي حزينا ، كسير القلب ، غير عابى بما تأتى به الأيام . وبعد أربع وعشرين ساعة ، كان الإعياء قد نال منى كثيرا .. وخطر لي أننى لو مضيت على هذه الحال ، لتخلصت من الحياة البغيضة .. وانقضت أربع وعشرون ساعة أخرى ، بلغ الإعياء منى فى نهايتها أقصى مبلغ .. وفيما كنت فى هذه الحال ، فوجئت بالسيد « لاهاي » — من أصدقائى القدامى — يطرق الباب . وعولت على أن لا أفتح له .. ولا لأى مخلوق آخر — حتى أمضى فى عزلتى إلى نحبى .. ولكنه راح يؤكد أنه يحمل رسالة هامة لي ، فداخلنى الرجاء ، وتحاملت على ساقى الواهنتين ، وجررت نفسى إلى الباب ، ثم عدت إلى السرير بعد أن فتحت له . وبهت الرجل حين رآنى ، فأخذ يتفرس فى وجهى ، ثم صاح : « معذرة إذا كنت قد أزعجتك ، ولكن .. إنك تبدو مريضا ! » .

قلت : « أجل ، وأحب أن تتركنى وحيدا » .

واقترب منى ، وأمسك برسغى ليجس نبضى .. وهاله أن النبض كان جد ضعيف ، فسألنى عما أكلت بالأمس ، وما أن أدرك أننى لم أتناول طعاما منذ يومين ، حتى أدرك سر وهنى وإعياى ، فراح يلح على أن أتناول بعض الحساء ، وأخذ يتلطف معى ، ويغمرنى بعطفه ، حتى انصعبت له أخيرا .. وما أن جاء الطعام الذى طلبه لى ، حتى كانت قوة المقاومة قد نضبت من نفسى ، فتناولت الحساء .. وإذ رأى « لاهى » أنه انتصر على عنادى ، لازمنى طيلة اليوم ، عاملا على التسرية عنى بفكاهاته وحديثه المرح .. وفى اليوم التالى دعوته للغداء .. ولم أكن قد تخففت من ذرة واحدة من حزنى ، ولكن الحياة عادت تبدو لى أفضل من الموت !

* * *

(وأقلقت حال « كازانوف » كلا من « لاهى » و « ديوا » ، فحملاه على أن يتردد معهما على المسرح ، حيث كانت تقوم بالتمثيل فرقة فرنسية . وما لبث صاحبنا أن تعرف بمثلة من الفرقة . ومع أنها لم ترق له ، إلا أنه راق لها .. وما زالت به حتى « خلعت » عليه مرضا بشعا ، ألزمه حجرته لمدة ستة أسابيع ، خلال شتاء سنة ١٧٤٩ . وفى محنة هذا المرض ، أخذ « لاهى » يث فيه روح التوبة ، ويسعد إذ يراه يبكى ندما على ما ارتكب من موبقات .. وأخذت التقوى تستولى على نفس كازانوف رويدا)

العاشق الأعظم .. يتردد على الكنيسة يوميا !

« من المؤكد أن العقل يتبع الجسم .. فعندما كانت معدتى خاوية ، كان الدواء يبعث أبخرته إلى رأسى فتهفو بعقلى .. ومن ثم ذهبت فى اتجاهى الدينى إلى

درجة التهوس!.. وما أن جاء شهر إبريل ، حتى كنت قد برئت تماما من المرض ، وأصبحت أتردد على الكنيسة يوميا مع « لاهاي » !

* * *

(وظل « كازانوفا » سادرا في نوبة التقوى .. وتعرف في تلك الأثناء بتلميذ للسيد « لاهاي » يدعى البارون « بافوا » ، فساعدته بوساطة السيد « براجادين » — الشيخ الذى تبنى كازانوفا فى البندقية — على أن يصبح ضابطا فى جيش البندقية .. ثم لم يلبث « كازانوفا » أن رحل بدوره إلى هناك ، حيث تلقاه « براجادين » و « داندولو » و « باربارو » مذهولين لفرط ما أصابه من تغير ، إذ غدا تقيا صالحا!.. على أنه ما لبث أن تبين أن « بافوا » لم يكن من التدين بالدرجة التى كان يبيدها أمام « لاهاي » .. وكتب « كازانوفا » فى مذكراته عن ذلك : « على أن أطرف ما فى الأمر ، هو أن بافوا رد عطفى — دون أن يدرى — إلى حاله الأصلية .. ومنذ ذلك الحين عدت إلى مغامراتى ! » .. وكان ذلك فى بداية أعياد « الكرنفال » ، فى سنة ١٧٥٠ ، وحدث أن فاز « كازانوفا » فى « اليانصيب » العام بثلاثة آلاف دينار ، فقرر أن يرحل إلى باريس ، حيث كانت زوجة ولى عهد أسبانيا — وابنة ملك فرنسا — تهباً لتضع طفلها الأول ، وقد شرع القوم فى اتخاذ الاستعدادات لإقامة مهرجانات شعبية .. كما عول على أن يزور فى طريقه مدينة (ريديجو) الإيطالية ، حيث أقيم مهرجان كبير لزواج « دوق سافوى » من أميرة أسبانية .. وفى أول يونية سنة ١٧٥٠ ، انطلق كازانوفا فى رحلته مزودا بالمال والعتاد .. وفى (ريديجو) ، التقى بأستاذ « الباليه » — « باليتى » — زوج عشيقته السابقة « مارينا » .. فرحلا معا إلى باريس) .

« كازانوفافا » .. فى جماعفة « الماسونىىن » !

« ومكثنا فى (لىون) أىاما ، قءر لى ءلالها أن أءبء من « الماسونىىن » الأءرار ، فلما وءلء إلى بارىس ، كئء « ءلمىءا » فى هءه الجماعفة . ولم ألبء أن أءبءء « زمىلا » ، ءم « أءءاذا » !.. ءلك لأن الشاب الذى ىعب الأسفار ، وىئءء معرففة ءءنا والمءءمع الراقى ، ولا ىبغى أن ىىءو فى أى بلء. ىهبط به أقل مسءوى من أقرانه ، ءلىق بأن ىكون من « الماسونىىن » الأءرار !.. لإنها جماعفة ءىرففة ، لإنسانفة — فى الأصل — وإن كانت فى بعض الظروف ، والأزمان ، والبقاػ ، قء اسءفلء فى ءءبىر المؤامراء والءسائس لقلب أنظمة الحكم ، ولكن .. أى شىء ءء ءبفة السماء لم ىءعرض ىوما لأن ىساء اسءغلاله ؟.. ألم نر « الجىزوىء » — وهم فى مسوػ الرهبان — ىءسون الءناجر فى أىءى الءىن أعماهم ءءعصب والءماس لىغءالوا بها الملوكة !

على أن « الماسونىىن » الأءرار — فىما وراء ءلك — جماعفة غامضة .. فإءا ءءقق المرء بها لمجرء الكشف عن سرها ، فإنه ىءعرض لكئىر من الأءطار ، ءون أن ىصل فى النفاة إلى هءا السر — الذى ىصان فى ءرص بالػ ، وءكم ءءىء ! — ومن الءطأ أن نطن أن السر قاصر على بعض كلماء أو إءارات ، وإنما هو أعمق من هءا بكئىر !

خادمت الفنادق .. فى باريس !

وكان أول ما أعجبت به عند وصولى إلى باريس ، طريق « لوى كانز » — أو لويس الخامس عشر — الرائع ، ونظافة الفنادق ، وسرعة الخدمة فيها ، وتولى الفتيات هذه الخدمة !! . وكنا قبل بلوغها قد تناولنا غداءنا فى (فونتينيلو) ، وهم الاسم المشتق من (فونتين — بيل) أى عين الماء الجميل .. وإذ شارفنا العاصمة ، رأينا عربة أنيقة مقبلة ، فإذا زميلى يصيح ليستوقفها .. كانت عربة أمه ، التى رحبت لى كصديق لابنها .. وكانت أمه هى الممثلة ذائعة الصيت « سيلفيا » .. وقد تولى خادم من عندها مرافقتى إلى المسكن الذى هبطت فيه — وكان لا يبعد عن بيت « باليتى » بأكثر من خمسين مترا — لينقل متاعى .. وما لبث « باليتى » أن قدمنى إلى أبيه « ماريو » .. وكان اسما « ماريو » و « سيلفيا » ألع اسمين على المسرح الفرنسى إذ ذاك .. وأقامت « سيلفيا » مأدبة عشاء فخمة احتفالا بوصول ابنها ، دعت إليها جميع أقاربها ومعارفها ، فكانت فرصة لكى أتعرف إليهم .. وأخذت خلال العشاء أدرس « سيلفيا » .. كانت إذ ذاك فى نحو الخمسين من عمرها ، ولكنها كانت رشيقة ، ذات بهاء وعظمة .. وكان وجهها لغزا غامضا .. كان يثير فى المرء أدفأ العواطف ، مع ذلك فقد كان — إذا تأملته عن قرب — خلوا من أى جمال ! .. غير أنها رغم ذلك كانت معبودة فرنسا بأسرها ، وكانت مواهبها فى التمثيل « الكوميدي » تزيد من سلطانها على النفوس .. وكانت لها — فوق كل هذا — ميزة أخرى تحيطها بهالة من النساء .. تلك هى أنها كانت تعيش فى عفة وتقوى ! .. كانت تتلطف إلى جميع المعجبين ، ولكنها تصد أى عاشق أو

طامع !.. وقد أكسبها هذا المسلك احتراماً وتقديراً فوق ما يخطر بالبال !
وكانت تجلس إلى جوارها على المائدة ، ابنتها الوحيدة ، التي كانت إذ ذاك
في التاسعة من عمرها .. والتي كانت تكاد تستأثر بالقسط الأوفر من عنايتها
واهتمامها ..

قس .. يعرف نساء باريس

وعدت في نهاية السهرة إلى دار مدام « كينسون » حيث نزلت .. وما أن
استيقظت في الصباح ، حتى وجدت مدام كينسون قد أتتني بخادم خاص ..
كان ضئيل الجسم ، لم يرق مظهره لي ، فلما سألته عن اسمه قال : « أى اسم
يحلو لك يا سيدى .. فقد اعتاد كل سيد أخدمه أن يطلق على اسمها من
عنده » ! .. فهتفت بين الغيظ والعجب : « ولكنى أسألك عن اسمك
الأصلى .. اسم أسرتك ؟ » .. وإذ ذاك قال : « لست أعرف لنفسي أسرة ..
ولقد كان لي في صغرى اسم ، ولكنني نسيتُه منذ عملت في خدمة
الناس » !.. ومن ثم قررت أن أدعوه « أسبرى » .. واتفقنا على أن يتقاضى
ثلاثين فلساً في اليوم .. وإذ رآني أنظر إلى قامته الضئيلة في ازدراء ، قال : « إن
قوامى يا سيدى خير ضمان يؤكد أنني لن أستعير ثيابك في أى موعد غرامى
يعرض لي ! » .

وكان أول ما هفت نفسي إلى زيارته في باريس ، حدائق القصر الملكي ،
التي كانت مفتوحة للجمهور . وقد بثت فيها مناظرة ومقاعد للإيجار ،
فاتخذت مقعداً إلى إحدى المناظرة .. وحمل إليّ أحد السقاة زجاجة من شراب
يسمونه « أورجا » ، لذ لي حتى أنني عزمت على أن أتناوله مع كل وجبة . ثم

سألت الساقى عن الأنباء ، فقال إن ابنة الملك — زوجة ولى عهد أسبانيا — قد وضعت أميرا .. وإذ ذاك قال قس كان يجلس إلى مائدة مجاورة : « يا للغباء ! .. بل لقد وضعت أميرة » . فإذا القس ينهض بدوره ، فيسير معى خلال الحدائق .. ذاكرا لى اسم كل امرأة كنا نصادفها !

وفيما كنا سائرين ، أقبل علينا شاب عائق القس فى شوق .. وقدمه لى القس على أنه أستاذ بحّثة فى اللغة الإيطالية يدعى « باتوا » .. وكان بالفعل يجيد اللغة ، ولكن فى أسلوب « بوكاشيو » وفطاحل الكتاب ! .. ولم ينقض ربع ساعة حتى كنا صديقين ! .. وبينما نحن فى الطريق ، لاحظت زحاما أمام حانوت كتب عليه : « سعوط القط سيفيه » .. وإذ أبدت عجبى للزحام ، قال زميلى : « كل هؤلاء جاءوا ليملاؤا عليهم سعوطا » .. قلت : « أوليس فى باريس حانوت آخر لبيع السعوط ؟ » .

.. قال : « بلى .. ولكن سعوط « القط سيفيه » هو « الموضة » منذ استعملته دوقة « شارتر » .. » ، فقلت : « وكيف أصبح كذلك ؟ » .. فأجاب : « الأمر بسيط .. لقد استوقفت عربتها مرتين أو ثلاثا أمام الحانوت لتملأ علبتها سعوطا ، وكانت فى كل مرة تقول للفتاة التى تولت خدمتها إن هذا أجود سعوط فى باريس .. فسرعان ما التقط كلماتها المتسكعون الذين كانوا يلتفون حول عربة الأميرة فى فضول ، وراحوا يرددونها فى كل مكان » ! قلت : « هل الأميرة لم تفطن إلى ما كان لإعجابها من أثر ! » .

— على النقيض .. إنما شاءت فى الواقع أن تسدى معروفا إلى صاحبة الحانوت .. إنك لا تعرف مدى طيبة الباريسيين .. إنك الآن فى البلد الوحيد الذى يستطيع فيه الذكاء أن يجلب على صاحبه ثروة ، إن بالحق أو بالباطل ..

الفساد فى عهد لويس الخامس عشر

وصحبنى « باتو » إلى دار مدموازيل « لوفيل » ، الممثلة التى كانت فى مقدمة فانات باريس .. وكانت عضوا فى الأكاديمية الملكية للموسيقى .. ورأيت حولها ثلاثة أطفال فى أبهى آيات الجمال ، فلما أطريت حسنهم قالت فى صراحة : « لا عجب !.. فأولهم أنجبته من دون « دانيس » ، وثانيهم من كونت « ديجمون » ، والثالث من « ميزونروج » الذى تزوج أخيرا من أميرة رومانفيل ! » .. وانطلقت بعد ذلك ضاحكة ، حتى شعرت بالدماء تتصاعد إلى وجهى حياء !.. فما كنت أدرى أن هذه أمور عادية فى باريس فى ذلك العصر !.. وكانت الغانية التى تنجب من عشيق نبيل ، تصيب منه دخلا سخيا ، ومن ثم كانت صحبة الغانيات للنبلاء .. حرفة !

ولقد دعانى الممثل الإيطالى « كارلين بيرتيناتس » إلى الغداء يوما ، فى دار مدام « دولا كايلىرى » ، حيث كان يقيم .. ورأيت السيدة محوطة بأربعة أطفال ، ، فلما أطريتهم ، قال زوجها : « إنهم أبناء السيد كارلين » . قلت : « ولكنهم ولا بد يا سيدى ينتمون إليك ، فأنت الزوج الشرعى ! » قال : « إن مسيو كارلين رجل شريف ، وهو يعترف بأبنائه .. وزوجتى تصر على نسبتهم إليه » !!

وكان الرجل يتكلم فى بساطة ، متقبلا الأمر الواقع بروح فلسفية !!

سهرة مع « مدام بومبادور » و « ريشيليو »

وكان لويس الخامس عشر مغرما بالصيد ، ويقضى ستة أسابيع من كل عام في قصر (فونتينبلو) لهذا الغرض .. وكانت هذه الأسابيع الستة تكبد الخزانة الفرنسية خمسة ملايين من الفرنكات ! .. إذ كان الملك يصطحب معه عادة كل من يدخلون التسمية على نفوس السفراء الأجانب والحاشية الضخمة ، ومن ثم كان يتبعه إلى هناك ممثلو الأوبرا و « الكوميدي فرانسيز » وممثلاتهما . وقد دعاني « باليتي » و « سيلفيا » وزوجها إلى أن أصبحهم وأنزل في ضيافتهم .. وكانت فرصة رائعة ، أتاحت لي التعرف إلى السفراء وأقطاب الحاشية .. كما تعرفت إلى السيد « موروسيني » — سفير جمهورية البندقية لدى البلاط الفرنسي — الذي دعاني معه إلى حفلة افتتاح الأوبرا .. وجاء مقعدى تحت مقصورة « مدام دي بومبادور » مباشرة .. وكنت مصابا بزكام ، فرحت أنظف أنفى بين وقت وآخر ، مما حدا بسيد في مقصورة « مدام دي بومبادور » إلى أن يقول إننى ولا بد لم أحسن إغلاق نوافذ مخدعى .. ولم أكن أعرف أن السيد هو المارشال « ريشيليو » ، فأجبت بنكتة لاذعة أضحكت الجميع .. وإن هو إلا نصف ساعة ، حتى وجدت المارشال يسألنى عن أى الممثلتين اللتين ظهرتتا على المسرح أعجبتنى ، فأشرت إلى إحدهما .. فقال : « ولكنها أوتيت ساقين بشعيتين » .. فأجبت : « إنهما لا تظهران من تحت ثيابها يا سيدى ! » .

وأثار الرد ضحك مدام بومبادور .. وعرف المارشال من السيد « موروسيني » من أكون ، فأبدى سروره بأن يستقبلنى إذا زرته ..

وبعد أيام أتيح لى أن أزور قصر (فونتنبلو) ، وأن أجوس خلال أهبائه وحجراته .. وكانت الملكة تتناول غداءها فى غرفة مكشوفة لجميع الزائرين ، وقد علقت عيناها بالمائدة .. وأخذت تلتهم الطعام بشهية غريبة ، غير حافلة بالحاشية التى أحاطت بها تتأملها ..

ورجتنى بعض سيدات المجتمع الراقى أن أعلمهن الإيطالية .. وكان خلطى بين الكلمات الفرنسية ، وارتباكى فى النطق بها ، مبعث فكاهة فى هذه الدروس ، مما أكسبنى مكانة عند تلميذاتى ! .. وقدر لى ذات يوم أن ألتقى عند إحداهن ، وكانت تدعى « مدام بريودو » ، بابنة أخت لها فى الرابعة عشرة من عمرها ، مؤدبة ، متحفظة ، شديدة الذكاء .. فلم ألبث أن ضممتها إلى تلميذاتى .. ولم تلتق ستة دروس حتى بدأت تحاول الكلام بالإيطالية !

مغامرة .. تنتهى إلى فضيحة !

ويذكرنى هذا بعواطفى التى أهملت الحديث عنها ، فى غمرة محاولتى لتصوير المجتمع الباريسى فى الوقت الذى زرت فيه فرنسا .. ولعل أولى مغامراتى كانت مع الابنة الكبرى لصاحبة الدار التى نزلت فيها .. كانت فتاة تتراوح سنها بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، وقد أصبح من عاداتها أن تزورنى فى غرفتى فى أغلب الأوقات .. ولم يطل لى الوقت حتى تبينت أنها أحببتنى .. وكان خليقا لى أن أنظر إلى الأمر كحماقة أو نزق ، ومن ثم لم يقع بيننا خلال الخمسة أو الستة أشهر الأولى ، سوى بعض العبث الصبباني .. إلى أن عدت إلى المسكن فى ساعة متأخرة ذات ليلة ، فألفيت « ميمى » ، — وكان هذا اسمها — نائمة فى سريرى .. ولم أر داعيا

لا يقاطها !.. ومنذ ذلك الحين جرفنا التيار ، حتى فاجأتني بعد أربعة أشهر بأن سرنا وشيك الافتضاح .. وجلسنا نتشاور في الأمر ، ثم عولنا على تركه للظروف .. ولكن بطنها تضخم ، حتى لم يعد الأمر — بعد شهرين آخرين — بخاف على مدام « كينسون » ، التي انهالت على ابنتها ضربا ، حتى أفضت إليها باسم « الذئب » !

واقتحمت السيدة غرفتي مهتاجة ، وانهالت على سبابا وتوبيخا ، ثم انتهت إلى أن لا بد لي من إصلاح غلطتي بالزواج من ابنتها .. وفي غمرة الورطة ، خف ذكائي لأنقاذي ، فزعمت لها أنني متزوج في إيطاليا .. فلما اشتد حنقها ، قلت لها في هدوء : « ولكن .. من أدراك أنني والد الجنين الذي في أحشاء ابنتك ؟ .. إنني أؤكد لك استعدادي لأن أقسم بأنني غير متأكد من صدق ابنتك .. وعلى كل حال ، فهناك مخرج سهل .. إذا كانت حاملا ، فمن الممكن إجهاضها ! » .

تحقيق في قسم البوليس

وفي اليوم التالي ، دعيت إلى قسم البوليس ، فإذا مدام « كينسون » هناك ، في أتم العدة انخوض المعركة .. وإذ ذاك ، قلت للمأمور أن يثبت في المحضر على لساني : « أنني لم أمس ابنة الشاكية بأى سوء ، وأننى واثق من أن الفتاة نفسها على استعداد لأن تشهد بذلك .. » .

قال : « ولكنها حامل ، وتعلن أن حملها نتيجة علاقتك بها .. وتقسم بأنها لم تعرف قط رجلا سواك » .

— ما أظن إنسانا يستطيع أن يطمئن إلى امرأة في هذا الصدد .. ثم إننى لم

أغوها ، وإنما هى التى أغوتنى .. وسرعان ما وافقتها ، فما من رجل يرفض إغواء فتاة فاتنة ..

— وهل كانت عذراء ؟ .. إن أمها تزعم ذلك ، وتطالبك بتعويض .
— إن التعويض لا يدفع — فى أى قانون — إلا لضحية مخدوعة ، لا لامرأة تبعث بابنتها إلى غرفة شاب .. أوليس من حقى أن أرتاب فى أنها كانت ترسلها خصيصا لإغوائى ؟ .. ثم إننى ما كنت لأقوى على شىء بغير رغبتها !
— لقد كانت ترسلها لخدمتك .. ولا بد من أن تدفع تعويضا ..
— لن أدفع شيئا .. لأننى ، فى اعتقادى ، لم أخرق قانونا .. وسوف أرتاد كل المحاكم فى سبيل الإنصاف والعدالة ..
على أننى لم أقو بعد ذلك على مقاومة دموع « ميمى » الحسنة ، فتكفلت بنفقات الوضع .. وأنجبت ولدا أرسل إلى أحد الملاجئ ليربى على نفقة الدولة .. وما لبثت « ميمى » أن فرت من أمها ، وسرعان ما ظهرت على المسرح ، كممثلة ..

فاتنة .. فى الثالثة عشرة !

دعانى السفير البولندى « الكونت لوز » ذات يوم إلى أن أترجم « أوبرا » فرنسية ، لحفلة راقصة كبرى تقام فى البلاط البولندى .. وكانت المهمة عسيرة ، إذ كنت مضطرا إلى أن أراعى أوزان الشعر وأنغام الموسيقى فى آن واحد .. وقد نلت جزاء هذا عبء سعو ط ذهبية فاخرة من ملك بولندا — فوق أتعابى — كما تلقيت تقديرا من أمى التى كانت ألمع النجوم المسرحية فى تلك البلاد ، فى هذه الآونة !

وما لبث « باتوا » أن صحبني إلى مهرجان « سان لوران » .. ثم دعاني إلى تناول العشاء مع ممثلة تدعى « مورفي » ، والمبيت في دارها .. ولكن الممثلة لم ترق لي ، فتركته ينفرد بها ، وآثرت أن أقضي الليلة على أريكة .. ولكنني لم ألبث أن رأيت أمامي صبية في الثالثة عشرة من عمرها — بعد أن نام الآخرين — جاءت تساومني على أن تنزل لي عن فراشها .. وقادتني إلى غرفة ضيقة .. وبحثت عن الفراش ، فإذا هو حشية زرية من القش .. وآثرت بالطبع الأريكة على هذا الفراش ، ولكنني فوجئت بالصبية تستلقي ، وتنشر على جسدها غطاء اتخذته من « ستارة » قديمة .. ولست أدري كيف أبرز الغطاء القذر مفاتن جسد الصغيرة .. ووجدتني أعجب بها ، إلى درجة أن عمدت إلى غسل جسمها بيدي ، لأزيل الأقدار عن هذه الفتنة ، التي كانت أقرب من رأيت في الحياة إلى آلهات الإغريق !

واتفقت مع أختها بعد تلك الليلة على أن أرتاد منزلها من أجل الصبية لقاء أاجر سخى .. وبلغ من افتتاحي بها أن دعوت رساما ألمانيا أجزلت له العطاء ليرسمها عارية وقد استلقت على بطنها ، ورفعت صدرها ملتفتة بنحرها .. واستطاع الرسام أن ينتج لوحة تكاد تكون نموذجاً حياً لكل ما للفتاة من مفاتن .. واحتفظ لنفسه بنسخة أخرى رسمها .. ثم قدر له .. بعد فترة من الزمن — أن يدعى إلى (فرساي) ، فرأى اللوحة معه السيد « دي سان كنتان » أحد أمناء الملك .. وبهر الرجل بجمالها ، فعرضها على الملك .. وبلغ من إعجاب « حامى حمى الدين » — لويس الخامس عشر — بالصورة أن طلب أن يرى الأصل الحى .. الصبية ! .. وكلف الملك « سان كنتان » بالبحث عنها ، فكلف « سان كنتان » بدوره الرسام ، فجاء في الرسام ينشد عوني .. وكادت أخت الصبية أن تجن فرحاً بهذا الحظ الذي هبط على شقيقتها من السماء ! » .

١٠٠٠ فرنك ثمنا للحسناء الصغيرة !

لم يمض يومان أو ثلاثة ، حتى اصطحبت الغانية أختها الفاتنة الصغيرة إلى (فرساي) . وكان « سان كنتان » قد رسم خطة ، فكلف خادما بأن يصحبهما إلى خميلة في بساتين القصر المترامية . وما لبث الملك أن أقبل بعد نصف ساعة ، فأخرج الرسم من جيبه ، وراح يقارن بينه وبين « الأصل » ، ثم هتف : « ما رأيت من قبل رسما بهذه الدقة ! » .. ثم أجلس الفتاة على حجره ، وأخذ يداعبها ، ويضمها ، حتى إذا اطمئن إلى سذاجتها ، وإلى أن الثمرة لم تقطف بعد ، « خلع عليها ! » قبله ، فابتسمت الصغيرة وهي تتأمل الملك بنظرة فاحصة !

وسألها الملك عما يدعوها للابتسام ، فقالت : « إنما أحاول أن أتصور شكلك والتاج يعلو هامتك ! » .. وضحك الملك لسذاجة الفتاة .. تلك السذاجة التي كان يمكن أن تعتبر قحة من سواها ، ثم سألها عما إذا كانت تحب أن تبقى في (فرساي) ، فقالت إن هذا يتوقف على أختها ، وبادرت هذه قائلة إن الإقامة في (فرساي) شرف عظيم ، لا تكاد تحلم به لأختها . وهنا تركهما الملك وانصرف . وإن هو إلا ربع ساعة ، حتى أقبل « سان كنتان » ، فصحب الصغيرة إلى مقصورة في جناح بالقصر ، وأسلمها إلى رعاية إحدى نساء الحاشية ، ثم صرف أختها بعد أن سألها عن عنوانها . وفي اليوم التالي ، تلقت الغانية ألف فرنك .. ثمن أختها الصغيرة !

ثلاث سنوات فى أحضان الملك !

وأعجب الملك بالفاتنة اليافة ، التى أطلق عليها اسم « أومورفى » . وكان أشد ما استهواه فيها بساطتها ، وسذاجتها ، ورشاقة حركاتها ، ولطف تصرفاتها .. فضلا عن ذلك الجمال الرائع الذى لا أذكر أننى رأيت له مثيلا ، وقد أمر الملك بتخصيص جناح لإقامتها فى « حديقة الوعول » .. وهى جزء من (فرساي) وقفه الملك العايب على عشيقاته ، ولم يكن يسمح بدخوله لغير نساء الحاشية ! .. ولم ينقض عام حتى وضعت الفتاة ولدا ، لم يدر أحد مصيره ، كما لم يدر أحد مصير أولاد العشيقات الأخريات .. على أن ولع الملك بالفاتنة الصغيرة لم يدم لأكثر من ثلاث سنوات ، ثم نبذها بعد أن منحها أربعمئة ألف فرنك ، كانت « دوطه » مغرية ، فسرعان ما تزوجت الفتاة من ضابط من مقاطعة (بريتانى) فى سنة ١٧٨٣ ! .

ملك يحب الضحك .. ولا يميل للنساء !

ومالبشت أن صحبت أخى إلى (درسدن) حيث كان يبغي أن يتلقى مزيدا من الدراسات فى فن الرسم . وهناك ، رحبت بنا أمنا — إذ كانت تقيم فى (درسدن) — وأكرمتنا أيما إكرام ، وقد أسعدها أن تجتمع بنا . على أننى ما لبشت أن تركت أخى معها ، وبارحت المدينة دون أن تعترض حياتى فيها أحداث تذكر ، اللهم إلا أننى وضعت مسرحية من النوع « الميلودراما » لقيت من إعجاب ملك ذلك البلد ما حمّله على أن يمنحنى هدية ثمينة .. وكان ذلك

الملك يعتمد في أبيته وكرمه على جيب الكونت «دى برول» وزيره!.. وكان الملك مغرما بوزيره ، إذ كان «دى برول» أكثر بدخا وإسرافا من مولاه!.. ولم أعرف في حياتي عاهلا يمقت الاقتصاد قدر ذلك الملك ، حتى لقد كان ينفق أموالا طائلة ، في سبيل .. الضحك!.. وكان يحتفظ بأربعة مهرجين ، كل مهمتهم في الحياة أن يبتكروا من الحركات والفكاهات ما يضحك مولاهم!

ومع ذلك ، فإن بلاط (درسدن) كان في ذلك الحين أكثر بلاطات أوروبا إشراقا ولمعانا ، وقد ازدهرت الفنون بين رحابه .. ولم يكن ينقصه سوى الغزل والغراميات ، إذ لم يكن للملك أى ميل للجنس اللطيف ، ولم يكن للحاشية أو للرعية أن يتجهوا إلى شئ كهذا ، ما لم يضرب لهم مولاهم المثل والقدوة!

بوليس الآداب في فيينا!

كنت في الثامنة والعشرين من عمري حين وصلت إلى عاصمة (النمسا) للمرة الأولى ، وأنا أبهى ما أكون أناقة . ولكنني كنت خالي الوفاض تقريبا ، ولم يكن لي ثمة معارف ، ولا حملت توصيات لأحد ، اللهم إلا خطاب مقدمة للأب «ماتستاسيو» ، الأسقف الجليل ، الذي سرعان ما تبين أن أكثر ثقافة وعلماء مما كان يبدو في مؤلفاته . وكان دقيقا في تحريره واختيار كل كلمة في القصائد التي كان ينظمها!

وكان الرخاء والترف موفورين في تلك المدينة العظيمة : (فيينا) . ولكن صراحة الإمبراطورة وحزمها ، جعلتا التعبد في محراب «فينوس» — (أى

ممارسة العشق والغرام) — من أصعب الأمور ، إذ ألقت الإمبراطورة فرقة من « ضباط العفة » ، على نسق بوليس الآداب ، كان أفرادها يجوسون خلال الشوارع في كل ساعة من ساعات النهار والليل ، يتصيدون كل فتاة مسكينة تكون الظروف قد قضت عليها بأن تعيش وحيدة ، وأن تخرج لتعمل وتكسب عيشها !.. وكان أفراد الفرقة لا يرتدون زيا رسميا ، ومن ثم كان من العسير أن يفتن أحد إليهم وهم يختلطون بالناس في الطرقات . فإذا رأى الواحد منهم فتاة تسير وحيدة تبعها ، حتى إذا دخلت بيتا ، تحرى عما إذا كانت من سكانه ، فإن لم تكن ، ترقبها إلى أن يراها خارجة فيعترض طريقها ، ويستجوبها !.. وعند أية بادرة من تلثم أو ارتباك ، يجرها إلى السجن ، ولا يكف طوال الطريق عن استفزازها وإهانتها ، ولا يتورع عن تجريدها مما قد يجده معها من مال أو حلي !

« كازانوف » يتنبأ بمصير إمبراطور النمسا !

وكان من الطبيعي أن ينفر هذا البوليس أى أجنبي يزور (فيينا) من إطالة المقام فيها ، إذ يحول بنشاطه دون أن يحظى هذا الأجنبي بأية متعة في عاصمة النمسا !

على أن القدر ساق لى عددا من الأشخاص الذين سبق أن التقيت بهم في البندقية ، فقدموا لى عدد من المجتمعات الراقية ، حيث انفسح أمامى المجال للمقامرة ، وحيث تعرفت بإحدى البارونات ، وعدد من السيدات اللائى كانت مراكزهن تجعلهن بمأمن من سطوة « ضباط العفة » !.. وقدر لى فى (فيينا) أن ألتقى للمرة الأولى بجوزيف الثانى ، الابن الأكبر للإمبراطور ..

وكان إذ ذاك أميرا ، مستهترا ، يذهب في غروره إلى حد الوقاحة . وقد قدر لي أن ألتقى به بعد سنين عديدة في (لو كسمبورج) ، وكان يسخر من الناس الذين يتناعون الألقاب من حكومة الإمبراطور . وكان مما قاله : « إننى أحتقر أولئك الذين يشترون رتب الشرف » ، فقلت : « إن جلالتكم على حق ، ولكن ، ما رأى فيمن يبيعون هذه الرتب 1٩ » .

ولقد أراد الأسقف « ماتيسناسيو » مرة أن يختبر مدى تبخرى في الفراسة ، فسألنى عما أقرأ في وجه الإمبراطور ، فقلت له : « استهتار .. وانتحار ! » .. وما أظننى بعدت كثيرا عن الحقيقة ، لأن الإمبراطور قتل نفسه .. إذ مات في حادث جاء نتيجة استهتاره !

(ولم يلد العيش في (فيينا) لكازانوف ، الذى كانت لا تطيب له الحياة بدون مغامرات . ومن ثم لم يلبث أن رحل إلى (تريستا) ، ومنها استقل سفينة ذاهبة إلى (البندقية) . وهكذا عاد إلى وطنه بعد أن غاب عنه ثلاث سنوات . وفى أحد المهرجانات ، قدر له أن ينقذ سيدة جميلة وسيدا فى زى الضباط الألمان انقلبت بهما عربتهما . وسرعان ما مال « كازانوف » إلى السيدة ، وكانت تدعى مدام « ك. » ، بينما حاول الضابط — الذى تبين أنه إيطالى الأصل ، ويدعى « ب. ك. » — أن يغشه بأذنون مصرفية زائفة . وإذ فطن « كازانوف » إلى الخدعة ، اعتذر له الضابط ، وقال إنه يرجو أن يراه فى ميدان (سان مارك) فى المساء ، حيث يصحب مدام « ك. » ، كما أعطاه عنوان مسكنه ، ودعاه إلى زيارته فيه) .

صريع الهوى .. دائما !

على أننى لفرط اشمئزازى من تصرفات هذا الضابط ، لم أعد أشعر بميل
لتجربة حظى مع مدام « ك. » ، فتفاديت لقاءهما فى ذلك المساء . على أن
شيطانى أوعز لى فى الصباح التالى بأن أعذر لهما لتخلفى عن موعدى
معهما ، وتلقانى الضابط بترحاب ودى ، ولامنى لعدم مقابلتى إياهما فى الليلة
السالفة . وحاول مرة أخرى أن يوقعنى فى أحد أحاييله ، وأن يستدرجنى إلى
توقيع بعض سندات مالية ، ولكننى تهربت منه ، وهممت بالانصراف ، غير
أنه استبقانى ليقدمنى إلى أمه وأخته .

وكانت الأم سيدة محترمة ، بسيطة فى مظهرها . ولكن ابنتها كانت رائعة
الجمال إلى درجة بهرت عينى . ولم تنقض بضعة دقائق ، حتى استأذنت الأم
الطيبة ، الساذجة ، فى أن تأوى إلى مخدعها ، وبقيت ابنتها . وإن هو إلا نصف
ساعة ، حتى كنت صريع هواها !

.. مع أكمل فتاة فى الوجود !

كان كل ما فيها يهفو بالمشاعر والأحاسيس : ذكاء ، وجمال ، ومرح ،
وبراءة ساذجة — ولم يكن ثمة ما يأسر عواطفى قدر البراءة والسذاجة ! — كان
كل ما فى الأنسة « ك. ك. » يجعلنى عبدًا لها ، ويوحى لى بأنها أكمل امرأة فى
الوجود ، ويبعث فى رأسى أكثر الأحلام جموحا !
كانت لا تغادر البيت إلا فى صحبة أمها ، كما كانت تقية ، عفة الخلق ، لا

تقرأ من الكتب إلا ما كان في مكتبة أبيها التي لم تضم رواية قط !.. على أنني عرفت خلال الحديث الذي دار بيننا — بينما كان أخوها منهمكا في الكتابة — أنها تتوق إلى مشاهدة معالم (البندقية) ، وتصبو إلى قراءة بعض الكتب الأدبية ، وتتمنى لو أتاح لها القدر أسرة طيبة تستطيع أن تتردد عليها . وراحت تمطرنى بالأسئلة ، وأنا أرد بالإجابات التي تثير الشوق في نفسها ، وتوجه أفكارها وعواطفها الوجهة التي أردتها ، وإن لم أشر قط في حديثي إلى ما أوتيت من جمال فتاك ، ولا إلى أثر ذلك الجمال في نفسي .

عهد .. وإغراء !

وانصرفت أخيرا وأنا آسف لمبارحة الدار ، وقد تغلغل في نفسي أثر تلك الحصال النادرة . وعاهدت نفسي على أن لا أراها ثانية ، إذ كنت أدرك أنني لست بالرجل الذي يقوى على أن يقيد حريته بالزواج ، وإن رأيت فيها كل الصفات التي تكفل السعادة لزوجها !

وانقضى يومان أضربت بالفعل عن زيارة بيت « ب. ك. » خلالهما . ولكنني في اليوم الثالث صادفته في الطريق ، فذكر لي أن أخته لا تكف عن الحديث عني ، وعن ترديد بعض ما رويته لها .. وأن أمه ارتاحت إلي ، وسرت بتعرف الأسرة بي .. وتطرق بنا الكلام إلى الحديث عن الزواج ، فقال إنني وأخته أصلح زوجين متلائمين ، وأنها أوتيت « دوحة » قدرها عشرة آلاف دينار ذهبي !

ودعاني إلى تناول القهوة في داره في اليوم التالي ، فنسيت العهد الذي قطعته على نفسي .. أو بالأحرى ، تناسيته !

وذهبت .. وقضيت ثلاث ساعات فى الحديث مع الفتاة الفاتنة ، حتى إذا
بارحت الدار فى النهاية ، كنت قد تدلّخت فى هواها .. وقلت لها وأنا أفارقها ،
إننى أحسد الرجل الذى سيقدر له أن يكون زوجها لها !

كازانوف .. العاشق الحائر !

ما أن فارقتها فى هذه المرة ، حتى أخذت أدرس عواطفى نحوها . وشد ما
جزعت إذ تبينت أننى عاجز عن أن أعاملها فى تحرر وعبث ، وعن أن أظل
معها شريفا عفا ، كذلك ! .. أجل ، لم أجد من نفسى جرأة على أن أقدم على
طلب يدها ، ولا أنا استطعت أن أفكر فى النيل منها .. ولو أن أحدا اقترح علىّ
إذ ذاك أن أغرر بها لقتلته !

على أننى — عند هذه المرحلة — كنت قد بدأت أفطن إلى عدة أمور
أولها ، أن العذراء الفاتنة صرفتنى عن مطاردة عشيقة شقيقها .. وثانيها —
وأهمها — أن الشاب كان يسعى لاستدراجى بشكل مريب إلى الزواج
بشقيقته . وخرجت من تفكيرى بأن الوغد كان يعانى ضائقة مالية — بدليل
محاولاته العديدة للاحتيال علىّ — وأنه لم يكن يتورع عن أن يبيع أخته فى
سبيل المال ! .. وأسفت على أن تكون مثل هذه العذراء الجميلة ، وأمها الوقور
الطيبة ، على قرابة بوغد كهذا . بيد أن انتباهى إلى هذه الحقيقة ، جعل شيطانى
ينشط للعمل .. وكانت الحيلة التى وسوس إلى الشيطان بها ، بالغة المكر
والخبث ! .. فقد أوحى إلىّ بأن الشاب لن يرعى عن بيع أخته لأى مشتر ،
ومن ثم فقد توقع بها تحت رحمة عابث لا يرعى ذمة ولا ضميرا ، فى حين أننى
لن أجسر على أن ألحق بها أى ضرر ، لأن حبى لها يمنعنى من إيذاها !

أخيرا .. خلا الجو !

وهكذا وجدتني أتمشى مع الشاب في تديراته ، فأغرينا الأم الطيبة بأن تأتمننا على ابنتها ، لنصحبها إلى « الأوبرا » .. وبالفعل ذهبت الفتاة معنا . وصحبتنا كذلك عشيقة أخيها . وكان من الطبيعي أن يشغل الشاب بعشيقته ، وأن أجد فرصة لأجاذب الفتاة الحديث ، بمنأى عن أية مضايقة ! وفي اليوم التالى ، أقبل « ب. ك. » مغتبطا ، وقال لى أن الفتاة ذكرت لأمها عقب عودتها من « الأوبرا » أنها تؤثر أن تتزوجنى دون كل رجال الدنيا !.. وأكد لى أنها فطنت إلى حبى لها ، ومن ثم راح يغربنى على الزواج منها ، ويمينى بما كانت تملك من « دوطة » !

وقلت له : « الواقع أننى لا أحبها فحسب ، بل أعبدها ، ولكن .. هل تظن أن أباك يرضى لى زوجا لها ؟ » .

وكنت قد عرفت أن الأب على شقاق مع أسرته ، وكان لهذا يعيش بعيدا عنها .. فقال « ب. ك. » فى صراحة مترددة : « لا .. ما أظنه يرضى ، ولكنه شيخ طاعن فى السن .. وإلى أن يواتيه الموت ، تستطيع أن تستمتع بصحبة الفتاة !.. وهذه المناسبة ، أبشرك بأن أمى سمحت بأن نصحب أختى مرة أخرى إلى « الأوبرا » . والآن ، لننتقل إلى حديث عملى .. لقد ابتعت صفقة من النبيذ القبرصى الرائع ، وسأحقق ربحا كبيرا من وراء بيعها .. بيد أن التاجر الذى اشتريته منه ، أبى أن يقبل توقيعى على سند ، دون ما ضامن .. فهل تضمينى ؟ » .

ووقعت السند فى هذه المرة دون ما تردد ، إذ أين الرجل الذى يضيع على

نفسه فرصة كهذه ؟ .. كنت قد تُيِّمت بحب الفتاة ، وكان الشاب يفسح لي الطريق ، وقد غرق في علاقته بعشيقته فشغل بها عن كل شيء !
وهكذا ، ما لبثت أن وجدت الفرص تسنح ، كى أخلو إلى حبيبتي ، وأن أصبحها في نزعات بعيدة عن أنظار أخيها !

سباق .. مع الجمال !

واتفقنا يوما على أن نخرج للنزهة : الضابط « ب. ك. » وعشيقته ، وأنا وأخته . وبادرت فابتعت بعض الهدايا لفاتنتي ، ثم خففت إلى مكان اللقاء في الموعد المتفق عليه تماما ، وإذا بي أجدر فاق قد سبقوني ، فخيّل إليّ أن هذا السبق مجاملة لطيفة من الشاب ، ولم يخامرني أى ارتياب في نواياه . على أنه لم يلبث بعد برهة أن زعم أنه وعشيقته منطلقان لبعض مهام خاصة ، ومن ثم فإنه يكل أخوته لرعايتي ، على أن نلتقى جميعا في المسرح في ذلك المساء ، وما أن بارحنا الشاب وعشيقته ، حتى عرضت على الفتاة أن نستأجر « جندولا » ، ونقضى اليوم في نزهة على سطح الماء . ولكنها أبدت رغبتها في الذهاب إلى حديقة (زويكا) ، وهى حديقة بديعة ، صغيرة ، لم أتردد في أن أستأجرها بأسرها في ذلك اليوم ، حتى لا يعكر دخيل صفوه ناءق بقرب فاتنتي ! .. ثم طلبت غداء دسما شهيا ، وأوينا إلى غرفة تخففنا فيها من معطفينا ، ثم جلسنا بعد ذلك في الحديقة . ولم تكن « ك. » ترتدى سوى « جونلة » من الحرير الخفيف ، و « بلوزة » من قماش مشابه ، ولكن هذا الزى البسيط لم يزلها إلا سحرا ! .. وكانت نظراتي الوهانة تحترق هذا القماش الحريري الخفيف ، فأكدت أرى الفتاة عارية ! .. ورحت أزفر في وجد !

وحلا للفتاة الصغيرة أن تجرى في الحديقة ، وقد استهوها جمال الطبيعة .
وإذ لمحتني أنظر إليها مشدوها ، ومنتشيا في الوقت ذاته ، تحدثني أن أسابقها ،
فقلت لها : « حسنا .. ولكن لا بد من رهان ! .. وليكن رهاننا أن يصدع الخاسر
بما يطلبه منه الفائز ! » .

أين الخاتم ؟!

وتعمدت في المرة الأولى أن أخسر ، لأرى ما قد تأمرني بعمله . وكان
العقاب الذي ابتكرته ، أن اختفت وراء شجرة وأخفت خاتما كان يحيط
بإصبعها ، ثم سألتني أن أبحث عنه ، قائلة إن مخبأه غير بعيد عنها . وكان معنى
ذلك أن أتجسس جسمها ، وأن أقلب أطراف ثوبها ، حتى عثرت في النهاية على
الخاتم .. بين نهدية ! .. ومددت أصابعي المرتجفة أنتشله ، وأنا موزع بين
الدهشة والحرص والرغبة والتورع .. في آن واحد ! .. ولكنني استطعت أن
أبين أخيرا أن الفتاة — التي لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها — كانت
مبرأة عن الخبث والخداع ، وما اختارت هذا الخبأ إلا عن سذاجة طائشة !
وقضينا يومنا في قبلات ودعابات .. كنت أقبلها مشفقا عليها من حرارة
وجدى ، وكانت هي تقبلني كما تقبل الطفلة أباه !

والتقينا في المساء بأخيها وعشيقته في المسرح . وكانا قد أفرطا في الشراب
بعض الشيء ، إذ أخذ الشاب يطلق نكاتا وفكاهات لم نكن نفهمها ولا تضحك
لها سوى عشيقته ! .. وأصر « ب. ك. » على أن نتناول العشاء في « كازينو »
اشتهر بأنه يتألف من غرف تبيع العزلة للجماعات .. وقد كان ، واحتلت
جماعتنا غرفة . وكان الطعام شهيا ، والشراب معتقا ، فلم يلبث « ك. » أن

خرج عن وقاره واحترامه لطهر أخته ، فراح يقبل عشيقته فى شبق !..
وتمادى فانتهاز فرصة وقوفى مع أخته لدى النافذة ، واحتضن عشيقته فى وضع
ناب ، وهو يظن أننا لا نفطن إليه .. ولكننى لاحظت أن الفتاة رأت المنظر
منعكسا على زجاج النافذة ، فاحتقن وجهها !

كازانوفا يكشف حبه للأسرة !

واشتد حبى للفتاة إذ ذاك ، فعولت على أن أنقذها من المصير الرهيب الذى
ينتظرها على يدى أخيها ، فى سبيل تحقيق أهدافه !.. وكانت الأيام لا تزيدنى إلا
يقينا من أنه لن يتورع عن أن يبيع أخته من أجل المال !.. لذلك سعيت إليه فى
اليوم التالى — يحدونى الحب الخالص البرىء — وبعد أن بينت له مدى ما فى
إعجابى بأخته من شعور مجرد ، طاهر ، رحت ألومه على ما كان من مسلكه مع
عشيقته أمامها . واعتذر فى تأثر ، ملقيا الذنب على الخمر التى أفرط فى
تناولها . وما لبثت أمه وأخته أن أقبلتا ، فشكرتنى الأم على ما تجشمت فى
سبيل رعاية ابنتها . ووجدتنى أندفع قائلا إننى إنما أحب الفتاة ، وأتمنى لو
ظفرت بها زوجة لى . ثم قبلت يد الأم ، وقد استبدى الوجد والتأثر حتى
أجريا دمعى على خدى !.. وسرعان ما بكت العجوز الطيبة حنانا . ثم تركتنى
مع ابنتها وابنها — الذى مكث جامدا مشدوها — وغادرت الحجرة ودهشت
الفتاة لما سمعته من قولى لأمها ، ولكنها ازدادت دهشة حين صارحها شقيقها
بما أنحيت به عليه من لوم على مسلكه خلال ليلة أمس ، فى حضورها !

يتقلب على هب مستعر !

ولكن أثر هذا اللوم لم يبق في نفس الوغد طويلا .. إذ ما لبث بعد فترة أن دعاني إلى أن أوافيه في موعد جديد ، فيحضر لي أخته ويتركها معي لينصرف إلى عشيقته . وزاد على ذلك بأن أسلمني مفتاح المسكن لأعود بأخته بعد العشاء ، دون حاجة إلى أن نلتقى به !

ووافيتهما في الموعد — في الصباح التالي — وأنا أشد ما أكون قلقا وانفعالا . فقد كنت أعرف مدى وجدى واستعاره ، ولذا كنت أخشى عواقب البقاء مع الفتاة دون رقيب !.. وقضيت مع « ك. » اليوم في الحديقة كما فعلنا في المرة السابقة . وقبل أن نذهب إلى المسرح في المساء ، تناولنا العشاء في مقصورة منعزلة بالحديقة . وتخلت الفتاة عن حذرهما ، فجلست على ركبتي ، وراحت تبادلني قبلات أخذت تشتد حرارة بين قبلة وأخرى !.. ووجدتها تناقشني فيما حدث بين أخيها وعشيقتها عقب العشاء في المرة السالفة !.. فقلت لها : « ألسنت تخشين أن أفعل بك شيئا كهذا ؟ » ، فقالت : « لا يا حبيبي ، فإنني أدرك مدى حبك لي .. وعلى كل ، ففي وسعنا أن نعجل بزواجنا . وإنني لعلی استعداد لأن أتزوجك غدا لو أردت . وما أرى أن أبى قد يرفض ! »

وأدركت ما كانت ترمى إليه .. إن أباهما سيضطر إلى القبول — إنقاذا لشرفه — إذا هي كانت لي ، وأسلمتني نفسها !.. وكنت أتقلب على هب مستعر ، فلم أعد أقوى على المقاومة . فقلت لها : « أواه ، يا حبيبتى !.. أواثقة أنت من أنك لن تندمي إذا ما أصبحت زوجتي ؟ » . قالت : « لن أندم بكل

تأكيد يا حبيبى ، فإن ما ألمسه من حبك لى ، لا يمكن أن يسمح لك بأن تفعل ما يشقىنى ! » .

عابدان .. فى محراب إله الهوى !

وهتفت فى شوق وحماس : « إذن ، لنبدأ زواجنا منذ الآن .. ليكون الله وحده شاهدا على موثيقنا وإيماننا ، فلن يكون البشر خيرا من الله فى الشهادة . إنه الوحيد الذى يعلم براءة نوايانا . فلنربط مصيرينا معا ، ولنهنأ باتحادنا ! » .. فقالت : « افعل لى ما شئت يا حبيبى ، وأعاهد الله على أن أكون زوجتك الوفية منذ هذه اللحظة إلى الأبد ! » .. وبادلتها هذا القسم ، ثم أسلمنا أنفسنا إلى عبادة إله الحب والهوى . وكانت بشرتها كالحرير ملمسا ، وبياضا ناصعا ، وشعرها ليلا يطبق على منكبين من عاج .. أى قوام رشيق أوتيته ! .. وما كان أبدع نحرها ، وتكور نهديها الفاتنين ، وجمال عينيها إذ أومضت فيهما شرارة الرغبة !

رياضتنا الغرامية !!

جاءنى « ب. ك. » فى الصباح التالى ، متهلل الوجه ، وقال : « إننى متأكد من أنك نلت من أختى وطرا ، وإنى لجد مغتبط بهذا . وسأحضرها لك اليوم ! » .. فرحبت بما عرض ، وقلت له إننى سأدبر طريقة لا تدع لأبيه سبيلا إلى الرفض ، إذا ما تقدمت لطلب يد الفتاة . ولكن الشاب النذل لم يكن ليفلت الفرصة دون أن يفوز لنفسه بنفع . لذلك لم يلبث أن سألنى أن أوقع

— كضامن — على سند حرره لجوهري مقابل خاتم ثمنه مائتا جنيه ذهبي .
فقلت له : « إننى على استعداد للتوقيع ، ولكنك تسيء إلى حبيبى لأختك بهذا
التصرف ! » .

.. وضمنته لدى التاجر . فلم يحن ظهر ذلك اليوم ، حتى أحضر لى
أخته .. فكانت لهفة كل منا إلى صاحبه فى هذه المرة أقوى منها فى سابقتها .
وبدا لى أن الفتاة كانت تواقفة لأن تثمر « عبادتنا » هذه — فى « محراب
الهوى ! » — ثمرة تجبر أباهما على أن يوافق لفوره على زواجنا !.. وانغمسنا فى
نشوتنا ، فلم نقطن إلا والفجر يغزو الكون !
وجددنا استمتاعنا باللقاء فى يوم الجمعة التالى ، ثم افترقنا على أن نلتقى فى
يوم الاثنين ، وكان آخر أيام « الكرنفال » . وما كان ليعوقنى عن هذا اللقاء
سوى الموت ، إذ كانت هذه المناسبة آخر فرصة تسنح لنا كي نمارس رياضتنا
الغرامية !

كازانوف .. يطلب الزواج من « الضحية » !

والتقيت بشقيق حبيبتى .. فى صباح يوم الاثنين — فأكد لى أن أخته تذكر
موعدنا . وأخذت أنتظرها . وانقضت الساعة الأولى ، وكانت الثانية أثقل
وطأة ، وأوشك صبرى أن ينفد بمرور الثالثة . فلما انقضت الساعة الرابعة ،
ولم يظهر أثر لمعبودتى ، تولانى قلق رهيب ، ورحت أتصور أبشع النكبات .
وجاءت أخيرا ، وقد أسدلت على وجهها قناعا ، متلهفة على أن نسرع إلى
معبد هوانا ، ذاكرة أنها لم تر أخاها فى ذلك اليوم ، على عكس ما زعم لى —
وكان علينا أن نستقل « جندولا » لنصل إلى حديقتنا ، فإذا بالرياح تمهب —

ونحن في عرض الماء — قوية ، فتلاعب الجندول ، وتجعلنا تحت رحمة الأقدار .
على أننا بلغنا البر بسلام . وقضينا ست ساعات كاملة في صومعتنا ، لم يعكر
هناؤنا خلالها سوى أن أعياد « الكرنفال » كانت قد انتهت ، ولم نكن ندري
كيف ندبر اجتماعتنا بعدها ، إذ لم تكن أم فتاتي قد سمحت لها بالخروج في الأيام
السالفة إلا للاحتفال بهذه الأعياد . على أننا اتفقنا على أن أذهب إلى دارهم في
الصباح التالي ، فألزم غرفة أخيها ، وتوافيني هي هناك ! وكان الهوى قد
جرفني ، فخلوت في تلك الليلة إلى أبي الروحي — السيد « براجادان » —
وزميليه ، وصارحتهم بقصة غرامي ، وقلت إن المشكلة هي أن لا بد لي من
مركز محترم ، يليق بصداق الفتاة ، وكان يبلغ عشرة آلاف درهم ذهبي .
وطلبوا لي أن أتصل بالأرواح — التي كنت أزعم أنني على اتصال بها —
وأواتهم بمشورتها . وتظاهرت بالغيوبة ، ورحت أتكلم ، فلما صحوت
ثانية ، كانت النتيجة أن على السيد « براجادان » أن يطلب يد الفتاة لي ، لأن
الأرواح اختارته لهذه المهمة . فقرر زميلاه أن يصحباه لهذه الغاية ، إذا ما جاء
والد الفتاة إلى البندقية .

والد « المعبودة » .. يرفض عرض العاشق !

وذهبت في اليوم التالي إلى دار معبودتي ، وأنا أكاد أطير فرحا ، ولكنني
فوجئت بها وبأمها حزينتين ، إذ سجن « ب. ك. » لأنه عجز عن سداد دين
باهظ لا سبيل إلى تدبير قيمته .. ووفقت بعد لأي إلى إقناع الأم بأن تقبل مني
مبلغ خمسة وعشرين جنيها ذهبيا ، تستعين به في تلك الظروف ، ثم رويت لهما
ما تقرر من طلب يد الفتاة رسميا ، ولكن الأم قالت إنني يجب أن لا أنساق

للآمال ، لأن والد الفتاة كان مصرا على أن لا يزوجهما إلا لتاجر ، وبعد أن تبلغ الثامنة عشرة !.. وذكرت لى أن الأب قد يفد فى تلك الليلة ، لأنها أرسلت تدعوه . وفيما كنت منصرفا ، دست حبيبتي رسالة فى يدى تدعونى فيها لأن أوافيها فى منتصف الليل ، مستخدما المفتاح الذى كان أخوها قد أعطانيه ! وما أن علم السيد « براجادان » بأن والد حبيبتي كان مرتقبا فى تلك الليلة ، حتى بادر بالكتابة إليه يسأله موعدا لمقابلته . ولست بحاجة إلى أن أذكر أننى ذهبت للفتاة فى الموعد المتفق عليه ، فقضينا ساعتين من أسعد ساعات العمر .. ثم عدت إلى دارنا . وقضيت صباح اليوم التالى ، أرتقب فى قلق . حتى إذا كان الظهر أخبرنى أبنى الروحى بأن والد الفتاة رد فى رسالته بأنه سيزوره فى اليوم التالى بنفسه . فلما انتصف الليل ، وافيت حبيبتي ، فأخبرتني بأن رسالة عضو مجلس الشيوخ شغلت بال أبيها .

وأقبل السيد « ش. ك. » بعد أن فرغنا من الغداء فى اليوم التالى ، فظل ساعتين كاملتين مع أصدقائى الثلاثة ، وأنا معتكف فى غرفتى . وما أن انصرف ، حتى علمت أنه أجاب بنفس ما سبق أن ذكرته لى زوجته ، وإن أضاف إلى ذلك نبأ كان له على نفسى وقع الصاعقة — إذ قال إنه رأى من الخير لابتنته أن تقضى السنوات الأربع التالية — والسابقة على السن التى قرر أن يزوجهما فيها — فى مدرسة داخلية بأحد الأديرة ، ليحسن إعدادها للزواج . وكان العزاء الوحيد الذى ساقه ، هو أنه لن يمانع فى أن يزوجنى من الفتاة ، إذا كان قد قدر لى — بعد السنوات الأربع — أن أوطد مركزى فى الحياة ! ومكثت أربعاً وعشرين ساعة فى هم وحيرة ، وقد أخذت الأفكار المتشائمة تعذبني وتضنى فؤادى . وانتهيت أخيراً إلى أن أسعى لزيارة مدام « ك. » — أم معبودتى — ولكننى حين ذهبت ، تبينت أنها قد رحلت مع ابنتها

إلى الريف . وبلغ إلى الخبل مبلغه ، حتى أنني سعت لزيارة « ب. ك. » — شقيق القتاة — في سجنه ، على أمل أن أجد لديه أية معلومات أفيد منها ، ولكنني لم أظفر منه بشيء ذي بال . ورحت أعتصر ذهني بحثا عن خطة لما ينبغي أن أعمله ، وأنا أنحى على نفسي باللائمة ، وأتصور ما قد تكون فيه حبيبتى من تعاسة وشقاء . وزاد من همى أن السيد « براجادان » وزميليهِ سافروا بعد يومين إلى (بادوا) ، وتركوني وحيدا ، فأقبلت على الخمر والميسر حتى فقدت كل ما كنت أملك !.. ولكنني لم أجزع ، فقد طاب لي أن أقود نفسي إلى الدمار ، لولا أن فوجئت بالخدام يقود إليّ سيدة حملت رسالة لي . وما أن ألقىت نظرة على الرسالة ، حتى أيقنت أنها من فتاتي ، فكدت أجن لفة ، وأسرعت أفضها بأصابع مرتجفة ، فإذا بها تتضمن سطورا قلائل ، أعلنت خلالها « ك. ك. » أنها ألحقت بمدرسة أحد الأديرة ، وأن أباه أمر بالآلا يسمح لها بتسلم رسائل أو استقبال زائرين ، ولكنها رغم ذلك استطاعت أن تهتدي إلى المرأة التي حملت لي هذه الرقعة . ثم وعدتني بالكتابة إليّ مرة أخرى . وبادرت بالكتابة إلى حبيبتى ردا موجزا ، اختبارا لأمانة المرأة التي قررنا أن نتخذها بيننا رسولا ! وكانت رسالة حبيبتى مبعث إنعاش قضى على ما استولى عليّ من هم واكتئاب ، فبادرت إلى إعداد حقائبي ، ولحقت بأبي وصديقيه في (بادوا) . وهناك ، تعرفت بشاب من (ميلانو) يدعى « دون أنتونيو كروش » ، عرض عليّ أن أشاركه في مشروع لإدارة حلقة للمقامرة في داره . ولم تكن زوجته فوق الشبهات ، ومن ثم كان المفهوم أن الغرض الأول لهذه الحلقة هو .. ابتزاز أموال أعضائها !

الغاية .. تبرر الوسيلة !!

وهكذا شاءت الظروف أن أكون شريكا في مؤامرة للنهب ، ولكنني كنت مضطرا إلى ذلك ، إذ خيل إليّ أنني إذا حصلت على مبلغ كبير من المال ، استطعت أن أدبر طريقة لاختطاف فتاتي والهرب بها بعيدا ، إلى حيث نحظى معا بالسعادة التي كنا نحلم بها .

وكان لا بد لي من أن أقدم ثلاثمائة دينار بندق ، للاشتراك في المشروع ، فأوقعتني هذا بين برائن مراب كان كالوحش المفترس ، إذ استغل حاجتي ليأخذ مني سندا بألف دينار بندق ، خصص منها مقدما جميع فوائده ، فلم يكده يبقى أكثر من نصفها ، وسار المشروع بنجاح كبير لأربع أو خمس ليال ، ثم أقبل « كروش » فجأة ذات يوم ، يعلن أنه تلقى إنذارا من السلطات بأن يرح (بادوا) خلال أربع وعشرين ساعة ، لأنه يغرى الناس على القمار !.. وبادرت لفوري إلى حمل نصف الذهب الذي كان معنا ، ثم امتطيت جوادا ، وانطلقت إلى خارج المدينة في جناح الظلام ، وفي أسوأ الأحوال الجوية ، واستطعت بعد عناء أن أصل إلى البندقية . وكأنا كنت والحظ على موعد ، إذ لم أكد أستيقظ في الصباح التالي ، حتى أقبلت « موران » — رسولة جيبتي — تحمل رسالة منها ، وتسألني أن أعد الرد خلال ساعتين . وبادرت إلى فض الخطاب ، فإذا فيه :

قبلا ت حنن .. من إحدى الراهبات !

كان الخطاب طويلا ، يتألف من سبع صفحات ، ولن أرهق القارئ بإيراد نصه ، ولكنى أكتفى بتلخيصه فيما يلى :

عاد والد الفتاة إلى الدار بعد مقابلته للسيد « براجادان » ، فدعاها وأمها ، وسأل الفتاة عن ظروف تعرفها لى ، فقالت إنها رأتنى خمس أو ست مرات مع أخيها ، وإننى سألتها عما إذا كانت توافق على الزواج منى ، فقالت إن الجواب من شأن أبويها . وإذ ذاك قال لها أبوها إنها لا تزال صغيرة فى السن ، فلا ينبغي أن تشغل بالها بأمر الزواج ، فضلا عن أننى لم أكن قد حصلت بعد على مركز فى المجتمع . وبعد يومين ، قال لابنته إن عمه لها ستصحبها إلى دير تمكث فيه حتى يختار لها أهلها زوجا صالحا ، فأجابته بأنها تطيع رغباته راضية ، مما اغتبط له الرجل ، فوعدها بأن يزورها فى الدير ، وأن يصطحب أمها إذا كانت صحتها تسمح لها بمرافقته .

وهكذا ألحقت الفتاة بالدير ، حيث أفردت لها حجرة نقل إليها فراشها وثيابها . وقد اغتبطت بهذه الغرفة ، كما ارتاحت إلى الراهبة التى تولت رعايتها . ومع أن هذه الراهبة حرمت عليها كتابة الرسائل ، أو تسلم خطابات من الخارج ، أو استقبال زائرين — وإلا كان عقابها الحرمان من الكنيسة ، بل واللعنة الأبدية — فقد كانت هى التى أمدتها بالورق والمداد والكتب ، فانتهزت حبيبتي فرصة الليل لتخرق القانون وتكتب لى كل هذه الصفحات ! وروت لى فى أسلوب مشوق أن أجمل راهبة فى الدير أحبها ، فأثرتها بدروس اللغة الفرنسية مرتين فى كل يوم ، وحرمت عليها — فى ود — أن

تتعرف بواحدة سواها من ساكنات الدير . وكانت تلك الراهبة فى الثانية والعشرين من عمرها ، جميلة ، كريمة ، من أسرة غنية ، تبدى لها كافة الراهبات الأخريات احتراماً كبيراً .. « حتى إذا انفردنا معا ، أخذت تنهال علىّ بقبلات حنون .. وأحسبك كنت تغار منها لولا أنها أنثى ! » .. وذكرت حبيبتي أن مشروع الفرار لن يكون عسيراً ، ولكنها نصحتنى بالترىث ريثما تدرس موقع الدير والطريق الذى تتبعه . وناشدتنى أن أبقى وفيها لها . وسألتنى أن أرسل لها صورة لى ، لتخفيها فى خاتم لا يعرف سره سوانا ! .. وأنبأتنى أن فى وسعى أن أرسل هذا الخاتم عن طريق أمها .. وأضافت قائلة : « وعلى أية حال ، فإننى آمل أن أجد نفسى بعد أشهر قلائل فى وضع كفيل بأن يثير فضيحة فى الدير ، إذا أصر أهلى على إبقائى هنا ! »

كازانوفاً والقديسة « كاترين » .. فى إطار واحد !

وأرسلت إليها — مع رسولتنا — ورقاً ، وأقلاماً ، وشمعاً أحمر تختم به رسائلها ، فضلاً عن رسالة ملتهبة بالأشواق . وعدت فى اليوم ذاته إلى (بادوا) ، بعد أن اطمأنتت إلى أن قرار السلطات بإقصاء « كروش » لا يمسنى فى شىء ، فتلقانى أبى الروحى وزميلاه باغباط فياض . وفى الليلة ذاتها ، قدر لى أن أكسب خمسمائة دينار فى اللعب ، فلجأت فى اليوم التالى إلى رسام بارع ، رسم لى صورة دقيقة ، كما رسم صورة أخرى للقديسة « كاترين » ، ثم حملت الرسمين إلى صائغ سألته أن يصنع خاتماً يضع فى مكان الحجر الكريم منه صورة القديسة ، على أن يكون فى وسط الإطار المحيط بها زر دقيق جداً ، إذا ضغطت انزاحت الصورة فتكشف عن صورتى !

ودهشت عندما التقيت في يوم الجمعة التالى بشقيق حبيبتى فى المدينة ،
فزرته وعشيقتة فى الفندق الذى نزلا فيه . وهناك ، عرفت أن رجلا ذا
مكانة ، ابتاع منه العقود التى كانت لديه ، مقابل خمسة عشر ألف دينار
فلورنسى ، يدفعها على ثلاث سنوات ، ولأنه لقاء هذا سعى للإفراج عنه مقابل
ضمانة شخصية منه ، كما منحه أربعة خطابات اعتماد بمبلغ ستة آلاف دينار ،
ذكر لى الشاب أنه سيتأجر بها كمية من الحرير يبيعها بربح لا يقل عن عشرة فى
المائة . وسألنى أن أصحبه وعشيقتة إلى (فيشتنسا) فى اليوم التالى ، لشراء
الحرير ، وإبرام الصفقة ، واعدأ بأن يرد لى جزءا مما كان قد اقترضه منى . ولم أر
مانعا من أن أجاريه ، فسافرت معهما فى اليوم التالى ، بعد أن توليت عنهما دفع
حساب الفندق !.. وما أن استقر بنا المقام فى فندق فيشتنسا ، حتى انطلق
« ب. ك. » لينجز مهمته . وما أن وجدت الغانية نفسها معى على انفراد ،
حتى قالت لى : « لقد أحبتك منذ ثمانى عشرة سنة .. عندما رأيتك فى
(بادوا) للمرة الأولى ، وكان كل منا فى التاسعة من عمره ! » .. واستطعت
بعد لآى أن أتذكرها . كانت ابنة الرجل الذى أرسلنى إليه السيد « جريمانى »
حين بعث لى إلى (بادوا) لأتعلم ، والذى أشرف على إيجاد مسكن لى هناك .
وعاد « ب. ك. » بصحبة بعض التجار ، فسرعان ما امتلأت الحجرة
بالبضائع ، وراح يناقشهم فى الأسعار ، ثم طلب كميات أخرى وعدوه بأن
يرسلوها فى اليوم التالى ، رغم أنه كان يوم الأحد ، ودعاهم « ب. ك. » إلى
الغداء وأسرف فى طلب أشهى ألوان الطعام والخمور . حتى إذا حل المساء ،
أقبل نفر من عليه القوم ، كان الشاب يحمل رسائل توصية لهم ، فدعاهم إلى
عشاء كان أفخم من الغداء . وغازبنى هذا التصرف منه ، إذ كنت أعلم أنه لا
يحمل من المال سوى خطابات الاعتماد التى سيحولها للتجار ، كذلك تركت

الجمع في صخبهم ولجأت إلى فراشى محنقا . وفي الصباح ، وجدت الغرفة قد اكتظت ببضائع تفوق أثمانها قيمة تلك الخطابات . وجاء التجار فتناولوا معنا غداء لا يقل فخامة عن غداء اليوم السابق : حتى إذا كان المساء ، أخبرني « ب. ك. » بأننا مدعوون إلى حفلة راقصة ، فصحبته وعشيقته ، ولكنني سرعان ما شعرت بالضيق والملل ، لا سيما وقد لاحظت أن القوم كانوا يتحاشونني ولا يكادون يتكلمون معي ، وأن السيدات كن يعرضن عن مراقبتي .. ورأيت هذا الأمر ، ولكنني كنت في حالة نفسية جعلتني أرتاح إلى هذا الإعراض ، لأبادر إلى مغادرة الحفلة ، واللجوء إلى فراشى .

كازانوف .. « زوج شرف » !!

واحتملت يوم الاثنين بصبر نافذ ، إذ كان من المقرر أن نرحل في صباح يوم الثلاثاء . فلما استيقظت في ذلك الصباح ، أقبل خادم يدعوني إلى الإفطار . وإذا تلكأت قليلا ، جاء خادم آخر وأخبرني أن « زوجتي » ترجوني أن أعجل بالهبوط . ولم أتمالك نفسي ، فصفعت الخادم في عنف ، وركلته بقوة طوحت به إلى أسفل السلم ، ثم هبطت محنقا ، فولجت إلى غرفة المائدة ، وسألت « ب. ك. » عن الوغد الذي أعلن في الفندق أنني زوج لعشيقتة ، ولكنه أبدى جهلا بكل شيء ! .. وفي تلك الأثناء ، أقبل صاحب الفندق مشهرا خنجرا ، ليقطع مني جزاء ضربي خادمه . وشهرت بدوري مسدسي . وسألته — آمرا — بأن يفسر لي السر فيما قيل من أنني زوج المرأة ، فأجاب قائلا : « هكذا أثبت الكابتن ب. ك. في سجل الفندق » ! وانقضت على « ب. ك. » وقد أدركت سر ازورار القوم عني ، بعد إذ

رأوني أترك « زوجتى » تنام فى مخدع « زميلى » راضيا ! .. وأمسكت برقبة
الوغد ، وألصقته إلى الجدار ، وأوشكت أن أقضى عليه لولا أن أنقذه صاحب
الفندق من بطشى . وأخذت الفاجرة تبكى ، بينما كان الجبان يردد : « هذا
كذب ! » .. فأثار قوله صاحب الفندق فأسرع وأحضر السجل ، ووضع
تحت عيني النذل وتحداه أن ينكر أنه الذى أُملى أسماءنا . ثم أطبق الرجل دفتر
السجل ، وصفعه به صفعة قوية طوحت به إلى الجدار مبهوتا ، مذعورا !
وغادرت الحجرة نائرا ، فأمرت صاحب الفندق أن يعدلى عربة ، ثم صعدت
إلى غرفتى أحزم أمتعتى وأنا أكاد أموت خجلا ، بعد أن تبينت الموقف الذى
وضعتى فيه ذلك الزنيم أمام المجتمع . وفيما أنا أهم بالانصراف ، أقبلت مدام
« ك » — عشيقة النذل — فصرخت فيها : « اغرى عنى ، وإلا لنسيت ما
ينبغى من احترام لجنسك » ! .. ولكنها ارتمت على قدمي وقلبها يتفطر أسى ،
وراحت تقسم أن لا يدها فى الأمر ، وأنها لم تكن حاضرة عندما أُملى الوغد
اسماءنا . وأكدت زوجة صاحب الفندق قولها . وأقبلت العربة التى طلبتها ،
فدعوت الفندقى لأنقذه نصيبى من النفقات ، ولكنه اعتذر عن قبول شئ
منى ، قائلا إننى لم أطلب بنفسى شيئا !

ووفد إذ ذاك واحد من عليه القوم الذين تعرفوا إلى « ب. ك. » ، ويدعى
« الكونت فيلو » ، فناديتة قائلا : « أحسبك صدقت يا كونت إن هذه المرأة
زوجتى ؟ » .

فأجاب فى ترفع : « هذه حقيقة تعرفها المدينة بأسرها ! » .
قلت : « يا للجنة ! .. وكيف تصدقون شيئا كهذا وأنا أقيم وحدى فى غرفة
منفصلة ، وقد رأيتمنى أغادر مائدة العشاء ، والحفلة ، تاركاً إياهم معكم
جميعاً ؟ » .. فقال الكونت : « من الأزواج من يستمرئون هذا

التساهل ! » .. فصرحت فيه : « ما أظننى أبدو من هذا النوع ، وما كنت أحسب أنكم على هذه الدرجة من الجهل بأقدار الأشراف .. انتظرني خارج الفندق يا سيدى ، وسأريك الدليل ! » .

.. ومغفل كبير !

وكانت التعسة « ك » تكاد تنفطر لفرط البكاء ، حتى لقد أشفقت عليها .. فإن الدموع من أقوى الأسلحة التى كنت أواجهها من النساء طوال حياتى ! .. ورأيت أننى إذا غادرت الفندق دون أن أدفع شيئا ، فلن يلبث القوم أن يضحكوا ويسخروا من غضبى ، ويروا أننى كنت شريكا فى حيلة للنصب والغش . لذلك رجوت صاحب الفندق أن يحضر لى قائمة الحساب ، وقد عولت على أن أدفع نصف قيمتها . ولكن مدام « ك » عادت — فى تلك الأثناء — ترمى على قدمى باكية ، ضارعة ، ذاكرة أننى سألقى بها إلى التهلكة إذا تخليت عنها ، إذ لم تكن تملك مالا تدفعه ، أو شيئا ترهنه فى مقابل إقامتها فى الفندق . فصحت : « أوليس لدى زميلك خطابات اعتماد ؟ » .. فقالت : « لقد فطن التجار إلى زيفها فردوها ، واستردوا جميع بضائعهم .. أواه ! .. من كان يظن أن الأمر كله بهذا الشكل ! » .. فصحت : « ياللوغد ! .. كان يعرف ذلك ، ومن ثم ألح على كى أصبحكما إلى هنا ! .. حسنا . سأدفع ثمن غباي ! » .. ودفعت قيمة قائمة الحساب بأكملها ، إذ رأيت هذا أنسب لمقامى ومركزى ، وحصلت من صاحب الفندق على إيصال وقعه اثنان من الشهود . ثم منحت الخادم الذى ضربته جنيهين ، تعويضا له ، وألقيت للتعسة ، مدام « ك » ، بمثلهما !

وهكذا انتهت المغامرة المزرية ، التى لقتنى درسا لم أنسه بعد ذلك . وعلمت بعد بضع أسابيع أن أحد علىة القوم فى المدينة أشفق على الشقيين فمنحهما مبلغا مكنهما من مغادرة المدينة . وبعد شهر من ذلك ، ألقى القبض مرة أخرى على « ب. ك. » لعجزه عن سداد ديونه ، وإفلاس الرجل الذى كان قد توسط للإفراج عنه فى المرة السابقة بضمانة شخصية منه . ولقد كتب لى عدة رسائل يتوسل إلى فيها أن أذهب لزيارته فى السجن . ولكنى لم أحفل بهذه الرسائل . كذلك حاولت مدام « ك » مرارا أن تقابلنى ، فلم ألن ، ولم أقبل السماح لها بمقابلتى !

كازانوفا يتعرف بالراهبة « الغامضة » !

وعدت إلى (بادوا) ، فلم أبق بها إلا ريثما تسلمت الخاتم من الصائغ الذى كنت قد عهدت إليه بصنعه ، وتناولت الغداء مع السيد « براجادان » ، الذى لم يلبث أن عاد إلى (البندقية) بعد أيام قلائل ، حيث كنت قد سبقته ! وفى ساعة مبكرة من ذات صباح ، أقبلت مبعوثة حبیبتى من الدير ، تحمل خطابا من الفتاة ، مليعا بالأشواق ، فأقبلت على قراءته ملهوفاً ، ثم كتبت لها رسالة رويت فيها تلك الخدعة اللئيمة التى استدرجنى إليها أخوها الوغد ، ثم أنبأها بسر الخاتم الذى وعدتها بأن أسلمه لأمرها . وما لبثت أن أخذت أتردد لبضعة أيام على الكنيسة التى كانت أمها تذهب إليها لتحضر القداس كل صباح ، حتى رأيته تفقد عليها يوما ، فركعت إلى جوارها ، وسألته أن تبغنى ، ثم قدتها إلى إحدى الردهات . وبعد بضع عبارات على سبيل المجاملة ، ذكرت لها أنني سأظل وفيا لابتها إلى آخر العمر ، ثم سألتها عما إذا كانت قد زارتها ،

فقالت : « إننى أعزم أن أذهب لأطمئن عليها فى يوم الأحد المقبل . ولسوف أذكرك لها بالطبع ، فإننى أدرك أنها ستغبط لسماع أنبائك . ولكنى — للأسف — لست فى حل من أن أذكر لك مكانها ! » .. كانت السيدة الطيبة تظن أننى لا أعلم بمقر حبيبتي !! .. فقلت لها : « لن أخرجك يا أمى ، ولست أرغب فى معرفة مقرها . ولكنى أرجوك أن تحملى إليها هذا الخاتم هدية وتذكارا . إنه يحمل صورة قديستنا التى تستبشر ببركتها ، فأرجوك أن توصيها بأن تحيط إصبعها بهذا الخاتم دائما ، وأن تتأمل صورة القديسة وهى تؤدى صلاتها اليومية ، لأننى أعتقد أن ببركتها سيتاح لنا أن نغدو زوجين ، وأن نحقق آمالنا . وقولى لها إننى أتوجه بالدعوات فى كل صباح إلى القديس جيمس » ! وابتهجت الأم لتقواى ، ولهذا الوفاء منى لابنتها ، فوعدتنى بأن تحمل إليها هديتى وأقوالى . وقد برت بوعداها ، إذ تسلمت فى يوم الأربعاء التالى خطابا من حبيبتي مفعما بأرق آيات الحب والحنان ، وبأجمل مظاهر الشكر والعرفان . وقالت لى إنها لا تكاد تخلو إلى نفسها حتى تمس زر الخاتم ، فتتراح صورة القديسة « كاترين » ، وتصافح عينيها طلعتى الحبيبة ، فتخال أنها ملكت الدنيا بأسرها . وأضافت : « إننى لا أنفك أقبّل صورتك ، حتى أمام الراهبات وتحت أبصارهن . فإذا اقتربن منى ، ضغطت الزر ، فترتد صورة قديسته الحبيبة لتخفى صورتك .. ومن ثم تجدد كل الراهبات أشد ما يكنّ ابتهاجا لتقواى ، ولتعلقى بالقديسة « كاترين » ، التى يؤكّد أن وجهى جد شبيه بوجهها » ! .. واسترسلت قائلة إن الراهبة التى تعلمها اللغة الفرنسية عرضت عليها خمسين دينارا فى مقابل الخاتم ، لشدة الشبه بينها وبين القديسة .. ولكنها بالطبع لم تكن لتنزل عن الخاتم ، ولو وهبت لها الدنيا بأسرها فى مقابله ! .. كذلك قالت : « ولقد أطرت أمى تقواك كل الإطراء .

وهى أشد ما تكون ابتهاجا بوفائك ومشاعرك ، وبهذه المناسبة ، أرجو أن لا تذكر لى قط اسم ذلك الأخ الوضيع الذى رزئت به ! » .

وظل حديث القديسة « كاترين » المباركة يملأ صفحات خطاباتها لبضعة أسابيع أخرى .. تلك القديسة التى كانت تجعلها ترتجف فرقا عدة مرات فى كل يوم ، إذ كانت الراهبات الكبيرات يقبلن على تأمل صورتها — فى الخاتم — بدافع من الفضول ، ويرحن يتحسسن الصورة ونقوش الخاتم ، ومعبودتى فى خوف من أن تمس أصابعهن الزر الدقيق ، فيفتضح سرها !

(تلت هذه السطور صفحات مليئة بذكر الراهبات ، دون ما أحداث معينة ذات قيمة ، اللهم إلا أن « كازانوف » استطاع التعرف بالراهبة التى كانت تلقن حبيبته اللغة الفرنسية ، فإذا بها امرأة شديدة الذكاء ، وشديدة الغموض فى آن واحد ، حتى لقد أحس العاشق الداهية أن دهاءه وحيلته لا يكادان يرقيان إلى درجة دهائها وحيلتها !) .

طاه بارع .. وزوجة فاتنة !

لم يلبث القدر أن دفع إلى طريقى نبيل يدعى (مارك أنتونى زورزى) ، أوتى موهبة فى نظم الأراجيز الشعرية اللاذعة . وكان يهوى كتابة المسرحيات ، فوضع مسرحيتين هزليتين لم يرض عنهما الجمهور ، ولكنه اعتقد أن فشلهما إنما كان خطة مدبرة بوحى ونفوذ الأب « كيارى » ، الذى كان شاعر مسرح القديس (إنجيلو) ، بالاسم فقط .. ومن ثم اشتد عدااء « زورزى » للأب « كيارى » ، وعقد عزمه على أن يثأر منه ، فاستأجر عصبة من الأوغاد ، ليحضرُوا فى كل ليلة المسرحيات — التى كان المفروض أن

مؤلفها هو الأب « كياري » ، ولو بصفة اسمية ! — ويعكروا جو المسرح
بتهريجهم . وما كنت لأحفل بكياري ، ولكنني اضطررت لأن أجامل
« زورزي » لأنه أوتى بيتا فخما ، وطاهيا بارعا ، وزوجة فاتنة ، ومن ثم
ناصرته ، بأن رحت أنتقد مسرحيات خصمه ، وأنظم فيه بعض الأراجيز
اللاذعة ، مما اضطره إلى أن يرد على بكتيب صغير ، تناولني فيه بأقذع الهجاء ،
فرددت عليه في قسوة ، وهددته بالضرب إذا لم ينتق كلماته عندما يتكلم
عني . ولم يحاول أن يرد ، ولكنني تلقيت يوما خطابا غفلا من التوقيع ،
يتضمن إنذارا لي بأن أرجع عن مشاكسة الراهب ! وفي تلك الأثناء ، عرض
عليّ رجل يدعى « مانوتس » — عرفت فيما بعد أنه من أقذر جواسيس ديوان
التفتيش الرهيب — أن يتناع لي بعض الماسات ، دون أن يتعجلني الثمن ،
وبهذا الزعم أصبح يتردد على مسكني ، فيطلع على كتبي ويعبث بأوراق أثناء
زياراته ، مدعيا الاهتمام بموضوعاتها ، لا سيما ما كان يدور منها حول
السحر ! ..

ووجدتني أطلعه — في غياب — على بعض الكتب التي تتضمن مبادئ علم
تحضير الأرواح ، فما لبث أن جاءني ذات يوم يقول إن ثمة شخصا — لم يكن
في حل من ذكر اسمه — على استعداد لأن يدفع ألف دينار ذهبي ثمنا لخمسة من
كتبي ، على شريطة أن يتأكد من أصولها وصحة نسبها إلى مؤلفيها ، فأعرتة
إياها ليطلعه عليها ، وإذا به يردها إليّ بعد أربع وعشرين ساعة ، زاعما أنها
مزورة . وقد علمت بعد سنوات أنه إنما حملها إلى الأسقف الذي كان يرأس
ديوان محاكم التفتيش ، وأن مجرد اقتنائى هذه الكتب كان كافيا لإقناعه بأننى
أمارس السحر !

اتهامات أمام محاكم التفتيش !

وكأنما كان القدر مصرا في ذلك الشهر على سوق إلى محاكم التفتيش ، إذ اتهمتنى سيدة بأننى أعلم ابنها الإلحاد ، وهى تهمة كانت كفيلة بأن تقضى علىّ بأن أحرق حيا ، لولا أن الظروف خفت إلى معونتى ، فإذا أعضاء ديوان التفتيش لا يملكون أن يودعوني السجون الخاصة بديوانهم ، ومن ثم قرروا إحالتى إلى النيابة العادية لتتولى التحقيق معى . ولقد علمت فيما بعد أن شخصا أجيرا — يؤيده شاهدان — اتهمنى بأننى لا أؤمن بالله ، وإنما أعبد الشيطان .. وإن من الأدلة على ذلك أن ما من مرة لعنت فيها الشيطان أثر خسارتى فى المقامرة !!.. كذلك اتهمت بأننى لا أحفل بالصلاة والطقوس الدينية ، وأننى من جماعة « الماسونيين الأحرار » ، وأننى كنت على علاقة بأجانب يدفعون لى أموالا فى سبيل الإفشاء لهم بما أعرفه — عن طريق عضو الشيوخ الذى تبنى « براجادان » — من أسرار الدولة !.. وبدا أن ثمة قائمة من الاتهامات ، لا تكاد تنتهى ، حتى لقد نصحنى الأصدقاء المخلصون بأن أنتهز فرصة تحويل قضيتى إلى السلطات المدنية ، لأغادر البلاد ، فأغيب عنها فترة من الوقت . ولكن إيمانى ببراءتى جعلنى أرفض هذه النصيحة فى عناد ، لا سيما وأننى كنت غارقا فى الديون إلى أذنى ، الأمر الذى دفعنى إلى رهن ما كنت أملك من متاع وأشياء ذات قيمة .

على أنه يبدو أن ثباتى قد أغرى السلطات الدينية على أن تتدخل فى الأمر مرة أخرى ، إذ عدت إلى « البنسيون » — الذى كنت أقيم فيه — ذات مساء ، فوجدت صاحبتة فى ذعر شديد .. وعلمت منها أن رئيس ديوان التفتيش جاء

بنفسه مع نفر من الشرطة ، واقتحموا غرفتى وفتشوها تفتيشا دقيقا . وكنت لحسن الحظ قد أودعت أوراق الخاصة ورسائلى وما كنت أعتز به من تذكارات ، لدى صديقة لى تدعى مدام « مانسونى » .. ومن ثم فإنهم — على ما بدا — لم يعثروا على شيء ذى قيمة . غير أن هذا الحادث جعل السيد « براجادان » يزداد إلحاحا فى إغرائه إياى على الرحيل عن البندقية ، وأن لا أعود حتى يدعونى هو إلى العودة . ولكن حنقى بسبب هذا الحادث زادنى إصرارا على البقاء . فتحول يدعونى إلى العودة للإقامة فى قصره ، لأن الحصانة التى كان يتمتع بها لا تمكن السلطات من مدهامة مسكنه دون إجراءات خاصة ، تكفى لتنبيهى إلى الخطر قبل وقوعه ! .. غير أننى أمنت فى الضلال ، وأبيت أن ألين لإلحاحه ، رغم ما كان له من فضل علقى ، وما كان يكتنه لى من حب . كنت أتصرف فى رعونة عمياء ، حتى أن دموع الشيخ الطيب النبيل لم تحرك عواطفى ، وإنما زادتنى إمعانا فى العناد ، فودعنى بقلب مثقل بالحزن والألم ، عندما انصرفت عن زيارته .

كازانوف .. السجين !

وكانت هذه آخر مرة أراه فيها ، رغم أنه مات بعد ذلك بأحد عشر عاما .. فقد فوجئت قبيل فجر اليوم التالى بباب حجرى يفتح ، ورأيت كبير محققى ديوان التفتيش يدخل متسائلا : « أأنت جاك كازانوف ؟ » .. ثم أمرنى بأن أقدم له جميع ما لدى من أوراق ووثائق ، وأن أرتدى ثيابى . وأدركت أن لا سبيل أمامى غير الطاعة ! .. وعندما رأيته يحرص على الكتب الخمسة التى سبق لى أن أعرتها لمانوتس ، أدركت حقيقة الدور الذى لعبه ذلك النذل !

وارتديت ثيابى وأنا مشئت البال ، وإن عنيت بأن أختار أجمل ما كنت
أملك من ملابس ، وكأنتى كنت ذاهبا إلى حفل زفاف ، مما حدا بالسيد
« جراندى » — وهو اسم المحقق — إلى أن يرمقنى فى دهشة وعجب !..
وكان ثمة أربعون جنديا — من حملة الأقواس والنشاب — فى الخارج ، مما
أوحى إليّ بأنهم كانوا يتوقعون مقاومة عنيفة منى .. ولكننى لم أحاول أن ألبأ
إلى شىء من هذا ، بل تركتهم يقودننى إلى دار رئيس ديوان التفتيش ، حيث
احتجزونى فى غرفة موصدة . ووجدتنى عاجزا عن أن أستجمع قواى
الذهنية . لأفكر فيما قد يحسن دفاعا عن نفسى ، فاستلقيت على أريكة ،
واستسلمت لنعاس مضطرب ، لم أكن أصحو منه إلا لأرتد إليه !.. حتى إذا
كانت الساعة الثالثة من بعد الظهر ، أقبل رئيس الجند ، فأعلننى بأن أمرا صدر
إليه بأن يقودنى إلى « سجن الرصاص » !.. وكان من أبشع السجون ، وقد
سمى بهذا الاسم لأن سقفه كان يتألف من عدة ألواح من الرصاص ، بدلا من
قوالب القرميد .. وكان الفراغ الذى يقع بين غرفه العليا وسقفه المكدوب ،
مقسما إلى « زرنانات » !

وتبعت قائد الجند فى صمت إلى « الجندول » الذى أقلنا إلى السجن . وبعد
أن صعدنا سلما وهبطنا آخر ، عبرنا جسرا صغيرا يصل السجن بقصر الدوقية
— مقر ديوان التفتيش — عبر قناة ضيقة تسمى « ديورى بالاتسو » . ثم اجتزنا
ردهة طويلة ، انتهينا منها إلى غرفة جلس فيها شخص فى ملابس الرهبان .
وتأملنى هذا الرجل طويلا ، وما لبث أن قال : « خذود إلى سجن أمين ! » ..
وكان ذلك الرجل هو الأب « كافالى » ، سكرتير ديوان التفتيش الرهيب .

أمام جهاز الإعدام الرهيب !

وتسلمنى كبير حراس السجن ، فتبعته . وصعدنا طابقين ، ثم اجتزنا ردهة طويلة ، إلى باب أفضى بنا إلى ردهة أخرى ، انتهت بباب كشف عند فتحه عن حجرة ضيقة ، منخفضة السقف ، قدرة ، لا ينفذ إليها سوى بصيص ضئيل من النور ، خلال كوة فى سقفها . وظننت فى البداية أن هذه كانت مقرى الحديد ، ولكننى وجدت الرجل يتناول مفتاحا ضخما ، فتح به بابا ثقيلًا ، سميكًا — ذا مزلاج حديدى كبير — لا يتجاوز ارتفاعه مترا ، وتتوسطه كوة صغيرة . وأشار لى كبير الحراس لأدخل . ولكننى تلكأت لحظة ، إذ رحت أتأمل آلة كبيرة من الحديد ، على شكل حدوة الفرس ، مثبتة إلى الجدار ، وابتسم السجنان إذ فطن إلى ما كنت أتأمل ، وقال : « لعلك تحب أن تعرف فائدة هذه الآلة .. إذن فاعلم أنه إذا صدر أمر أصحاب السعادة بإعدام أى امرئ ، فإنه يجلس على مقعد بدون مسند ، ويلصق ظهره بالجدار ، ثم يهبط هذا الطوق حول عنقه ، ويولج حبل من الحرير فى الثقوب التى فى الطرفين ، ثم يلف حول عجلة ، يتولى إدارتها المكلف بتنفيذ الحكم ، فيظل الطوق يطبق حول عنق المقتضى عليه بالإعدام ، حتى يزهرق روحه ! » .. فهتفت : « يا للفظاعة ! .. وأظنك الشخص الذى يحظى بشرف إدارة العجلة ! » .. ولكنه لم يجب ، بل كرر الإيماء لى بالدخول ، فدخلت ، والسقف المنخفض يجبرنى على أن أسير منحنيا . وأغلق السجنان الباب خلفى ، ثم سألتنى خلال كوة فيه عما أحب أن أتناوله من طعام . فلما أجبته بأننى لم أفكر فى هذه الناحية ، انصرف .. وسمعته يغلق الأبواب خلفه !

(مذكرات كازانوف)

يد باردة .. فى الظلام !

وكانت بالحجرة نافذة يبلغ اتساعها حوالى نصف متر ، تقسمها قضبان غليظة من الحديد إلى ست عشرة فتحة مربعة ، سدت الفتحات الوسطى من بينها بقرص ضخيم من خشب البلوط السميك . ولم يكن يوسعى أن أنتصب واقفا ، إذ لم يكن ارتفاع السقف يتجاوز مترا ونصف متر . وكان ثمة جزء يكاد يكون منفصلا عن بقية الغرفة ، مما يوحى بأنه معد ليقام فيه سرير ، ولكنه كان خلوا من أى شىء .. بل لم يكن فى الحجرة أثر لمقعد أو منضدة ، بل اقتصر أثاثها على حوض صغير ، ولوح خشبي مثبت إلى الجدار على ارتفاع بسيط من الأرض ، ليتخذ كمقعد ، فألقيت عليه بعباءتى الأنيقة ، وسترقت الجديدة البديعة ، وقبعتى التى وشيت حافتها بريش و « دانتيلا » أسبانية غالية . وكان الحر يكاد يزهق الأنفاس ، فسرت إلى الكوة التى تتوسط أعلى الباب ، ألتمس شيئا من الهواء ، فإذا بى أرى عددا من الفئران الكبيرة تلعب فى الغرفة الخارجية . وكنت بطبعى أشمئز من هذه الحيوانات ، بل إن منظرها كان يجعل الدم يتجمد فى عروقى .. لذلك أسرعت بإغلاق الكوة !

وقضيت حوالى ثمانى ساعات ، متكئا بمرفقى إلى حافة النافذة ، لا أكاد أحير حراكا ، إلى أن ردتى إلى الوسط المحيط بى صوت ساعة تدق على بعد . وعجبت إذ تركت طيلة هذا الوقت دون أن يحفل أحد بأن يأتى إلى . ولم أفكر فى الطعام ، ولكننى كنت شديد الظمأ ، وفى فمى مرارة بغیضة .. وإذ انقضت ثلاث ساعات أخرى ، دون أن يفد أحد ، بدأ غيظى يحتدم ، فرحت أصيح ، وأصرخ ، وأر كل الجدران والباب ، ولكن .. دون ما جدوى ! ..

ومرت ساعة أخرى ، ثم أدر كنى الخور ، فتأملت ما حولى ، حتى إذا اطمأنتت إلى خلو غرفتى من الفئران ، استلقيت على الأرض ، وقد داخلنى يقين بأن المحققين القساة ، المجردين من كل شعور إنسانى ، قد اعتزموا أن يتركونى مهملا فى تلك الحجرة حتى أقضى نحبى جوعا وظمأ !

.. على أن ما أثار دهشتى واستنكارى ، هو أننى لم أكن أعرف الذنب الذى من أجله عوملت بهذا الشكل .. ولم أكن قد ارتكبت جرما فى حق الدولة أو الدين ! وأضنانى التفكير ، والتخبط فى الاستنتاجات ، إلى جانب ما كان قد أصابنى من إرهاق عقب ثورقى .. ومن ثم واتانى النوم ، وكأنه أشفق علىّ أخيرا ! وكان الظلام حالكا عندما استيقظت . وفطنت إلى أننى نائم على جنبى الأيسر ، على الأرض . ومددت يدى اليمنى أبحث عن منديلى ، حيث كنت قد تركته ، وشد ما كان ذعرى عندما مسست يدا أخرى ، باردة ، متييسة ! .. ولم تغشنى رهبة الموت فى حياتى يوما ، بمثل العنف الذى غشيتنى إذ ذاك ، حتى لقد ظللت دقائق مسمرا فى مكانى مشنت العقل . ثم بدأت أسترده جأشى رويدا رويدا ، لأتبين أننى إنما مسست .. يدى اليسرى التى سرت إليها رطوبة الأرض ، وعرقل جريان الدم فيها ثقل جسمى وأنا مستلق على جنبى الأيسر !

فواكه محرمة .. فى الجنة !

وكان هذا الحادث — على تفاهته — سببا فى أن فطنت إلى أننى كنت فى حال كفيلة بأن تجعلنى أغالى فى الأوهام والخاوف ، مما قد يوهن من جلدى وروحى المعنوية ، ومن ثم قررت أن أقاوم هذه الحال . وشرعت — لأول مرة

فى الثلاثين سنة التى كانت تؤلف عمرى إذ ذاك — أوقظ الفلسفة التى كانت بذورها كامنة فى أعماقى !.. ألا ما أكثر الذين يموتون دون أن يكونوا قد فكروا فى حياتهم يوما ، تفكيرا حقيقيا .. لا لأن الذكاء كان يعوزهم ، وإنما لأنهم لم يتعرضوا لأحداث وظروف غير عادية ، تكفى مفاجأتها لأن تهزم فتوقظهم وتنبههم كى ينفضوا عنهم ما ألفوه من رتابة الحياة !

وقدر لضوء النهار أن ينبثق أخيرا ، بعد ليل خلته لن ينقضى ، فسمعت صوت مزلاج باب غرفتى يتحرك ، وصوت السجبان الغليظ ينبعث خلال الباب متسائلا : « هل وجدت وقتا كافيا لتفكر فيما تحب أن تأكل ؟ » .. فأجبت — متأدبا — بأننى أحب قدرا من حساء الأرز ، وبعض اللحم المسلوق ، وقطعة من الشواء ، وخبزا ، ونبيدا ، وماء !.. ولاحظت الدهشة التى اعترت الرجل عندما لم أبادره بالشئوى أو الاحتجاج ، وما لبث أن سألنى : « أأست فى حاجة إلى سرير وبعض الأثاث .. إنك تخطئ إذا ظننت أنك ضيف علينا ليوم أو اثنين ! » .. فقلت : « إذن ، فأحضر لى ما تراه لازما » .. وهنا قال : « من أين آتيك بهذه الأشياء ؟ .. إليك قلما وورقة ، فاكتب لى ترى أن بوسعه أن يرسلها إليك » .. فكتبت قائمة بما كنت أحتاج إليه من ثياب ، وأثاث . وطلبت الكتب التى أخذها المحقق من غرفتى . ولكن الوحش أجاب وهو يلقي نظرة على القائمة : « لا ينبغي لك أن تسرف فى طلباتك بهذه السرعة .. اشطب الكتب ، والورق ، والأقلام ، والمنظار ، وموسى الحلاقة فكل هذه من الفواكه المحرمة فى هذه الجنة !.. والآن ، إلى بيعض النقود أعد لك بها طعامك ! » .

ولم يكن فى جيبى أكثر من ثلاثة دنانير ، فدفعت إليه واحدا منها ، وانصرف ليخدم نزلاء « الزنانات » السبع الأخرى ، على ما عرفت فيما

بعد . حتى إذا انتصف النهار ، أقبل بالمتاع والطعام . ولم يسمح لى بغير ملعقة من العاج ، إذ كانت السكاكين والشوك من المنوعات !.. وقال لى السجنان : « اطلب منذ الآن ما سوف تحتاج إليه فى غدك ، لأننى لن أستطيع أن أحضر إليك إلا مرة واحدة فى اليوم .. ولقد قال سكرتير المكتب إنه سيعث إليك ببعض الكتب التى تفيد منها ، لأن الكتب التى طلبتها لن تجديك ! » .

قلت : « أرجو أن تشكره لأنه سمح لى بزنزانة لا يشاركنى فيها زميل ! » .
— إنك لا تدري ما تقول ، فما تركت وحيدا إلا عقابا لك ، وستتبين وطأة هذا العقاب فيما بعد ، فتمنى لو وجدت زميلا !

هدايا .. فى عيد رأس السنة !

وكان محقا فى قوله ، فما أتعس الإنسان الذى يُقسر على الحياة ، وحيدا ، فى غرفة قدرة ، كئيبة ، لا ينعم فيها برؤية إنسان مثله سوى دقائق معدودات فى اليوم !.. وبالفعل ، لم ألبث أن شعرت بحنين إلى الزمالة ، حتى أننى لم أكن أتردد فى أن أرحب بزميل من القتلة أو المجذومين ، فالوحدة فى السجن هم وقنوط ، لا يعرف قسوتهما سوى من يجربهما ، وما أراى أتمناهما لعدو ، مهما يبلغ بيننا الخصام !.. ولو أنهم أمدونى بورق وأقلام ، لخفت شقوتى ، ولكنهم أبوا على هذه الأشياء التى كانت كفيلة بأن تسرى عنى .

وجلست إلى الطعام ، ولكننى لم أستطع أن أتناول أكثر من ملء بضع ملاعق من الحساء ، برغم أن الزاد لم يدخل جوفى منذ ثمان وأربعين ساعة . وقضيت النهار فى المقعد الوثير ذى الذراعين ، الذى كان بين ما طلبت من

أثاث . ولكننى لم أقو على أن أغمض جفنى ، عندما جن الليل ، لثلاثة أسباب : أولها ، الفقران . وثانيها ، الضجيج الذى كان يصدر عن ساعة كنيسة « سان مارك » فإخاله منبعثا من جوف غرفتى .

وثالثها ، جحافل البراغيث التى أغارت على جسمى ، فأوسعتنى قرصا ، حتى سممت دمي !.. وعندما أقبل « لورنس » — السجان — فى الصباح التالى لينظف الحجرة ، أحضر لى كتابين كبيرين حرصت على أن لا أقرهما ، إذ كانا من مطبوعات السلطات المشرفة على محاكم « التفتيش » ، فخشيت أن ييدر منى ما ينم عن استهجان ، فيشى بى السجان !

وكان أشد ما أثار دهشة « لورنس » خلال الأيام الأولى من إقامتى فى السجن ، هو أننى لم أكن أحاول أن أسأله عن شىء !

وفى عيد رأس سنة ١٧٥٦ ، جاءنى بحزمة كبيرة ، احتوت على « روب دى شامبر » مبطن بجلد الثعلب ، وبالحرير المحشو بالقطن ، وكيس من جلد الدب أدس فيه ساقى . وشد ما كانت فرحتى بهاتين الهديتين ، إذ كان البرد يشتد فى ذلك الفصل من السنة . وأخبرنى السجان أنه قد تقرر السماح لى بأن أتلقى ثمانية دنانير فى كل شهر ، لأبتاع بها ما أشاء من كتب ، ولأحصل على الصحيفة الرسمية ، وكانت كل هذه النعم من أبى الحبيب السيد « براجادان » . وكم تأثرت حين أنبأنى « لورنس » أن الشيخ الجليل ركع أمام أعضاء مكتب التفتيش ليضرع إليهم باكيا ، كى يسمحوا بإرسال هذه الهدايا لى ، لأشعر بأن حبه لى ما زال قويا !.. ولم أتمالك فى غمرة التأثر أن أمسكت بالقلم ، وكتبت على قصاصة من الورق : « أشكر لمكتب التفتيش كرمه ، وللسيد براجادان فضله الذى لا ينسى » !

كازانوف يحصل على سلاح !

وسمح لى بعد فترة بأن أترىض قليلا كل يوم ، فى الردهة المعتمة التى كانت أمام حجرتى .. وفى أحد الأيام ، عثرت فيها على مزلاج مخلوع ، ومهمل ، فواتنتنى فكرة أوحى إلىّ بأن فى وسعى أن أستخدمه كسلاح للهجوم والدفاع ، عند الاقتضاء . ومن ثم أخفيته تحت ثوبى ، وحملته إلى حجرتى ، حيث عكفت ثمانية أيام على حكه بقطعة من الصوّان ، حتى شحذت حافته ، وجعلته أشبه بمخنجر ذى نصل به ثمانية نتوءات . وكانت مهمة شاقة ، مضنية ، جعلتني لا أقوى على تحريك ذراعى ، وأحدثت جرحا فى كفى .. ولكننى كنت أنسى كل ألم ، إذا ما تأملت — فى غبطة — نتيجة عملى . واستطعت أن أجده له مخبأ فى الحشو الذى كان فى قاع مقعدى . كما استطعت أن أستدرج « لورنس » فى الحديث ، حتى تأكدت منه مما دار بظنى من قبل ، إذ قدرت أن غرفة « كافالى » — سكرتير ديوان التفتيش — كانت تقع تحت « زرناتى » مباشرة . وكان المؤلف أن تنظف تلك الغرفة فى الصباح الباكر من كل يوم ، لذلك خطر لى أن أحفر السقف ، وأتدلى إليها فى الليل — مستعينا بأغطية فراشى — ثم أختفى فيها إلى أن يفتح بابها فى الصباح ، وأن أشق طريقى إلى الخارج مستعينا بسلاحى . وكان أهم ما فى الخطة ، أن أحول بين « لورنس » — أوجاله — وبين تنظيف أرض غرفتى ، فى الجزء الواقع تحت السرير ، إذ كنت قد اخترته موقعا للشجرة التى اعتزمت حفرها .

وأوحى إلىّ عقلى بأن أدعى المرض ، فزعمت أنني أصبت ببرد قاس ، وبقيت ملازما فراشى بضعة أيام . وكان التراب الذى يثيره « لورنس » ، أثناء

كنس زنراتنى ، خير عون لى على أن أنطلق فى السعال أمامه . ولكن الرجل لم يلبث أن ارتاب فى الأمر ، فتفقد كل ركن من حجرق وفى اليوم التالى لهذا الحادث ، تعمدت أن أشك إصبعى بدبوس ، حتى تفصد منه بعض الدم الذى تلقيته على مندىلى : فلما دخل « لورنس » الحجرة ، سعلت فى عنف ، ثم صحت فيه : « انظر ما فعله بى الغبار !.. لقد ظللت أسعل طويلا ، وأحسب أن شريانا فى صدرى قد انفجر ! » .

وجاءونى بطبيب ، فلما أعدت على مسمعه هذه القصة ، أقرنى على أن لا شىء يضر بالرئتين قدر الغبار !.. وتبينت أنهم ما جاءوا بالطبيب ليعالجنى ، وإنما .. ليتأكدوا من أن لا حيلة وراء سعالى ودمى !.. على أن « لورنس » أشفق علىّ ، إذ كان يحصل على قسط كبير من الدنانير الثمانية التى أخذ السيد « براجادان » يبعث بها إلىّ شهريا ، ومن ثم أمر السجنان أعوانه بأن لا يكتسوا حجرتى كى لا يثيروا فى جوها أى غبار !

يذكر الله .. فى محنته !

وكانت ليالى الشتاء طويلة ، قضت علىّ بأن أمكث حوالى تسع عشرة ساعة من اليوم فى الظلام .. إذ لم يكن ضوء النهار الغائم لينفذ إلى حجرتى إلا لساعات قليلة . واستطعت بكثير من الحيلة أن أحصل على فتيل ، وبعض الزيت . وباستخدام الرخام وسلاحى الفولاذى ، وجدت القداحة التى تولد شررا .. وبهذا استطعت أن أصنع « مسرجة » ضئيلة ، أوقدها كل مساء لبضع لحظات ، لأتبين على ضوءها الموقع الذى أحفر فيه . وكانت أرض الحجرة من خشب سميك ، ولكننى ظللت عاكفا على الحفر بسلاحى فى ظلام الليل ،

حتى استطعت أن أحدث — تحت السرير — ثغرة كافية . بيد أننى كدت أياس ، حين وجدت تحت الألواح الخشبية طبقة من البلاط .. وفي غمرة اليأس ، قفزت إلى ذهني بعض المعلومات التي قرأتها عن « هانيبال » ، وكيف استعان بالخل على أن يحفر ممرا خلال جبال الألب ، إذ أن العناصر الحمضية التي يحتويها الخل تتفاعل مع الصخر فتفتته . وعلى هذا . حرصت على أن أحتفظ بكل ما كان يتبقى من خل « السلاطة » التي كنت أطلب من « لورنس » إحضارها مع كل وجبة !

.. كانت أياما رهيبة ، قاسية الأثر على أعصابي . وكنت أجمع الفضلات المتخلفة عن عملي — من شظايا الخشب ، والتراب ، وما إليها — حتى إذا ذهبت إلى دورة المياه في كل صباح ، حملتها معي في ثنایا ثوبی ، وأفرغتها هناك . وكنت أنصرف بكل كياني إلى الصلاة والدعاء !.. والذين يستخفون بنتائج الصلاة لا يفقهون شيئا ، فإن المرء إذا وجه ثقته إلى الله مخلصا ، صادقا ، وجد في هذا طمأنينة وسكينة تهدئان من روعه !

وأوشك عملي على نهايته ، ولم يبق سوى أن أحدد الموعد المناسب لمغامرتي . وأخذت لهذا عشية عيد القديس « أوجستين » ، إذ كان ديوان التفتيش مزمعا أن يعقد اجتماعا في تلك الليلة ، في دار رئيسه .. وكانت ليلة السابع والعشرين من شهر أغسطس .

ولكن الحظ كان لي بالمرصاد . ففي ظهر اليوم الخامس والعشرين ، أقبل « لورنس » يعلن إليّ أن الأمر قد صدر بنقلي إلى غرفة فسيحة ، نظيفة ، ذات نافذتين كبيرتين تطلان على نصف مدينة البندقية !.. وكان يظن أننى سأطير فرحا بهذا النبأ السعيد ! ، ولكنني بذلت جهدا جبارا لأقاوم الإغماء الذي

أوشك أن ينتابنى .. وظللت برهة صامتا ، ثم سألته أن يرجو سكرتير الديوان بأن يدعنى فى الغرفة التى ألفتها وألفت جوها ، ولكنه هتف : « أبعنون أنت ؟ .. إن هذا الجحر لا يقاس بتلك الغرفة .. الفارق بينهما كالفرق بين الجحيم والجنة .. ثم لا تنس أن هذه أوامر لا بد من تنفيذها ! » ولم تفلح المعارضة .. وخيل لى أننى أوشك أن أموت رعبا !

فى صحبة الخوف القاتل !

كان من العبث أن أعصى الأمر ، فتركت السجنان يقودنى إلى الغرفة الجديدة ، وأنا لا أكاد أقوى على جر قدمى . ومضينا فى الردهات الضيقة ، ثم صعدنا درجات ثلاث ، واجتزنا بهوا ، دلفنا منه إلى ردهة أخرى أضيق من السابقات .. وفى نهايتها ، كان باب غرفتى الجديدة . وكانت تسد نافذتها شبكة حديدية ، لم تمنعنى من أن أسرح بصرى فأرى شطرا كبيرا من مدينة البندقية . وكان العزاء الوحيد لى فيما بعد ، هو أن نسمة علية كانت لا تفتأ تنساب إلى الغرفة خلال هذه النافذة .. وتركنى السجنان ، وذهب لينقل متاعى من الغرفة الأخرى ، ولكنه لم يعد ! .. وقضيت ساعتين وأنا نهب للمخاوف والهواجس القاتلة ، فقد كنت أعرف أن فى السجن تسع زنانات تحت سطح الأرض ، يزج فيها التعساء الذين يقضى عليهم زبانية « ديوان التفتيش » بالموت البطيء !

وما لبث « لورنس » — كبير السجنانين — أن أقبل وقد امتقع وجهه لفرط الغضب المشوب بالخوف ، فأمرنى بأن أسلمه المعول الذى حفرت به أرض

الغرفة القديمة ، وأن أفضى إليه باسم السجان الذى أمدنى به . وإذا أنكرت ، أمر رجاله بأن يفتشونى ، ثم تحولوا ينقبون فى حشيتى ووسادى ، ومقعدى الوثير ، دون أن يخطر لهم ببال أن الأداة التى كانوا ينشدونها إنما كانت مخبأة فى حشو المقعد ! .. وعندما ابتعد أعوان « لورنس » قلت له : « لو أئنى سئلت فلن أتورع عن أن أقول إنك أنت الذى أحضرت لى معولا ، وإننى رددته إليك ثانية ! »

السجان يتدخل للسجين !

وكان رده سيلا من الشتائم الصاخبة ، ثم أحكم إغلاق النافذة ، فمنع عنى النسائم العليلة ، عقابا لى ، وهو فى غيظ بالغ . حتى إذا أقبل الصباح التالى ، أحضر لى قدرا من الماء وآخر من النبيذ ، كانا من القذارة بدرجة غثيت لها نفسى . كذلك كان الغداء أسوأ غداء . وقضيت يوما من أقسى الأيام ، فلما تكررت هذه المعاملة فى اليوم التالى ، استجمعت جرأتى وقلت له : « هل صدرت إليك الأوامر بقتلى جوعا ؟ .. إلى بورق وقلم لأكتب لى سكرتير الديوان ! » .. بيد أنه لم يحفل لى ، وظل يصم أذنيه عن سماع شكواى واحتجاجاتى .

وظللنا على هذه الحال ثمانية أيام ، ثم خطرت لى فكرة لأجبره على التحول عن مسلكه . فانتهزت فرصة وجود أعوانه فى الغرفة — فى اليوم التاسع — وطلبت إليه على مسمع منهم ، أن يقدم لى حسابا عن النقود التى كانت تودع لديه باسمى .. واربتك ، ثم وعدنى بأن يعد لى قائمة الحساب . فلما كان الصباح التالى ، أقبل يحمل سلة مليئة بالليمون ، وبطة مشوية

— أرسلهما لى السيد براجادين — وزجاجة ماء كبيرة .. وقدم لى قائمة حساب ، رأيت منها أنه كان مدينا لى — رغم اختلاساته — بأربعة دنانير ، فقلت له : « أعط ثلاثة لزوجتك ، ووزع الرابع على زملائك ! » .
وأذاب هذا الكرم جموده وقسوته ، فما لبث أن سألنى فى فضول : « قلت إنك ستتهمنى بمساعدتك ، إذا أنا أبلغت الحادث لى سكرتير الديوان ، فكيف كانت تلك المساعدة ؟ » .. فشرحت له كيف أننى استخدمت الخيط — الذى كان يحيط بما حمل لى من حزم — فى صنع فتيل ، وكيف أننى استخدمت الزيت المتخلف من السلطنة وقودا ، ومن ثم حصلت على « مسرجة » بفضل إهماله ! .. فهتف جزعا : « يالله ! .. إن السكرتير ما كان ليفلتنى من العقاب ! .. إننى مسكين وأب لأطفال فلا تخرب بيتى يا سيدى ! »

راهب فى السجن .. بتهمة إغواء الفتيات !

وهكذا سادت بيننا هدنة . وفى ذات يوم ، طلبت من « لورنس » أن يتنازل لى بعض الكتب ، فقال لى : « حرام أن تبدد كل نقودك فى شراء الكتب .. إن لديك مجلدات كثيرة فرغت من قراءتها ، وفى وسعى أن أستبدل لك بها كتباً أخرى من سجين آخر .. أتظن أنك الوحيد الذى يقرأ الكتب العلمية فى هذا السجن ؟ » . وأعطيته — على سبيل التجربة — أحد الكتب ، فما لبث أن عاد لى بكتاب آخر ، من سجين فى غرفة مجاورة . وأوحى لى هذه التجربة بفكرة التراسل متخذاً من المرئى مدادا . وعندما فرغت من قراءة الكتاب ، اقتطعت قصاصة من ورقه ، كتبت عليها ستة أبيات من الشعر باللاتينية ، ودستها

تحت غلاف الكتاب .. فلما رده « لورنس » إلى صاحبه ، وأحضر منه كتابا آخر ، وجدت في هذا قصاصة مدسوسة ، وقد جاء فيها :

« نحن اثنان في زنزانة واحدة ، ويسرنا أن نتبادل الرسائل معك . اسمي مارلين بالبي ، وأنا راهب من نبلاء البندقية . أما زميلي فهو الكونت أندريا اسكوييني ، من « أودنيه » . ولنكن على حذر من أن يفطن لورنس إلى تراسلنا » .

وكتبت لهم بدورى عن نفسى وعن قصة اعتقالى ، وجهلى بأسباب زجى فى السجن . فرد « بالبي » ساردا قصته فى ست عشرة صفحة . فقد قضى عليه بالسجن أربع سنوات ، لأنه أغوى ثلاث فتيات ، وتجراً فعمد أبناءه منهن ونسبهم إلى نفسه !

خطة جديدة للهرب !

وأوحى لى التراسل بالأمل فى الخلاص . وكان الحراس يتفقدون جدران حجرى كل يوم ، خشية أن أكرر المحاولة السابقة ، فلم يكن فى وسعى أن أقوم بجهد ما دون أن أتعرض للاقتضاح . لذلك خطر لى أن أقوم بالمحاولة بطريق غير مباشر .. وهكذا أخذت أوحى إلى الراهب خلال رسائلى بالفكرة . ووعدته بأن أرسل له الأداة التى اخترعتها للحفر ، لكى يفتح ثغرة فى سقف حجرته — بالتعاون مع زميله — وأخرى فى الجدار الذى يفصل غرفتى عن غرفتهما ، فإذا تم ذلك ، فليدع لى بقية الخطة ، على أن يعدا بأن يطيعا توجيهاتى . ورد الراهب بأن هذا لن يمكننا من أن ننفذ إلى أكثر من الفراغ الذى يقع تحت السقف المحدودب. فكان جوابى : « إننى عملت لكل شئ حسب حسابا ،

فاطلب إلى لورنس أن يتتبع لك أربعين صورة كبيرة من الصور الدينية ،
وعلقها على الجدران وألصق بعضها بالسقف ، وبهذا تبعد الشبهات وتخفى
الثغرتين » .

وبعد أن تم ذلك ، سألت « لورنس » ذات يوم أن يحمل إلى الراهب طبقا
مليئا إلى حافته بالحساء ، مع بعض الكتب .. ووضعت الطبق فوق الكتب
فاضطر الرجل إلى أن يسير بحذر وإلى أن يوجه كل انتباهه وعنايته إلى
تفادى انسكاب شيء من الحساء على الكتب ، ومن ثم لم يفتن إلى أننى
أخفيت أداة الحفر فى نسخة كبيرة من التوراة كانت بين تلك الكتب !

وشرع الأب « بالبي » فى العمل فورا ، فلم تنقض ثمانية أيام ، حتى كان قد
أحدث ثغرة فى السقف ، كان يخفيها خلال النهار بصورة كان يلصقها بلباب
الخبز . وفى الثامن من أكتوبر ، شرع فى ثقب الجدار الذى يفصل بيننا ، ولكن
العملية كانت شاقة عسيرة ، استغرقت حوالى تسعة أيام . وفى اليوم الذى
أوشك فيه العمل أن يتم ، عمد القدر إلى معاكساته المعهودة ، إذ فوجئت
بلورنس واثنين من أعوانه يقودون شخصا ضئيل الجسم ، زرى الملابس ، مقيد
الذراعين . واعتذر رئيس الحراس لاضطرارهم إلى أن يفرضوا على شريكا فى
غرفتي .. وكدت أجن لوجود هذا الشريك ، ولكنى لم أجد بدا من
الرضوخ . ومن ثم عمدت إلى كسب وده ، بأن أخذت أشركه معى فى
غذائى ، لأنه كان بادى الفقر .

وما لبثت أن فهمت أن الرجل كان جاسوسا ، ولكنه كان جشعا لا يقنع
بسيد واحد ، فسهل على اجتذابه . وكان فوق هذا ساذجا ، فسرعان ما
تظاهرت أمامه بالتقوى ، فإذا بالروح الدينية تستهويه ، حتى إنه استغرق فى
الصلاة منذ اليوم الأول . وكتبت إلى الأب « بالبي » أسأله أن يرجئ بقية

العمل ريثما أعدل خطتي .
ثم سألت « لورنس » أن يتناح لي صورة للقديس فرانسيس ، وصليبا ،
وأربعة أمثال ما اعتاد أن يحضره لي من نبيل .. وعلقت الصورة إلى الجدار ، في
المكان الذي كان مقدرا أن تفتح الثغرة فيه .

الجاسوس التائب !

وكننت قد عرفت من « لورنس » أن شريكى سيدعى للمثول بين يدي
المحقق بعد أربعة أيام ، فتظاهرت بأننى مقتنع ببراءته ، وبأنه لن يعود إلى
الزناينة بعد التحقيق . ومن ثم كتبت رسالتين بريئتين إلى السيد « براجادين »
والأب « جريمانى » ، وسألته أن يهربهما إلى خارج السجن ، وفتقت بنفسى
بطانة سترته لأخفيهما بين ثناياها .

وبالفعل ، لم يلبث الرجل أن استدعنى للتحقيق بعد أربعة أيام ، وكننت
واثقا من أن نخسة نفسه كجاسوس ستوحى إليه بأن يسلم الرسالتين إلى
المحقق . وتحقق ظنى ، إذ لم يكذب يعود ، حتى تأكدت من عدم وجودهما معه .
وعندما ضيقت عليه الخناق ، انهار على ركبتيه أمامى باكيا ، وزعم أن المحقق
أمر بتفتيشه عنوة ، حتى عثر عليهما وصادرهما . وأظهرت له أننى لم أصدق
كل قصته ، ثم غطيت وجهى براحتى متظاهرا بالأسى العميق ، وركعت أمام
صورة القديس ، ورحت أصلى وأسأله أن ينتقم لى ! وكننت أكنم الضحك
بجهد جبار ، وأنا أستغل سداجة الحائن وأثير المخاوف التى تعلق بأذهان الجهلة
من جراء الخرافات التى تنسب إلى الدين ! .. ثم أويت إلى فراشى صامتا ،
وظللت طيلة النهار التالى لا أكلم « سوراداش » — كما كان زميلى يدعى —

ولا أجيب عن أسئلته ، ولا أحفل ببيكائه .. وقد صور له الوهم أن الانتقام لا بد أن يحل به ، فراح يستحلفنى أن أغفر له ، ويقسم على صدق توبته .

العدراء توفد « ملاكا » لكازانوف !

على أن الوقت كان يمر سريعا .. فقد أصبحنا فى الخامس والعشرين من أكتوبر . وكانت خطتى تقوم على أن أعضاء ديوان التفتيش اعتادوا أن يقضوا الأيام الثلاثة الأولى من شهر نوفمبر — من كل عام — فى إحدى القرى يتعبدون !

.. لذلك أرسلت إلى « بالبي » أدعوه لاستئناف العمل فى الساعة السابعة من مساء اليوم قبل الأخير من الشهر ، أى ٣٠ أكتوبر .

و كنت قد حرصت فى خصامى على أن لا أمنح « سوراداتش » ما كنت أمنحه من طعام ، حتى هزل وخارت قواه فى الأسبوع السابق على آخر أيام الشهر . فلما حل يوم ٣٠ أكتوبر ، تظاهرت بالإشفاق على الخائن ، فإذا به ينخرط فى البكاء ، ويلج فى طلب المغفرة . فقدمت إليه طعاما وأنا أقول له : « لقد تراءت لى العدراء فى المنام وأمرتنى بأن أصفح عنك ، وقالت لى إنها — مكافأة لى على الصفع — ستأمر أحد الملائكة بأن يتخذ صورة البشر ، ويهبط إلى الأرض ، فيلج غرفتنا ويمكننى من مبارحة السجن ، وإن بوسعى أن أصبحك معى إذا أقسمت على أن تطلق مهنة التجسس » . فلما أبدى شيئا من التشكك ، قلت له إنه لن يخسر شيئا إذا ما انتظر معى لتتأكد من صحة هذه الرؤيا ! .. وكنت أضحك فى أعماق ، إذ كنت موقنا من أن ظهور « الملاك » الموعود لن يثير فى نفسه سوى الذعر !

وفي الساعة السادسة ، قدمت له عشاء دسما ، وأسرفت في إغداق النبيذ عليه ، ثم ركعت أمام صورة القديس ، وسألته أن يحذو حذوى .. وما أن دقت الساعة السابعة ، حتى بدأنا نسمع جلبة من الناحية الأخرى من الجدار ، فهمسست بانفعال : « ها هو ذا الملاك قادم ! » ، ورسمت علامة الصليب ، وأمرته بأن يسجد معي ، وظللنا في سجودنا فترة طويلة ، كنا نسمع خلالها « بالبي » وهو ينقب الجدار .

وما لبثت أن أمرت « سوراداتش » بأن يستوى على ركبتيه ، وقضينا ثلاث ساعات ونصف في صلاة . وكان النعاس يستولى عليه بين آن وآخر ، حتى إذا بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف هتفت به : « سيظهر الملاك ! » ، وأمرته بأن يرسم علامة الصليب ، وأن يستغرق في الصلاة ، وبأن يقسم على أن لا ييوح لمخلوق بسر الزائر الملائكى !.. ولكننى ما لبثت أن قلت له — عندما انتصف الليل ولما يفرغ بالبي من عمله — إن الملاك سيظهر في منتصف النهار التالى ، وأن عليه إلى ذلك الحين أن ينام موليا وجهه شطر الجدار .. وأن يتظاهر بالنوم عندما يأتى « لورنس » والحراس فى الصباح التالى . فلما أقبل هؤلاء وانصرفوا ، قلت لسوراداتش إن « الملاك » سيأتى خلال الجدار ، وسيحمل معه مقصا ، فعليه — أى سوراداتش — أن يساعدنا على قص لحيتينا ، فقال فى حيرة : « وهل للملاك لحية ؟ » .. وأجبت فى خشوع تام : « هكذا أمرت !.. وسوف نهبط من السجن إلى ميدان سان مارك ، ثم نرحل إلى ألمانيا »

وتعمدت أن أحدثه عن طريق الفرار فى إسهاب ، وأنا أكتم الطريق الحقيقى الذى كنت قد رسمته فى خطتى ، وذلك تضليلا للحراس إن هو تخلف عن الفرار معى ، وأفشى لهم أمرى .

(مذكرات كازانوفا)

إما الحرية .. وإما الموت !

وعند الظهر تماما ، ارتفعت صورة القديس فرانسيس عن الجدار ، وانساب الأب « بالبي » خلال الثغرة ، فألقى بنفسه بين أحضاني .. وبينما انهمك « سوراداتش » في قص لحية الراهب ، كنت قد انزلت خلال الثغرة إلى غرفة الأخير حيث التقيت بالكونت إسكوين زميله ، الذي راح يحذرنى ويثبط من عزيمتى ، ولكننى قلت له : « سأمضى فى طريقى ، فإما ظفرت بالحرية ، وإما لاقيت حتفى ! » . ثم عدت إلى غرفتى ، فمزقت ملاءات فراشى وجدلت منها جبلا طويلا ، وحزمت سترقى وعباءتى وبعثتى وبعض أقمصه وجوارب ومناديل ، ثم عدت والراهب و « سوراداتش » إلى الغرفة الأخرى . وإذ ذاك تخلت عن كل تظاهر ، وشرعت فى العمل فورا . وكان الظلام قد هبط ، فتسللت خلال الثغرة التى حفرت فى السقف ، وجزعت إذ وجدت أن القمر لا يزال مشرقا . ولكننا تريثنا حتى غرب ، واستطعت أن أحصل على جنهين من الكونت إسكوين . وكان « بالبي » بادى القلق والذعر ، لا ينفك عن القول : « إن السطح منحدر ، ويتألف من ألواح الرصاص ، فلن تستطيع أن تسير عليه ! » .. بينما راح الكونت يقول : « لن تجد شيئا تربط إليه الحبل لتتدلى والأب ، ومن ثم فلا بد لأحدكما أن يمسك بالحبل ليدع الآخر يهبط ، ثم يتدبر هو أمر هبوطه . فمن منكما على استعداد ليؤثر الآخر على نفسه ؟ .. ومن أية ناحية تهبطان ؟ .. لن تستطيعا أن تهبطا من الناحية المواجهة للميدان ، وإلا تعرض أمركما للاقتضاح .. ولا من ناحية الكنيسة ، لأنكما ستهبطان داخل الأسوار .. ولا من ناحية الساحة ، وإلا وقعنا

في أيدي الحراس .. والناحية الرابعة تسلمكما إلى القناة ! » .
ولإزاء هذه الاحتمالات ، جبن « سوراتاش » وبعد أن كان متحمسا
لمرافقتي ، سألتني أن أدعه يبقئ ، وما درى الأحمق أنني سررت لهذه الفرصة ،
فقد كنت أخشى أن يعرقل وجوده خطتي .

من كازانوف .. إلى قضاة التفتيش !

وأسلمت « سوراتاش » رسالة كتبت فيها :
« إن واجب قضاة ديوان التفتيش أن يبدلوا كل سلطان في وسعهم لإبقاء
أى مذنب في السجن ، ولكن من حق السجين أن يبدل قصارى جهده
للفرار .. إنهم لم يسألوه رأيه في الزج به في السجن ، ومن ثم فلا حاجة به إلى
أن يسألهم رأيهم في أن يحرق نفسه . إن جاك كازانوف — كاتب هذه
السطور — يعرف أن من المحتمل أن يقع في أيدي الحراس ، ولن يرجو في هذه
الحالة سوى أن يُجنب العذاب . وهو ينزل عن كل متاعه في الزنزانة
لفرانيس سوراتاش ، كما ينزل عن كتبه للكونت إسكوين » .

وتقدمت « بالبي » في الصعود إلى السقف ، ثم رحت أزحف على يدي
ورجلي ، مستعينا بالأداة التي ابتكرتها للحفر ، كي لا أنزلق عن ألواح
الرصاص ، وأنا أجز الراهب خلفي . وكنت في كل لحظة أتمنى لو ركلته
وتخلصت مما كان يحشمني من عناء وتعب . واجتزنا أخيرا السقف المشترك
الذي يربط السجن إلى قصر الدوقية — قصر ديوان التفتيش — فتركت
« بالبي » جالسا يلهث ، ورحت أتفقد السطح بحثا عن « منور » أو ثغرة نفذ
خلالها إلى داخل القصر . ولكني لم أعثر على بغيتي ، ولا على شيء أربط إليه

الحبل .. وكنت طيلة الوقت لا أنفك عن التفكير فى أننى قد أصادف فى القصر أخطارا يهون السجن إزاءها ، ولكن سعار اللهفة إلى الحرية كان يملككنى !

على أننى لمحت نافذة فى الفراغ الذى يقع تحت السقف المحدودب — الطابق المسروق ، كما يسمونه — فوجدت فيها الأمل الوحيد !

لحظات فى الهواء !

وما لبثت أجراس كنيسة « سان مارك » أن دقت معلنة انتصاف الليل ، فانتبهت إلى ضيق الوقت الباقى ، وأسرعت عائدا إلى زميلى ، فزحفنا حتى أشرفنا على النافذة . وكان على واحد منا أن يدلى الآخر بالحبل ، فطلب « بالي » أن يكون هو الأسبق فى الهبوط . ومع ما كان فى طلبه من أنانية خسيصة ، إلا أننى كظمت غيظى ، وأجبتة إلى رغبته . ولم تكن ثمة وسيلة لأن أتدلى خلفه ، إذ كانت النافذة تبعد بحوالى خمسين قدما ، وليس ثمة من يمسك لى الحبل . وعدت أتفقد السطح ، فإذا بى أطل على شرفة صغيرة فيها بعض مواد البناء ، وسلم ، فتحايلت حتى استطعت أن أسحب السلم ، ثم ربطت به الحبل ، وظللت أدفعه بين أنايب تصريف مياه المطر (الميازيب) وبين الجدار .. وكانت مهمة شاقة ، وخطر الانزلاق من فوق السقف المنحدر يتهددنى فى كل لحظة من لحظات أدائها .. وأصبحت خمس درجات من السلم مندسة بين الميازيب والجدار ، ولكنها لم تكن كافية لحفظ السلم فى وضع متوازن . وعدت أدفعه بكل ما تبقى فى جسدى المرهق من قوة . حتى انحسر تماما ، وأصبح من العسير تحريكه ، أو حتى هزه . وهنا أقدمت على المخاطرة

التي كانت فيها حياقي أو موتى !.. إذ أمسكت بالحبل وتركت نفسي أنزلق في الهواء — معتمدا على ثبات السلم في انخشاره بين الأنابيب والجدار — بعد أن أدليت بحزمة ثيابي إلى الراهب ..

تأرجحت في الهواء لحظات كنت أخال في كل منها أن قواي لن تلبث أن تتخلى عني فأهوى مهشما . على أن قدمي استطاعتا أخيرا أن تبلغا النافذة ، فرحت أتشيث بالميازيب ، حتى استطعت أن أثبت على حافتها ، حيث أعانني الراهب على الهبوط .

جولة .. في عرين الأسد !

وسرنا وقد وضع كل منا ذراعه في ذراع الآخر ، حتى وصلنا إلى مكان معتم ، طوله ثلاثون قدما تقريبا ، وعرضه حوالى العشرين . وكان في نهايته باب موصل بمزلاج من الحديد ، ولكننا لم نجد كثير عناء في رفع هذا المزلاج ، ثم نفذنا خلال الباب إلى غرفة بها مائدة كبيرة ، صفت حولها المقاعد . وشعرت إذ ذاك بأن كل قواي قد نضبت ، فاتخذت من حزمة ثيابي وسادة ، واستلقيت على الأرض مستسلما للنعاس ، غير حافل باحتجاجات زميلي .. ولا أزال أذكر — رغم السنوات الطوال التي انقضت — مدى الراحة التي كنت أشعر بها عندما استيقظت أخيرا على هزات من الراهب الذي راح ينبهني في زعر إلى أن ساعة الكنيسة دقت معلنة الخامسة . وكان النوم قد فعل بي فعل السحر ، فإذا بي منتعش . يقظ المشاعر والفكر . ونهضنا نستكمل استطلاعنا ، وأنا مطمئن إلى أن قصر الدوقية لم يكن محفوا بحراسة دقيقة كتلك التي تحف بالسجن وتبث في أرجائه .

وأفضى بنا باب إلى سلم حجري هبطنا عليه إلى بهو وجدنا في طرفه سلما آخر هبطناه . فإذا بنا في قاعة فسيحة ، تنتهى بباب محكم الإغلاق ، تحايلت عبثا على فتحه ، فلم أجد بدا من أن أستعمل أداة الحفر — التى لم تفارقتنى — فى تحطيم بعض زجاج الطاقة التى كانت تعلوه (الشراعة) . وتسلفت والراهب إليها ، ثم هبطنا إلى الجانب الآخر ، بعد أن لاقينا الأمرين من بقايا الزجاج التى أصابتنى بجراح فى اليدين والقدمين والفخذين !.. ووجدنا سلما هبطناه ، فإذا بنا خلف باب كأنه الجبل .. وهنا ، جلست على آخر درجات السلم ، وقلت للراهب : « لقد أديت ما علىّ ، وبقي أن يفعل الله ما يشاء ! » .

وانفجر الراهب يمينى ويسينى بالتهور والجنون ، ولكننى انصرفت عن ثورته بتضميد بعض جروحي بمناديل من حزمتى ، فما لبثت أن بدوت فى مظهر سكير جرح فى مشاجرة أثناء الليلة السالفة .. أما « بالبي » فكان يبدو كفلاح « غشيم » !

أخيرا .. يلتقى بالحرية !

وكان لا بد من عمل .. أى عمل !.. وداخلى إيمان قوى بأن الله ما كان ليساعدنى حتى هذه المرحلة لكى يسلمنى ثانية إلى زبانية ديوان التفتيش ، لا سيما وأنتى كنت بريئا !.. ورحت فى حيرتى أذرع المكان ، ثم نهضت إلى نافذة فى البهو ، فتأملتها مليا .. وما لبثت أن عدت فأخرجت من الحزمة عباءتى الأنيقة وقبعتى الأسبانية المطرزة بالقصب ، والتى كانت تعلوها ريشة بيضاء ، وارتيديهما ، ثم سرت إلى النافذة فعالجتها حتى فتحتها وأطللت منها وأنا أصبح مناديا البواب .. وانتبه الرجل أخيرا ، فرفع رأسه نحوى ، وما أن

أبصر بالريشة يداعبها الهواء فوق القبة الأنيقة ، حتى أقبل مسرعاً إلى الباب ، وهو يقول : « يا لله !.. لا بد أننا نسينا أحداً من السادة داخل القصر حين أغلقناه أمس ! » .

وما إن فتح البواب المذهول الباب ، حتى استقبلته بضربة كنت قد استجمعت فيها كل ما بقى من قواى ، فانهار على الأرض مغشياً عليه ، بينما اندفعت أهبط السلم الخارجى ، غير حافل ببالى الذى لم ينفك يقول وهو يجرى فى أعقابى لاهثاً : « إلى الكنيسة !.. إلى الكنيسة ! » .. ولكننى بدلاً من أن أتجه إلى الكنيسة ، اندفعت مجتازاً ساحة القصر إلى القناة ، واتجهت إلى أقرب « جندول » فقفزت إليه آمراً النوتى بأن يسرع إلى (فوسينا) . ولحق بى الراهب خلال الوقت الذى استغرقه النوتى فى فك رباط قاربه . ولعلنا كنا نبدو كائنين من المهرجين ، بشيابنا المتناقضة .. ولكننى لم أعباً بمظهرنا ، فترشت حتى تحرك « الجندول » متجهاً إلى منتصف القناة ، ثم قلت للنوتى إننى غيرت رأيى ، وأمرته بأن ينقلنا إلى (مستريه) بأسرع ما فى وسعه . وهناك نقدته أجره من الجنبيين اللذين كنت اقترضتهما من الكونت إسكوين ، ثم استأجرت عربة . وإذ همت العربة بأن تتحرك بنا ، فوجئت بشخص يهتف باسمى .. والتفت وقد هامت نفسى ، وإذا برجل قمىء كنت أعرفه — يدعى « بالبو توماس » — يقبل على مصافحا وهو يقول : « ماذا تفعل هنا ؟.. هل فررت ؟ » .. واستجمعت كل رباطة جأشى ، وقلت فى هدوء : « ولماذا أهرب ؟.. لقد أطلق سراحى ! » !!

القدر يدفع الهارب إلى دار ضابط الشرطة !

ووكزت الحوذى ، فساط جواديه ، منطلقا بنا فى اتجاه (تريفيسو) فلما وصلنا إليها ، نزلنا فى فندق . وطلبت عربية أخرى . ولم أكن أنتوى فى الواقع استئجارها ، إذ لم تكن النقود التى بقيت معنا كافية ، ولكننى عمدت إلى هذا التظاهر للتمويه . وكنت أتضور جوعا ، غير أننى ادعيت الرغبة فى أن أتزهر فى الحقول قليلا ريثما تعد العربية ، ثم اصطحبت « بالبي » وغادرنا المدينة خلال بوابة القديس توماس ، وأوغلنا فى الحقول . وبعد نحو ساعة ، عرجنا على بيت قروى صادفناه ، فتناولنا طعاما شهيا . مقابل ثلاثين صولديا . ثم استأنفنا السير زهاء أربع ساعات ، فلما صرنا على بعد أربعة وعشرين ميلا من (تريفيسو) ، توقفت عن السير وقد استبدى الإرهاق ، وتورمت قدماى ، وآلتنى جراح ركبتى وفخذى .. ورأيت أن لا بد لى من التخلص من « بالبي » ، حتى لا أحمل همه فى هذه الظروف الحرجة . ومن ثم قلت له : « لا بد لنا من بلوغ (بورجودى فالسوجانو) ، وهى أول مدينة خارج حدود الجمهورية . ولكننى أرى من الحيلة أن لا نسعى إليها معا ، بل ليتخذ كل منا طريقه منفصلا عن الآخر ، لكى لا يسهل تعقبنا ! » .

وما أن اختفى « بالبي » عن بصرى حتى انخرفت عن اتجاهنا السابق ، وضربت فى أرجاء الريف ، فما لبثت أن أقبلت على قرية صغيرة . ولست أدرى ما الذى اجتذبنى إلى بيت أحمر صغير ، قائم فى طرفها ، فسعيت إليه . وصادفت راعيا فى طريقى ، فسألته عن صاحب الدار ، وكم كان ذعرى حين قال إنها دار ضابط بوليس القرية .. الدار الوحيدة التى كان يجب أن أتخاشها ،

لولا أنني كنت منجذبا إليها بحاسة غريبة لم أستطع أن أعرف كنهها ، ولم أملك أن أقاومها !

سجين .. في ضيافة زوجة الضابط !

ورأيت شابة جميلة أمام الدار ، وعلى مقربة منها طفل يلعب ، فسألتها في أدب عن زوجها ، وإذا به متغيب عن الدار ، فهتفت : « يالأسف !.. لقد جئت من سفر لكى أقابل زميلي » .. وصاحت السيدة : « زميلك ؟ !.. إذن فأنت السيد فيتورى .. كان زوجى يترقب وصولك .. وسيستاء إذا فاته لقاءك !.. تفضل على الرحب والسعة ، ولتبق ضيفنا حتى يعود ، فإنه استدعى — كما استدعى شرطة القرى جميعا — للاشتراك فى البحث عن سجينين هربا من « سجن الرصاص » . ولكن .. مالركبتك ؟ » .. وأدركت أن الله كان فى عونى ، وإلا ما دفعنى إلى دار كان أهلها يترقبون زائرا لا يعرفون شكله !

.. ومضيت أجيب عن سؤال السيدة ، باختلاق قصة عن أرنب جبلى صادفته فى طريقى ، فراق لى أن أصيده . وفيما كنت أطارده ، انزلقت على الصخور فأصبت بتسلخات وجروح .. وهتفت الشابة الحسنة : « يا للمسكين !.. تعال لتعنى أُمى بجراحك ! » .

وجلست فى مقعد وثير ، بينما راحت الشابة تعد لى طعاما شهيا ، وانهمكت أمها فى تضميد جراحى . وما أن ارتحت من آلام الجراح ، وملأت معدتى حتى غلبنى النوم ، فلم أستيقظ إلا فى ضحى اليوم التالى . وأسرعت بارتداء ثيائى ، وهبطت مسرعا إلى الطابق الأرضى ، فلم أجد المرأتين فى

طريقي ، ولكنى رأيت لدى الباب رجلين بدا من مظهرهما أنهما من الشرطة .
وأجفلت ، ولكن النوم كان قد شحذ حواسي وجرأتني ، فانطلقت من بينهما
إلى الخارج في ثبات ، ووجدتني مضطرا إلى مواصلة السير ، راحلا عن القرية
دون أن أشكر مضيفتي الجميلة !

وظللت سادرا في سيري خمس ساعات ، ثم مررت بكنيسة .. وكان اليوم
يوم عيد ، والقرويون يقبلون أفواجا للصلاة ، فاندسست بينهم . وفيما كنت
أغادر الكنيسة ، أحسست بيد تمس كتفي ، فالتفت مذعورا لأجد نفسى أمام
« مارك أنتولى جريمانى » ، ابن أخ الرجل الذى كانت أمى قد أقامته يوما وصيا
على .. وهتف السيد : « أهذا أنت يا كازانوفا ؟ .. وأين زميلك ؟ »

النساء أوفر خيرا من الرجال !

وأجبت لفورى : « لقد أعطيته كل ما كان معى من نقود ، وانفصلنا . ولو
أنك أسديت لى يد المساعدة الآن ، لأمكننى أن أدبر أمورى ! » .. ومع أنه
رفض أن يساعدنى ، إلا أنه طمع فى أن أروى له تفصيلات فرارى من
السجن ، الأمر الذى أحنقنى وجعلنى أعرض عنه ساخرا . وقد علمت فيما
بعد أن زوجته أنبته أقذع تأنيب لما أبداه لى من جمود .. ولا عجب ، فإن الخير
لدى النساء أوفر منه لدى الرجال !

وواصلت سيري حتى غربت الشمس ، وبرح لى التعب والإرهاق
والجوع ، فلم أجد بدا من أن أعرج على بيت منزل ، متواضع المنظر ،
وسألت حارسه عما إذا كان بوسعى أن أقابل رب الدار ، ولكنه قال إن سيده
قد رحل ليحضر حفلة عرس ، وإن أوصاه بأن يكرم من يفد أثناء غيابه من

أصدقاء!.. وهكذا حالفتنى الحظ مرة أخرى ، فوجدت عشاء شهيا ، وفراشا
وثيرا .

وتناولت غدائي — فى اليوم التالى — فى دير صادفته فى الطريق ، حتى إذا
كان الأصيل ، وجدتنى عند قصر كان صاحبه من أصدقائى . وقادنى الخادم
إلى غرفة المكتب ، حيث كان صديقى منعمكا فى الكتابة ، فما أن رآنى حتى
هوى القلم من بين أصابعه ، وأمرنى بأن أغادر قصره فى الحال . ولكنى سألته
أن يقرضنى ستين دينارا مقابل وثيقة تمكنه من أن يحصل على المبلغ من السيد
« براجادان » — أبى الروحى — غير أن صديقى صارحنى بأنه لا يستطيع أن
يقدم لى أى عون ، خشية أن يجلب على نفسه غضب « ديوان التفتيش » !

مساعدة .. بالقوة !

وغاظبنى مسلكه .. ولما كان شيخا فى الستين من عمره ، ضعيفا ، فقد
أمسكت بخناقه ، وهددته بالقتل إن لم يبادر إلى معونتى ، ففتح درجا مليئا
بالذهب ، وسألنى أن آخذ منه ما أشاء .. ولكننى قلت له : « أعطينى ستة
دنانير ! » . فقال : « ولكنك كنت تطلب ستين ! » . فقلت : « أجل ، كنت
أطلبها كقرض من صديق . أما الآن فأنا أطلب ستة فقط ، لأننى أحصل على
مساعدتك بالقوة ، ولن أعطيك وثيقة فى مقابلها .. على أننى أعدك بأن هذا
المبلغ سيرد إليك فى البندقية .. فسوف أكتب لولى أمرى كى يدفعها لك ،
وسأنبهه بخستك ونذالة مسلكك ! » .

وقضيت ليلتى فى كوخ أحد الفلاحين ، حتى إذا كان النهار التالى ، ابتعت
بزة — « ردينجوت » — قديمة ، وحذاءين ، واستأجرت حمارا .. ثم انطلقت

فى طريقى . وما لبثت أن استبدلت بالحمار عربية وجوادين .. وتابعت رحيلى إلى (يورجو دى فالسوجانو) ، حيث وجدت « بالبى » ، زميلى الذى فر معى من السجن .. ولو أنه لم يبادرنى بالحديث لما تسنى لى أن أعرفه .. فقد كان فى زى ركوب الخيل ، وعلى رأسه قبعة غيرت من مظهره . وذكر لى أن فلاحا أعطاه هذه الثياب فى مقابل المعطف الذى كنت قد نزلت له عنه !

كازانوف . فى إمارة بافاريا !

ونزلت فى أحد الفنادق ، فلزمت غرفتى يومين ، انصرفت خلاهما إلى كتابة الرسائل إلى معارفى فى (البندقية) ، أناشد كلا منهم أن يرسل لى نقودا ، ورويت لهم جميعا قصة ذلك الشيخ الخسيس الذى أبى أن يقرضنى . ثم سعت إلى (بولزان) حيث لجأت لصديق قديم « أقرضنى » خادما أوفدته إلى السيد « براجادان » ، فعاد إلى بعد ستة أيام يحمل مائة دينار . ومن ثم أسرعت بشراء ثياب لى ولزميلى ، ثم رحلنا إلى (ميونيخ) حيث نزلت فى فندق التقيت فيه بصديقة قديمة من معارفى ، هى « كونتة كوروينى » التى كانت ذات حظوة فى بلاط أمير بافاريا ، والتى حدثت الأمير بشأنى ، فقال لها إنه لا يرى ما يمنع من أن أقيم فى بافاريا . ولكنه أبى أن يأوى فى إمارته زميلى « بالبى » لأنه كان راهبا ارتد عن الرهبنة ، فخشى الأمير أن يثير نائرة الكنيسة عليه إذا أواه . ولهذا زودت « بالبى » بكل ما كان فى حاجة إليه ، وأعطيته رسالة توصية إلى أسقف (سان مورتيز) ، ثم ودعته وأنا مغتبط للمخلص منه !

وكانت صحتى قد تأثرت كثيرا ، كما أننى أصبت بتوتر عصبى أزعجنى ، ومن ثم حرصت على أن ألتزم الراحة التامة لمدة شهر ، عنيت خلاله بعلاج

نفسى ، فسرعان ما استعدت صحتى . وفى تلك الأثناء ، وفدت على (ميونيخ) مدام « ريفيير » وأسرتها ، وكانوا من أصدقائى فى البندقية . وإذا كانوا معتزمين الرحيل إلى باريس ، حيث تزف ابنتهم الكبرى ، فقد دعونى للرحيل معهم . وكنت فى تلك الفترة قد تلقيت مزيدا من المال — من البندقية — فرحلت مع الأسرة فى عربتها الفخمة المريحة .

فى قصر الملك .. بباريس !

ووصلنا إلى باريس فى الخامس من يناير سنة ١٧٥٧ ، فذهبت فور وصولى إلى صديقى « باليتى » الذى تلقانى فى اغتباط عظيم ، إذ كان فى قلق بعد أن قرأ نبأ فرارى من السجن ، وأدرك أن لا سبيل لى إلى البقاء فى البندقية أو على مقربة منها .. وكم كان فرح أسرة صديقى بى ، وتفانيها فى إرضائى ! وهكذا عدت إلى باريس .. عدت إليها وقد عولت على أن أتخذها وطنا ثانيا ، بعد أن فقدت الأمل فى العودة إلى وطنى . وكنت قد عرفت المدينة كمسرح للهو والعبث ، ولكننى فى هذه المرة اعتبرتها ميدان جهاد للوصول إلى مركز مرموق . وكان لا بد من أن أستغل كل مواهبى الجسدية والعقلية ، وأن أتعرف إلى علية القوم من ذوى النفوذ ، وأن أنال لديهم الحظوة . وعاهدت نفسى على أن يكون التحفظ هو السلاح الذى أعتمد عليه .

ولم أشغل بالى كثيرا بالمال ، إذ وعدنى السيد براجادان الكريم بأن يمدنى بما يساوى مائة جنيه فى كل شهر .. ومن ثم مكثت أتحين الفرص ، ورحت أروى قصة فرارى فى كل مجلس . ثم كتبت خطابا إلى « قصر بوربون » أطلب الحماية ، فتلقيت — فى الساعة الثامنة من الصباح التالى — دعوة إلى هناك . وأسرعت

ألبها ، حيث استقبلنى مسيو « دى بيرنى » — أحد رجال الملك — مرحبا بى ، وذكر لى أنه سمع عن مغامرة فرارى من السجن الرهيب ، فوعده بأن أسجلها له فى إسهاب .. وعندما استأذنت فى الانصراف ، دس فى يدى لفافة من الأوراق المالية ، أنفقتها فى شراء ثياب تليق بى ، ثم كتبت قصتى خلال الأيام الثمانية التالية ، وحملتها إلى السيد « دى بيرنى » ليطلع منها ما شاء من النسخ ، يوزعها على كل من يرى أن يوسعها أن يكون ذا نفع لى !

الطيور على أشكالها تقع !

وبعد أسابيع ثلاثة ، أنبأنى السيد « دى بيرنى » بأنه تحدث فى شأنى مع سفير البندقية فى باريس ، وأن الرجل لم يجد فى فرارى أى تثريب ، لأن السلطات المدنية فى البندقية لم تكن ذات مصلحة فى اعتقالى أو فرارى ، ولكنه آثر أن لأزوره ، حتى لا أثير عليه غضب رجال « ديوان التفتيش » واستقر بى المقام فى باريس ، وبدأت الأيام تبتسم لى ، إذ اشتركت فى مشروع ناجح . فلما كان شهر مارس ، وفد على باريس نبيل من نبلاء روما حرص على لقائى ، ليسلمنى الأوراق الخاصة التى كنت قد تركتها وديعة لدى صديقتى « السنيورا مانزوتى » قبل سجنى .. وكان الرسول شابا لطيفا يدعى « الكونت دى تيريتا » . وقد قدمنى إلى سيدة تقيم فى باريس ، وتزعم أنها أرملة ابن أخت البابا .. وكانت تدعى مدام « لامبرتيني » . ولكننى ما لبثت أن عرفت أنها أفافة من تاجرات الهوى ! .. ولم يمض وقت على استقرارنا فى دارها ، حتى وجدتها تخلو إلى صديقى فى ركن من الحجرة ، فانصرفت أنا الآخر إلى حسناء قدمتها السيدة على أنها ابنة أختها ! .. والحق أننى لم أعامل الفتاة — وكانت تدعى

مدموازيل دى لامور — بكثير من التوقير .. فما كنت أتصور قط أن مدام « لامبرتيني » تأوى فى دارها فتاة طيبة !

حسناء .. و ٧٥٠٠٠ فرنك !

وتوثقت الصلات بينى وبين مدموازيل « دى لامور » ، حتى انقلبت إلى حب متأجج ! .. وعشت فى نعيم حالم ، إلى أن استيقظت منه ذات يوم على رسالة من حبيبتي ذكرت فيها أن عمتها كانت تحاول أن تزوجها من تاجر غنى من أهل (دانكرك) لا تعرف عنه شيئا ، بل إن عمتها نفسها لم تعرفه إلا عن طريق امرأة ممن يهدون الزيجات للناس (خاطبة !) . واستطردت الفتاة تقول فى رسالتها : « .. فإذا كان ما جرى بيننا لم يحط من قدرى فى نظرك ، فإننى أعرض نفسى عليك زوجة ، وأحمل إليك صداقا عاجلا (دوطه) قدره خمسة وسبعون ألفا من الفرنكات .. فضلا عما سوف أرثه إذا ما ماتت عمتى ! » وهزت رسالتها فؤادى ، ولكن فكرة الزواج أزعجتني كالمعتاد ! .. ولم يكن أمامي سوى أربعة أيام للبت فى الأمر ، ولكن هذه المهلة القصيرة كانت كافية لأن تقنعني بأن حبي للفتاة لم يرق إلى درجة الزواج !

مع « العريس » المنتظر !

وما لبث التاجر المرشح للزواج من « دى لامور » أن أقبل على باريس ، فدعتنى مدام « لامبرتيني » إلى تناول العشاء فى دارها احتفالا به . وبعد أن سمرنا قليلا ، استأذن الرجل فى الانصراف ، فدعته ربة البيت إلى العشاء فى

الليلة التالية ، وأوعزت إلى الفتاة أن تلحف عليه في القبول ، حتى إذا انصرف ، سألت مدام « لامبرتينى » ابنة أخيها عن رأيها في الرجل ، فقالت : « أرجو أن تعفينى من الإجابة في الوقت الحاضر ، وأمهلينى إلى غد . فإذا أقبل للعشاء ، فأجلسينى بجواره ، واسمحى لى أن أتحدث إليه في طلاقة ، إذ أن الرجل قد يعجب بمنظر المرأة ، ولكن حديثها قد يسقمه ويقضى على إعجابه ! » . وانصرفنا إلى لعب الورق ، فألهانا سعار المقامرة عن الوقت . وعندما انتبهنا إليه ، كان الليل قد اكتمل . ولما كانت الدار في ضاحية متطرفة ، فقد قبلت في سهولة الدعوة إلى قضاء الليلة في ضيافة مدام « لامبرتينى » ! .. وما أن خلوت إلى نفسى في غرفتى ، حتى فتحت الباب ، وأقبلت الحسنة في نفس الثوب الذى كانت ترتديه في السهرة .. وسألتنى في اقتضاب : « هل أقبل الزواج من الرجل ؟ » .. وأدركت ما كانت تبغى .. لقد أرادت في حزم أن تعرف رأيى ، لتتخذ قرارا نهائيا بشأن علاقتنا !

وقلت مراوغا : « هل ارتحت إليه ؟ » .. فأجابت : « المهم في الأمر هو أننى لم أشعر بنفور منه ! » . فقلت « إذن ، وافقى على الزواج ! » .. وكان جوابها : « حسنا ، وداعا .. يجب أن ينتهى حبنا في هذه اللحظة ، وتبدأ مرحلة صداقة فقط ! » .. فقلت في رجاء : « أرجئى هذه اللحظة إلى غد ! » .. فقالت : « لا ، ولو كان في ذلك عمر جديد لى . فإذا كان مقدرالى أن أصبح زوجة لرجل غيرك ، فخليق بى أن أعد نفسى لأكون أهلا له .. ومن يدري ، قد أحظى معه بسعادة تفوق كل ما تذوقت ! » .

وتحركت عواطفى ، فقلت متوسلا : « إذن قبلينى ! » .. ولكنها أجابت قائلة : « لم يعد من حقلك أن تنشد قبلاقى ! » وكانت الدموع تنهمر من عينيها ، فأمسكت بها .. ولكنها هتفت : « دعنى بالله ! » .. فقلت مشفقا : « ولكنى لو

تركتك فسوف تستغرقى فى البكاء وحيدة فى غرفتك .. يا لحيرتى ويأسى ..
امكثى وسأ تزوجك ! » .. وإذ ذاك رفعت رأسها فى شمم وقالت : « لا ، لست
أقبل هذا الآن .. لو أنك كنت تحبنى لما انتظرت حتى الآن ، وما عرضك الآن
سوى إشفاق .. ولست أقبل أن أفرض نفسى عليك عن طريق الإشفاق ! »

قلب العاشق .. بين الحسرة والغيرة !

وأفلتت منى وغادرت الحجرة ، فلم أجسر على أن أتبعها . ولم أتم فى
الساعات القلائل التى تبقت من الليل ، بل رحت مسهداً أعانى من مشاعر
عدة : كانت هناك حسرة بعثها شعورى بأننى سأفقد هذه الحسناء الشبية ..
وكان هناك إشفاق لشعورى بأننى صدمت عواطفها بعد مبادرتى للزواج منها
رغم حبها لى .. وكان هناك ندم لأننى أوهمتها بأنى أحبها .. وأيقظت أحلاما
جميلة فى نفسها .. وكان هناك خذى وخجل من موقفى ، بعد أن غررت
بعواطفها ! وعندما طلع النهار ، غشى النوم عيني ، فلم أستيقظ إلا بعد الظهر .
وأصرت مدام « لامبرتينى » على أن أبقى إلى وقت العشاء .. وما أن رأيت
« دى لامور » إلى جوار خطيبها التاجر — عندما ضمنتنا المائدة فى المساء —
حتى استعرت نيران الغيرة بين ضلوعى ! .. وبدأت غريزة حب التملك توحى
إلىّ بأننى كنت أحب الفتاة ، ثم راحت تنفخ فى هذا الحب حتى بدا كأنه يملأ
كل حياتى .. فلما أعلنت الحسناء فى نهاية المأدبة أنها ستزف إلى التاجر بعد
ثمانية أيام ، ثم ترحل معه إلى (دانكرك) ، خيل إلىّ أننى أوشك أن أخرج
صريعاً !

كاد يقتل رجلا بغير ذنب !

لست أدري كيف انصرفت من الدار .. كل ما أدريه هو أنني لم أكد أستقر في دارى ، حتى عكفت على كتابة أروع رسالة سطرها قلمي .. ولكن الحسنة اقتصرت في ردها على إبداء رجائها بأن لا أكتب لها بعد ذلك اليوم ! .. وإذ ذاك خيل إليّ أنها أحببت التاجر بالفعل ، فتحالف هذا الظن مع الفكرة التى تملكتنى وأوحت إليّ بأنى أحبها ، وراحا يزينا لى أن أناضل من أجل قلبى .. وداخلنى ميل إلى أن أقضى على الرجل !

ووسوست لى الحيرة بأن أذهب إلى الرجل فى فندقه ، فأصارحه بكل ما كان بينى وبين الفتاة حتى ينصرف عنها ويتركها لى .. فإذا أبى ، فلأدعه إلى المبارزة ! .. ولم ألبث أن ذهبت بالفعل ، وقد حملت فى جيبى غدارتين ! .. واضطرت لأن أنتظر حوالى ربع الساعة ، إذ كان الرجل نائما . على أنه أقبل بعد ذلك — بتياب النوم — فما أن رآنى حتى احتضننى فى ود ، وراح يرحب بى فى اغتباط .. وفوجئت بحقدى ينفث ، وبروح العداء تتبخر .. وتبددت النوبة الجنونية ! .. وما زلت حتى اليوم أشعر بالخزى والهوان ، كلما تمثلت كيف أننى كنت مقدما على التصرف كوغد نحسيس !

صوت .. من أعماق الماضى

ولم أمكث فى باريس أكثر من أيام بعد زواج « دى لامور » ، ثم قررت أن أغادر فرنسا بأسرها ، فذهبت إلى (جنيف) .. وهناك نزلت فى فندق « ديه

بالانس» وما أن لذت بغرفتي ، وتخلصت من وعشاء السفر ، حتى رحت أفكر فيما أفعله في المدينة .. وقمت إلى النافذة أسرح النظر خلالها لأشاهد فكري ، فإذا بنظري يقع على لوح من زجاجها ، حفرت عليه — بالماس — هذه الكلمات : « لن تنسى هنرييتا » .

وأحسست بالدنيا تدور بي عندما تذكرت اليوم الذي كتبت فيه . « هنرييتا » هذه الكلمات لي .. ولي وحدي !.. وقفزت بي الذكرى ثلاث عشرة سنة إلى الوراء في لمح البصر .. تذكرت الحسنة المجهولة التي كانت متنكرة في زي ضابط شاب ، وفي صحبته ضابط نمسوى مسن كان موفدا من إمبراطورته إلى البابا .. وذكرت كيف أن العلاقات توطدت بيني وبينها حتى اكتشفت أن الضابط الشاب لم يكن سوى فتاة .. واستطعت أن أكسب قلب الفتاة أثناء رحلة جمعتنا ، ثم رافقتها إلى (جينيف) . وهناك ، بدأت أفهم أن الفتاة كانت من أسرة فرنسية عريقة ، وأنها كانت على موعد في (جينيف) مع كبير من رجال بلاط ولي عهد أسبانيا — الذي كان متزوجا من ابنة ملك فرنسا — لتسوية بعض شئون عائلية .. وإذ تمت التسوية بالطريقة التي أرضت الفتاة ، رأت أن لا بد لنا من أن نفترق . وبعد ليلة ليلاء ، نقشت بماسة خاتمها تلك العبارة على نافذة الغرفة التي قدر لي أن أنزل بها مرة أخرى ، بعد ثلاث عشرة سنة : « لن تنسى هنرييتا » !

الذكريات .. تطهر نفس كازانوفاً !

وتدفقت الخواطر على رأسى ، وانبثقت المشاعر جياشة فى فؤادى ..
« هنريتا » .. الفتاة الجميلة ، الرقيقة ، النبيلة ، الصادقة العاطفة !..
« هنريتا » ، التى أحببتها بكل قلبى .. ترى أين هى الآن ؟ .. قط لم أسمع عنها
منذ افترقنا ، بل إننى كنت من الجحود بحيث لم أحاول أن أستفسر عن حالها أو
أسأل عن مصيرها !.. ورحت أقارن بين نفسى وبين نفس كاتبة تلك
الكلمات ، فشعرت بأننى أقل منها وفاء ونبلا .. بل إننى غدوت الآن شخصا
آخر غير الذى عرفته « هنريتا » منذ ثلاث عشرة سنة .. غدوت شخصا
تخفف — إلى درجة ليست بالضييلة — من المثل العليا ومما كانت تضفيه على
النزوات من شاعرية تجعل الحب فنا ممتعا ، لا مجرد غزوات خسية . وخيل
إلى أننى تطهرت — فى فيض الذكريات — من الأوشاب التى علقت بى
خلال السنوات الطويلة الماضية ، وإننى عدت كما كنت حين التقيت بهنريتا
أول مرة !.. وكأنا أوحى إلى ذلك بأننى عدت أهلا لأن أسعى إليها ، ورغم
أنها ناشدتنى — عند افتراقنا — أن لا أحاول الاتصال بها ثانية !
وبعد تفكير طويل ، أدركت أن بالى لن يهدأ ، وقلبى لن يسترد طمأنينته
حتى أعرف ما جرى لهنريتا خلال هذه الأعوام الطويلة .. ورحت أرسم
خطتى لاكتشاف طريق لتحقيق هذه الرغبة !.. على أننى ، وقد تطهرت ، لم
أكن لأغادر (جينيف) دون أن أزور « كاهنها » الأكبر .. كاهن الحكمة
والفكر .. « فولتير » !

فى مجلس « فولتير » !

ولم يكن دخول دار « فولتير » بالمهمة الشاقة .. فقد كانت الدار — كأى معبد — مفتوحة للجميع .. وكان مجلسه يضم زائرين أقبلوا من كل بلد .. فكان بينهم ، إنجليز ، وفرنسيون ، وإيطاليون ، وسويسريون .. وقال « فولتير » حين عرف أننى من البندقية : « لا بد أنك تعرف كونت « إلجاروتى » .. فقلت : « لقد تعرفت إليه فى (بادوا) منذ سبع سنوات ، وكان أروع ما اجتذبنى إليه هو ترديده أهازيج الإعجاب بالسيد فولتير ! » .. فقال : « إنك تتملقنى ! » .. وتطرق بنا الحديث إلى الأدب والأدباء والشعراء فى فرنسا وإيطاليا . وإذ عرف « فولتير » أننى أحفظ الشعر وأنظمه ، راح يذكر أنه كان قد تحامل على الشاعر الإيطالى « أريوستو » ، وكتب مقالات كثيرة فى نقده ، ولكنه ما لبث أن أحبه وندم على ما كتب . وراح يردد من الذاكرة بعض أشعار « أريوستو » . وفى اليوم التالى ، قدم لى ترجمة وضعها لهذه الأشعار . وسألتنى مدام « دنييس » ابنة أخت فولتير — عما إذا كان خالها قد اختار — لترجمته — أبدع أشعار « أريوستو » ، فقلت : — أجل يا سيدتى .. ولكنها ليست أروعها .. إن أروع ما نظم « أريوستو » هو ستة وثلاثون بيتا من شعر فى وصف الجنون ! وسألتنى السيدة أن ألقى على مسامع الحضور تلك الأبيات ، فانطلقت ألقيا بصوت مؤثر ، حتى إذا فرغت منها ، رأيت الدموع فى عيون الجميع .. حتى مسيو « فولتير » ! .. وحين علم أننى راحل عن (جينيف) فى اليوم التالى ، أبى أن يقرنى على ذلك ، وسألنى أن أطيل مقامى ثلاثة أيام أخرى على

الأقل ، على أن أتناول العشاء على مائدته في كل ليلة !

كان فولتير يمنح الناشرين إنتاجه !

وخففت إلى دار « فولتير » عند غروب شمس اليوم التالى .. وكان فى الحديقة عند وصولى ، فأمسك بذراعى وقادنى إلى نهر كان يجرى عند الطرف الأقصى من الحديقة . وأشار إلى النهر قائلاً فى زهو : هذا هو الرون .. النهر الذى أبعث به إلى فرنسا هدية منى ! .. هكذا كان فولتير ، مزهواً ، فخوراً ، محباً للإطراء والتمجيد .. وإن لم ينل هذا من عبقريته ونبوغه ! ولحق بنا فى الحديقة بعض من كانوا يترددون على الأديب العظيم .. ولكنه ما لبث — بعد فترة — أن دعانى إلى مخدعه ، حيث استبدل بطاقةية الشعر المستعار التى كان يرتديها ، بطاقةية أخرى .. وفتح صواناً رأيت فيه أكواماً من الورق المنظم ، وقال : « فى هذا الصوان حوالى خمسين ألف خطاب ، وقد أجبته عنها كلها ! » .

— وهل احتفظت بنسخة من كل رد ؟

— إننى أترك هذه المهمة لخادمى ، فهو يحرص على أن ينسخ الرسائل التى أكتبها .

— كم من ناشر على استعداد لأن يدفع الكثير فى سبيل هذه التحف ! — هذا صحيح ، ولكن ، كن على حذر من الناشرين إذا شئت أن تنشر شيئاً ، لا سيما إذا لم تكن بعد معروفاً ، فهم إذ ذاك يغدون أخطر من القراصنة ! ثم عدنا إلى قاعة الجلوس ، حيث راح « فولتير » يعرض طرائف من ذكائه وخصوبة فكره ، وخفة فكاهاته ، وبهجة روحه .. كان إذ ذاك فى

السادسة والستين من عمره ، يعيش على دخل قدره مائة وعشرون ألفا من الفرنكات في العام . ولقد ظلمته الشائعات إذ زعمت أنه أثرى عن طريق غشه للناشرين ، فالواقع أن الناشرين هم الذين خدعوه وأثروا بفضل كتاباته ! .. ولم يكن يعنى بالمال قدر عنايته بالشهرة ، حتى إنه كان في كثير من الأحيان يقدم كتبه دون مقابل ، على شريطة أن تطبع وأن تروج بين الناس . وقد شهدت بنفسى منحة من هذا القبيل أثناء وجودى في مجلسه .. وكان الكتاب الذى قدمه منحة يتضمن قصة بديعة أسماها « أميرة بابل » .. وقد وضعها في ثلاثة أيام فقط !

« سجق » من بولونيا .. لفولتير !

تناولت غداى في اليوم التالى على مائدة « فولتير » ، وكانت هذه المائدة مهسوبة دائما لكل ضيف . ولم يشاطرنا الكاتب الكبير الغداء ، ولكن مدام دنيس — ابنة أخته — استطاعت أن تسد الفراغ الذى تركه .. فقد كانت موفورة الذوق واللباقة والذكاء . وما لبث « فولتير » أن ظهر في « الصالون » حوالى الساعة الخامسة مساء ، وفي يده رسالة ، وبادرنى قائلا :
— أتعرف المركز ألبيرجانى كاباشيللى ؟ .. لقد أرسل لى نسخة من مسرحيات جولدونى ، وقدرا من « سجق » بولونيا ، وترجمة بالإيطالية لمسرحية « تانكريد » التى وضعتها منذ عهد قريب ! .. هل تعرف جولدونى ؟
فقلت : « إنه مولير إيطاليا ! .. على أنه لا يجيد شيئا سوى تأليف مسرحيات فكاهية جيدة .. وفيما عدا هذا فهو .. لا شيء ! »
وبقيت بقية ذلك اليوم في صحبة « فولتير » ، فعرفنى براهب يسوعى

يدعى « آدم » . ولم ينس أن يهمس فى أذنى وقد ألحت عليه روحه الساخرة :
« ولكنه ليس الرجل الأول ! » .
وعلمت أن « فولتير » كان يأنس إلى ذلك الراهب ، وأنه كان يلعب معه
« الضامة » .. وكان إذا انهزم فى اللعب ، أفرغ قطع اللعبة على رأس الرجل !

« فولتير » .. يدافع عن حرية الشعوب !

و كنت أطمع فى أن أقضى وقتا طيبا مع الفيلسوف الكبير فى اليوم التالى ،
ولكننى ألفتته فى أسوأ طباعه ، فكان لاذع السخرية ، شرسا ! .. ومع أنه كان
يعرف أننى راحل عن (جينيف) فى اليوم التالى ، إلا أنه لم يشأ أن يعفينى من
تهكمه وسوء طباعه فى ذلك اليوم . فقد أخذنا نتحدث عن الأدب والشعر
والفلسفة فى مختلف الأمم والعصور ، وإذا بنا نتطرق إلى ذكر « هوراس »
— بطل مسرحية كورنى المشهورة بهذا الاسم — فقال :
— لو أنه انبرى لمكافحة أنخطبوط الوهم والخرافة ، كما فعلت أنا ،
لأصبحت آراؤه وأقواله صالحة لكل أمة وبلد فى الدنيا !
ووجدتنى أقول له : « خليك بك أن تعفى نفسك من عناء الصراع ضد
شئ لن تقوى على القضاء عليه ! »
— بل خليك بى أن أمضى فى الصراع حتى نهاية الأجل . فإذا لم أوفق ،
فسوف يأتى غيرى يتمم العمل بعدى ، ويظل لى الفخر لأننى كنت الأول فى
السعى !

ومضى يصور الوهم والخرافة فى صورة الوحش الذى ينهش كيان
الإنسانية ، وصاح : « إن الوهم والخرافة لا يمكن أن يسيرا مع الحرية جنبا إلى

جنب . أفترى أن الاستعباد يمكن أن يحقق السعادة للناس ؟ » .
وراق لى أن أستدرجه فى الحديث ليفضفض بآرائه ، فقلت له : « إذن
فأنت تصبو إلى تحقيق سيادة الشعب .. إذ أن حريته وخلاصه من الاستعباد
معناهما تغلب الشعب على خرافة سيادة سواه عليه ، فى رأيك ؟ » .
— إننا نختلف فى معنى السيادة .. فأنا أرى أنه لا بد للعامة من ملك
يحكمهم !

وكان « فولتير » قد تقاضى يوما معاشا من ملك فرنسا ، جعله يميل إلى
مداهنة الملوك فيما يبدو ، فقلت : « فى هذه الحال تغدو الخرافة ضرورية ، لأنها
هى التى تغرى الناس على أن يسلموا حكمهم إلى إنسان مثلهم يجعلونه
ملكا ! » . وكأنا فطن إلى ما كنت أرمى إليه ، فقال : « لا تتحدث عن
الملوك ! .. إن هذا الاسم يوحى بالاستبداد الذى أكرهه كراهيتى
للاستعباد .. إنما أريد « عاهلا » يحكم شعبا حرا ، ويرتبط مع هذا الشعب
بمواثيق متبادلة ، تحول دون انحرافه إلى الاستبداد ! » .

القوانين التى يضعها الشعب .. هى التى تقيده !

ورأيت أن أمضى فى استثارته فقلت : « ولكن إديسون — وهو كما تعلم من
خير فلاسفة الحكم — يرى أن وجود مثل هذا العاهل أمر مستحيل ، وإذا كان
الشعب مسوقا لأن يختار بين أمرين كلاهما شر ، فأظنك تسلم بأن من الخير أن
يختار أهون الشرين . إن الأمة التى تتحرر من الخرافة والوهم تصبح أمة
فلاسفة ، والفلاسفة لا يعرفون الطاعة ، فى حين أن الحكم لا يستقيم بغير
الطاعة .. لهذا أرى أن لا سعادة لشعب ما لم يتسن للحاكم إخضاعه وكبح

جماحه ! » .

وصاح فولتير مستنكرا : « هذا فظيع ! .. أوتزعم بعد هذا أنك من الشعب ؟ .. لو أنك قرأت مؤلفاتي ... » . فقاطعته قائلا :

— قرأتها مرارا ، لا سيما تلك الآراء التي اختلف معك بشأنها . إن العاطفة التي تستبد بك هي حبك للإنسانية ، وهذا الحب يعميك ! .. إن لك أن تحب الإنسانية ، ولكن .. كما هي الآن ! فالإنسانية لا تشعر بالخيرات التي تريد أن تغدقها عليها ، ومن ثم فإن هذه الخيرات لن تزيدها سوى شقاء وضلال ! .. إن الإنسانية تحب ذلك الوحش الذى ينهشها .. وحش الخنوع للملوك والحكام . ألا تذكر كيف ثار العبيد على « دون كيشوت » حين أشفق عليهم مما كانوا يلقونه من ظلم وأراد أن يحررهم ؟ !

— يؤسفنى أن تسيء الظن بأبناء جنسك إلى هذا الحد . هل ترى أنكم تنعمون بالحرية فى جمهورية البندقية ؟

— إننا ننعيم منها بالقدر الذى يرتجى من حكومة أرسقراطية ، فلسنا أحرارا بالمعنى المطلق ، ولكننا قانعون بما نستمتع به !
فقال فولتير يعيرنى ويذكرنى بما عانيته فى وطنى : « وهل ظلمت قانعا بعد أن زجوا بك فى سجن ديوان التفتيش ؟ »

— إننى أقر بأن سجنى كان استبدادا ، ولكننى فى الوقت ذاته أعترف بأننى أسأت استغلال حريتى ..

— ومع ذلك فقد عمدت إلى الفرار !

— كنت أتصرف فى نطاق حقوق ، كما تصرف الحكومة فى نطاق حقوقها !

— إن رأى الفاصل عندى هو هذا : أتج للشعب — فى كل مكان — أن

يضع قوانينه بنفسه أولا ، ثم قيده بهذه القوانين ، فلا تعتبر القيود إذ ذاك حدا من حريته !

ونهض « فولتير » منصرفا إلى مخدعه ، فانصرفت بدورى وأنا أسف ، إذ شعرت بأننى قد هبطت بهذا الفيلسوف من جنون العبقرية إلى واقعية العقل ! وفي اليوم التالى ، رحلت ميمما شطر الجنوب .

آراء امرأة .. تفتن كازانوفاً !

طففت فى رحلتى بكل من : (أفنيون) و (مارسيليا) و (نيس) و (جنوا) و (بيزا) .. ومكثت فترة فى هذه الأخيرة ، فتعرفت إلى إنجليزى باع لى عربته ، وقدمنى إلى شاعرة كانت تحظى إذ ذاك بصيت كبير .. تلك هى « كوريللا » ، التى ناقشتنى فى كثير من الموضوعات ، فلم يفتننى جمالها ، بقدر ما فتنتنى آراؤها ! وعندما وصلت إلى (فلورنسا) استأجرت حوزيا للعربة وخادما لى ، وألبستهما الزى الأزرق والأحمر الذى كان يرتديه لخدام ألى الروحى « براجادان » .. إذ تسلمت مبلغا كان هذا السيد الكريم قد أرسله لى عن طريق صديق له هناك . وفى مساء يوم وصولى ، ذهبت إلى دار « الأوبرا » . ولك أن تتصور مدى دهشتى واغبتاطى ، حين تبينت أن المغنية لم تكن سوى « تيريزا » .. الفتاة التى كانت تسافر مع أمها وأخويها ، وهى متنكرة فى زى غلام ، والتى التقيت بها فى سنة ١٧٤٤ فكشفت سر أنوثتها ، وكانت لى معها مغامرة سعيدة ، حتى أننى كدت أتزوجها لو لم أعتقل فى (بينسارو) .. أتذكر هذه الأحداث يا عزيزى القارئ ؟

كازانوف لا ينسى مغامراته قط !

ولم أكن قد رأيت « تيريزا » منذ سبع عشرة سنة ، ولكنها بدت لى أجمل من ذى قبل . وما أن انتهت من أغنيتها ، حتى رفعت رأسها تحيى رواد المقصورات .. ورأيت بصرها يعلق لى ، فلا يتحول عنى . حتى إذا همت بمغادرة المسرح ، أشارت لى بمروحتها ، فغادرت مكانى وقدراح قلبى يدق فى عنف ، ثم تسللت إلى ما وراء « الكواليس » ، حيث وجدتها واقفة فى انتظارى على قمة سلم صغير .. ووقف كل منا يحدق فى الآخر فى صمت ، لبضع لحظات ، ثم تناولت يدها فوضعتها على قلبى !.. وقلت : « هل تلمسين مدى شعورى ؟ » فقالت : « لقد خيل لى عندما رأيتك لأول وهلة أننى سأقع فاقدة الرشء على المسرح !.. لئننى لسوء الحظ مدعوة للعشاء الليلة ولكننى أعرف أن النوم لن يزور جفونى ، وأننى سأقضى بقية ليلى مسهدة !.. تعال إلى دارى فى الثامنة من صباح غد .. أين تقيم ؟.. وتحت أى اسم نزلت فى المدينة ؟.. ومنذ متى جئت ؟.. وإلى متى ستمكث ؟.. وهل تزوجت ؟.. !؟ .. اللعنة ، إنهم ينادوننى .. فإلى الغد ! » .

زوج الحبيبة القديمة .. مفلس وعاطل !

وتذكرت — بعد أن عدت إلى مقعدى — أنها لم تذكر لى الاسم الذى اتخذته فى حياتها الجديدة ، ولا عنوان دارها ، فالتفت إلى شاب كان يجلس بجوارى ، وسألته عن المغنية التى قامت بالدور الأول ، فرمقنى الشاب فى

عجب ، ثم قال : « آه ، يبدو أنك غريب عن فلورنسا ، وإلا لكان جهلك مشينا .. إنها تحمل اسمى يا سيدى ، فهى زوجتى .. وأنا أدعى « سيريللو باليس » .. فى خدمتك ! » .

وبهت للمفاجأة ! ولكننى أسرعرت أتمالك نفسى ، وانخيت تحية له ، ولم أشأ أن أسأله عن عنوانه ، خشية أن يرى فى الأمر ما يسوؤه . على أننى وجدت نفسى نهبا لألف خاطر وشعور .. إذن فقد تزوجت تيريزا ؟ .. ولقد كان زوجها شابا مليحا .. لكم كنت غبيا إذ قنعت بالمغامرات ، وهذه الحياة التى لا تستقر يوما ، وتركت « تيريزا » تفلت من حياتى !

وفيما كنت أبرح « الأوبرا » ، علمت من أحد الخدم أن فاتنتى تزوجت منذ عشرة شهور فقط ، وأن زوجها معدم ، لا يملك ثروة ولا عملا .. وأردف الخادم حين أحس بقطعة النقود التى دسستها فى يده : « ولكنها واسعة الثراء .. إن ثروتها تكفيها وتكفيه . كما أن لها سمعة تكفل لها الاحترام فى كل مكان ، فلا تدع الظنون تراودك بعد إذ علمت أنها زوجة لعاطل فقير ! » .

على أننى استطعت أن أعرف منه عنوانها .. رغم ذلك !

« الأب » .. السعيد أبدا !

لم تكد الساعة تعلن الثامنة من الصباح التالى ، حتى كنت أقف أمام دار أول امرأة أحببتها حبا حقيقيا .. وفتحت لى الباب خادما عجوز ، لم أكّد أذكر لها اسمى حتى دعتنى للدخول قائلة إن مولاتها ترتقب مقدمى ! وسرعان ما أقبل الزوج الشاب ، وهو بعد فى ثياب النوم ، فحيانى فى أدب ، وذكر لى أن زوجته لن تلبث أن تهبط ، ثم سدد بصره إلى وجهى وهو يقول : « إنك

بالتأكيد ذلك السيد الذى سألنى عن اسم زوجتى فى الليلة الماضية » .
فأجبت : « هذا حق يا سيدى ، فأنا لم أرها منذ سنوات بعيدة ، ولم أكن
أعرف أنها تزوجت .. وكان من حسن المصادفات أن أول شخص سألته عنها
هو زوجها . وإذا سمحت لى ، فلسوف يسعدنى أن أبسط لك نفس الود الذى
أكنه لها ! » .

وهنا أقبلت « تيريزا » ، ففتحت ذراعيها ، وتعانقنا طويلا كعاشقين طال
بهما الفراق . ثم جلست إلى جانبى وهى تبكى لفرط المشاعر التى تملكبتها ..
وكنت أنا الآخر أبكى ، بينما كان زوجها يرمقنا فى عجب . والواقع أننا لم
نفطن إلى وجوده إلا بعد أن هدأت عواطفنا ، وإذ ذاك انفجرنا ضاحكين ، ثم
هتفت « تيريزا » لزوجها ببراعة المرأة القديرة على السيطرة عليه :

— إنك ترى أمالك يا عزيزى رجلا كان لى بمثابة الأب بل أكثر من
الأب ! فأنا مدينة لهذا السيد الكريم بكل ما أنا فيه .. أواه ، يا للساعة السعيدة
التي جمعتنى به بعد هذه السنوات الطوال !

واتسعت مقلتا الزوج ، وعاد يتفرس فى وجهى . فقد أذهله أن تصفنى
زوجته بكلمة « أب » فى حين أننى لم أكن أكبرها بأكثر من عامين ، ورأيت أن
أوضح له الموقف ، فقلت :

— أجل يا سيدى ، إن زوجتك تيريزا ابنتى وأختى وأعز صديقة لى .. إنها
ملاكى وكنزى ، وإن كانت زوجتك !

والتفت إلى تيريزا معتذرا لعدم ردى على آخر رسالة بعثت بها لى ،
فقالت : « إننى أعرف السبب ، فقد سجنوك فى سجن القصدير على ما
علمت .. ولقد سمعت فى (فيينا) عن مغامرة الفرار الرائعة .. وسمعت الناس
يرددونها فى إعجاب فى فرنسا وهولندا . ولم أفقد الأثر الذى كنت أتتبع به

أنباءك إلا أخيرا . إنك ستدهش إذا رويت لك ما صادفت خلال السنوات العشر الأخيرة ، على أنني الآن فى أقصى مراتب السعادة .. وقد تزوجت من عزيزى « باليس » منذ وقت قصير ، وهو رومانى أصيل .. وكل منا يحب الآخر حبا جما ، وآمل أن تصبحا صديقين ! » .

.. فى غياب الزوج !

ونهضت إلى « باليس » فعانقته وهو مخرج ، مرتبك ، يشعر بالحيرة من أمر هذا الرجل الذى كان أباً وأخاً وصديقاً — وربما عشيقاً — لزوجته ! .. على أنه ما لبث أن تمالك نفسه بعض الشيء ، وتحول يدعونى إلى أن أتناول قدحا من « الكاكاو » معه ومع زوجته ، فلما قبلت الدعوة ، غادر الغرفة ليأمر بإعداد « الكاكاو » ، فما أن غاب عن أبصارنا ، حتى ارتمت « تيريزا » فى أحضانى ، وهى تهتف بى :

— أواه يا حبيبى العزيز ، يا من أيقظت قلبى فحفظت بالحب للمرة الأولى !.. ألا ضمنى إلى صدرك ، واضغطينى إلى قلبك !.. ولنكن غداً أخا وأختا ، أما اليوم فلنكن حبيبين ! لا تحسب أننى أبغى أن أخدع زوجى ، فأنا لا أزال أهواه ، ولكنى مدينة لك .. مدينة بحبى الأول ، فمن حقلك على أن أسدد دينى !.. ولكن ، مالى أراك حزينا ؟

— لأننى أجذك مقيدة بينا إنا طليق !.. لقد وصلت متأخرا ، ولكن ثقى أن إرادتك ستظل قانونا أخضع له ، فحدثينى عما تبغين أن أفعل . أفتريدين . ألا أشير إلى الماضى فى حديثى أمام زوجك ؟

— أجل ، فهو لا يعرف من شئونى أكثر مما يعرفه كل إنسان من أننى نلت

حظا وثروة وشهرة في (ميلان) ، التي زعمت أنني رحلت إليها وأنا في العاشرة من عمري . إنها أكذوبة بريئة لا تؤذى أحدا !.. ثم أن الكل يعرف أنني في الرابعة والعشرين ، أفتظنني أكبر من ذلك سنا ؟

— إنك لا تبدين أكبر من ذلك بيوم واحد ، وإن كنت أعرف أنك في الثانية والثلاثين !

— بل في الحادية والثلاثين ، فقد كنت في الرابعة عشرة عندما التقيت بك !

— بل يخيل لي أنك كنت في الخامسة عشرة !
وكان الجدال طريفا ، فكأننا طفلان يتشاوران في عبث مدلل . وأخيرا قالت الحبيبة الفاتنة : « حسنا .. فليكن ما تقول ، على أن يبقى هذا الأمر سرا بيننا .. ولكن نبئني : هل تراني أبدا في سن تزيد على الرابعة والعشرين ؟ »
— بل إنك تبدين أصغر من ذلك .

— والآن ، صارحنى يا حبيبى كازانوفا : أفأنت بحاجة إلى نقود ؟.. إننى فى مركز يسمح لى بأن أرد إليك ما منحتنى من قبل ، مع الفوائد !.. إننى أملك خمسين ألف دينار ذهبى فى (نابولى) ، وماسات بمثل هذه القيمة !.. قل ، وعجل ، فإن « الكاكاو » لن يلبث أن يصل !

و كنت أوشك أن ألقى نفسى على صدرها مرة أخرى ، حين أقبل زوجها تتبعه خادم تحمل صفحة فضية عليها ثلاثة أقداح

« كازانوفا » يجد له ابنا !

وفيما كنا نحتسى « الكاكاو » ، أشار « باليس » — مترفقا — إلى دهشته عندما تبين أن زائرهما لم يكن سوى نفس الشخص الذى سأل في الليلة السالفة عن اسم زوجته في دار الأوبرا .. وكان من الواضح أن أدبه منعه من أن يسألنى في صراحة عن ظروف معرفتى السابقة بزوجه ! .. وكان شابا في الثالثة والعشرين ، أوثق من الجمال أكثر مما يناسب الرجل . كما كان مرحا ، حلو المعشر ، فلم يكن فى وسعى أن أكرهه .. ولو أردت ! وعندما كانت الساعة العاشرة ، أقبل ممثلو وممثلات « الأوبرا » ليقوموا بتجربة للعرض الذى كانوا يزمعون أن يقدموه فى المساء ، فأكرمت « تيريزا » وفادتهم ، ولاحظت أنها كانت تتمتع بينهم بمكانة عظيمة الاحترام . وتخلفت منهم فتاتان جميلتان تناولتا الغداء معنا ، إحداهما تدعى « ريريچوندا » والأخرى « كورتيشيللى » . وكانت الثانية أكثر فتنة من الأولى ، ولكنى كنت مهورا بجمال « تيريزا » الذى أعشى عيني عن أن تتبيننا سواه !

وأقبل — بعد الغداء — راهب كان صورة حية للتناق . وفيما كان يجلس إلى جوار « تيريزا » ، تبينت أنه الأب « جاما » الذى تعرفت إليه من قبل فى (روما) .. وعرفنى هو الآخر ، فعانقنى ، وأخذ يروى لى أنباء الأصدقاء . وبينما كنت مستغرقا فى الإنصات إليه ، دلف إلى الغرفة فتى فى حوالى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره ، فحيانا وقبل « تيريزا » .. وبدأ أن الحضور عرفوه فيما عداى ، وإن لاحظت أننى لم أكن الوحيد الذى تولاه العجب لمراه . وكأنا لاحظت « تيريزا » ذلك ، فبادرت تقدمه لى قائلة : « هذا (مذكرات كازانوفا)

أخى !» .

ولكن هذا التفسير لم يبدد الدهشة ، فقد كان « أخوها » هذا صورة طبق الأصل منى ، وإن كانت بشرته أكثر بياضا .. ولم يكن من الغريب أن أعرف الفتى فى الحال ، فإن الطبيعة صاغته بحيث كان من غير المعقول أن لا أعرفه ، اللهم إلا إذا كنت أعمى ! .. أجل ، لم يكن من الغريب أن أدرك لفورى أن « أخاها » ليس سوى .. « ابنها » .. وابنى أنا الآخر ! ..

ثمرة المغامرة التى كدت أتزوج « تيريزا » وأنا منتش بعذوبتها ، فى لقائنا الأول !

وبدا لى أنه كان من الخلق بها أن تدبر مثل هذا اللقاء ، فى غير حضور كل هؤلاء الأفراد . وحاولت أن أتصيد نظراتها ، وأن أستلفت انتباهها ، ولكنها كانت تنفادى نظراتى ، بينما راح الفتى يتأملنى متفرسا ، غير منصت إلى ما كانت تقوله له من حديث . وأخذت نظرات الحضور تنتقل بين وجهى ووجهه . كان من الواضح لكل من أوتى ذرة من العقل ، أن الفتى ابنى ! وكان يجيد لهجة أهل (نابولى) ، ولكنه كان يتكلم الإيطالية بفصاحة كذلك .. وكان ملما بأداب الحديث ، لبقا . كما كان مسلكه بديعا .. وقالت أمه إن الموسيقى هى الهواية التى تملك عليه ليه ، وإنه يجيد العزف على « البيانو » الصغير ، حتى لبيزها .. واستطردت فى بساطة : « أجل .. إنه يتفوق علىّ رغم أنه يصغرنى بثمانية أعوام ! » .

ألا ما أبرع النساء فى التخلص من أخرج المآزق ! .. فلقد بدا فارق السن بين « تيريزا » وبين الفتى كافيا لأن يصرف أذهان الحضور عن التفكير فى أنه كان صورة منى .. ولعل أذهانهم اتجهت إلى علاقة أمها لى ! .. والمهم فى الأمر ، أنها نقلتنا بهذا الحديث إلى الموسيقى ، فصرفت الأذهان تماما عن الموضوع !

« دع لي ابني ! »

وما أن أتيح لي أن أدخل إلى « تيريزا » ، حتى هنتأ بها بأخيها ، فقالت :
— إنه ابنك ، وبهجة حياتي ، وقد رباه دوق « كاسترو بنياتو » ، فلعلك
تذكر أنه رعاني وتبناني بعد فراقنا .. فما أن ولد الفتى حتى أرسله إلى
(سورنيتو) حيث عمد باسم « سيزار فيليب لانتى » .. ومكث الصغير في
(سورنيتو) حتى بلغ التاسعة . وقد نشأ على أننى أخته ، ولكننى أتطلع دائما
في أمل إلى أن نلتقى ثانية — أنا وأنت — فتعترف بنسبه إليك ، وتتزوج من
أمه .

— ولكنك جعلت هذه الأمنية عزيزة المنال ، إذ تزوجت !
— أجل .. وأأسفاه ! هكذا أراد القدر !.. لقد ضمنت الفتى إلىّ عندما
مات الدوق ، وهجرت (نابولي) .. إن ابنك يمتلك عشرين ألف دينار
ذهبي ، كما أنه سيرث كل ما أملك إذا أنا لم أرزق من « باليس » بولد !
وقادتني إلى غرفة نومها ، حيث أطلعتني على خزانة بها بعض الماسات
واللآلئ والجواهر الثمينة ، فضلا عن طائفة من الصحف الفضية ، تمثل الشطر
الأكبر من ثروتها .

وقلت لها ضارعا : « أسلميني سيزارينو — فهكذا أحببت أن أدله —
ولسوف أريه الدنيا بأسرها »

— آه ، لا .. سلني كل حياتي ، ولكن دع لي ولدي . هل تتصور أننى لم
أقبله قط ، خشية أن ينم وجدى عن حقيقة علاقتي به !.. أرأيت إلى أى حد
أذهب في الحذر ؟ فماذا تظن الناس قائلين إذا رأوا « كازانوفا » يرافق صورته

الحية .. صورته كما كان منذ عشرين عاما ؟
— وهل ستأخذينه معك إلى البندقية عند افتتاح موسم الأوبرا هناك ؟
— أجل .. ولكن ، إلى أين تراك تقصد عند رحيلك من هنا ؟
— سأذهب إلى روما ، ثم إلى نابولي حيث أزور دوق مانتالونيا .

« كورتشيللى » .. الفاتنة الصغيرة !

وكان ذلك اليوم أسعد أيام حياقي — رغم كثرة الأيام السعيدة التى صادفتها ! — لا سيما حين جلس سيزارينو إلى البيانو يعزف ، مرسلا صوته بأغاني نابولى ، فأطربنا : أنا وتيريزا وزوجها . وكانت تيريزا لا ترفع عينها عنه ، إلا لتصوبهما إلى . على أنها كانت من وقت إلى آخر تتذكر زوجها ، فترمقه فى لطف ، وتقول : « لا سعادة إلا فى صحبة الأحباء » ! ودعوت جميع أصدقائي فى فلورنسا إلى مأدبة فخمة أقمتها فى الفندق الذى كنت أنزل فيه . وكانت « كورتشيللى » الحسنة — التى سبق أن ذكرتها — أول الوافدين ، تصحبها أمها وأخوها . وصارحتنى الأم العجوز قائلة : « إننى لا أسمع لابنتى قط بأن تحضر مأدبة وحدها ، بل لا بد أن أصحابها مع شقيقها ! » .. وغازلتنى قولها ، ولكننى كنت خبيرا بهذا الصنف من الأمهات ، فقلت لها : « تستطيعين أن تنصرفى بها توا .. أو خذى هذا الدينار الذهبى وانصرفى مع ابنك ، لأننى لا أريدك ! » .. وتناولت العجوز الدينار ، وانصرفت فى الحال قائلة إنها جد مطمئنة إلى أن ابنتها بين يدين أمينتين ! ..

وأخذت الفتاة تعلق على تنصرف أمها — بمجرد أن ولت عنا — بنكات لازعة أضحكتنى وجعلتنى أستمسكها وأميل إليها . ولم تكن قد تجاوزت

الثالثة عشرة ، صغيرة الجسم نحيلة ، إلى درجة توهم الرأى بأنها لم تبلغ العاشرة ، ومع ذلك فقد قضيت معها — بعد المأدبة — فترة هائلة .. إذ كانت لطيفة المعشر حاضرة البديهة ، ذكية ، خفيفة الدم والحركة !

يطرد من فلورنسا .. جزاء المعروف !

وتلقيت ذات يوم رسالة من بيستويا ، من شخص يدعى (يوانوف) ، يسألنى أن أسدى إليه جميلا بأن أحصل له على قيمة سند مالى كان محولا على مصرفى فى فلورنسا ، لأنه لا يستطيع الحضور بنفسه إلى فلورنسا .. فقد نفذ ماله وكان صاحب الفندق الذى كان ينزل فيه يخشى أن يهرب من دفع قيمة ما كان مدينا له به ، إذا هو رحل عن (بيستويا) .. ودفعتنى النخوة إلى أن ألبى رجاءه ، فحملت السند المالى إلى المصرفى — وكان يدعى السنيور « ساسو — ساسى » — وتسلمت منه المبلغ ثم رحلت إلى (بيستويا) حيث أسلمته للرجل الروسى ، وعدت إلى فلورنسا .

وما أظن أن بوسعك أن تتصور دهشتى حين استقبلت المصرفى فى فندقى بعد أيام ، وقد جاء يزورنى ، ويفضى إلىّ بأن السند المالى كان مزورا ، وأنه يعتبرنى مسئولا عن المبلغ الذى دفعه ، وأخذ يطالبنى بمائتى دينار ذهبى ! .. ورفضت أن أدفع درهما واحدا بطبيعة الحال . وكان من جراء ذلك أننى تلقيت فى اليوم التالى دعوة من مدير البوليس ، فلبيتها فوراً . وكان المدير غاية فى الأدب واللطف ، ولكنه أصر على أن لا مفر من دفع المبلغ . فلما تشبثت بالرفض ، قال مدير البوليس إنه مضطر فى هذه الحالة إلى أن ينذرني بمغادرة فلورنسا خلال ثلاثة أيام وبمبارحة مقاطعة (توسكانيا) فى ستة أيام ، ولا

سبيل لى إلى العودة إلا إذا رفعت الأمر إلى الدوق الأكبر — الحاكم — وقضى بأن الحق فى جانبى !.. وسألنى المدير أن أكتب تعهدا بذلك — كما كان القانون يحتم — فكتبت : « إننى أحنى الرأس احتراما لقرارك ، لكن هذه المسألة لن تنتهى هنا » ! وودعت « تيريزا » فى حرارة لا بد أنها وخزت قلب زوجها المسكين .. وسرعان ما رحلت ، فإن هى إلا ست وثلاثون ساعة ، حتى كنت فى (روما) .

كازانوف .. المشغوف بالراحة !

وكان بين خطابات التوصية التى أحملها ، خطاب للكاردينال « باسيونى » — الذى كان سكرتيرا للبابا — فلما حملته إليه ، أعرب لى عن رغبته فى أن يسمع من بين شفتى قصة فرارى من السجن .. فقلت : « إن القصة جد طويلة يا صاحب الغبطة » . ولكنه قال : « هذا أفضل .. فقد بلغنى أنك راوية مبدع » .

— ولكن ، لا مفر من أن أجلس على الأرض يا صاحب القداسة ، ريثما أقص ما جرى !

ذلك أننى لم أجد فى الغرفة أى مقعد . وأمر الكاردينال أحد خدمه فأحضر لى مقعدا منخفضا ، لا مسند له ، مما أثارنى وجعلنى أوجز فى القصة ، وأرويه دون تنميق . فقال الكاردينال : « إنك لست من البراعة فى الحديث كما بلغنى » .

فأجبت : « الحق أننى لا أجيد الحديث إلا إذا كنت مستريحا فى جلستى » — أولست مستريحا فى جلستك هذه ؟

— لا يا صاحب الغبطة .. إن أى إنسان — وبوجه خاص أى مثقف — لا يستطيع أن يثير غيظى قدر ما فعل هذا المقعد !
— يبدو لى أنك مشغوف بالراحة .. وعلى أية حال ، فإننى أرى أنك فى كتابتك أكثر بلاغة منك فى حديثك ، وأرى بهذه المناسبة أن أهديك نسخة من الرثاء الذى كتبته فى الأمير « يوجين » ، ولعلك لا تجد فى أسلوبى اللاتينى أى منفذ للنقد. وما لبث الكاردينال أن أفضى إلى بأن قداسة البابا سيستقبلنى فى الساعة العاشرة من اليوم التالى ، فلما عدت إلى مكتب الكاردينال فى ذلك الموعد حملت إليه نسخة قيمة من كتاب جليل ، عتيق ، طامعا بذلك فى أن أكسب وده !

فى حضرة قداسة البابا

و كنت قد عرفت قداسة البابا عندما كنت أسقفا لمدينة (بادوا) ، فلما قبلت الصليب المنقوش عند قدمه ، ألقى راحته على كتفى ، وذكرنى بأننى كنت أغادر القداسات التى كان يعقدها فى (بادوا) بمجرد شروعه فى تلاوة التسابيح الدينية ، فقلت له : « إن لى ، يا أقدس أب ، ذنوبا أسوأ من هذا وأكثر ثقلا على ضميرى .. ومن أجل هذا سعت لأركع عند قدميك ، ملتصقا بالمغفرة ! » .

وباركنى قداسته ، ثم سألنى عما يستطيع أن يؤديه لى ، فقلت : « اشفع لى فى العودة إلى البندقية » . فقال قداسته : « سنتحدث فى ذلك إلى السفير ، وننبئك بالنتيجة .. ألسنت تزور الكاردينال باسيونى ؟ » .. فرويت له كيف أهدانى رثاءه للأمير « يوجين » ، وكيف أهديته بدورى نسخة قيمة من كتاب

عتيق ، فقال : « لسوف يرسل إليك الأب وينكلمان يسألك ثمن الكتاب » .

— ولكنى لست بائع كتب ، ولن أقبل أن أتقاضى ثمن الكتاب .

— إذن فسوف يرده إليك .. إننا نعرف أخلاقه .

— فى هذه الحال سوف أرد إليه مراثاته !

وضحك قداسة البابا طويلا ، ثم قال : « يسرنا أن نعرف ما ينتهى إليه هذا الموضوع ، دون أن يدرك أحد سوانا بهذا الفضول الذى يتملكنى ! » وفيما كنت منصرفا ، فطنت إلى راهب متقدم فى السن يتبعنى ، حتى إذا لحق بى ، سألتنى عما إذا كنت السنيور « كازانوف » الذى هرب يوما من سجن ديوان التفتيش .. وأجبتة بالتأكيد ، فهتف : « الحمد لله الذى أراك ثانية فى صحة جيدة .. ألم تعرفنى ؟ .. إننى مومولو ، الملاح البندقى الذى كثيرا ما أقلقك فى جندوله » .

— وهل أصبحت راهبا ؟

— لا ، ولكن المسوح لباس كل امرئ هنا .. إننى رئيس الكناسين الذين

فى خدمة قداسة البابا !

كازانوف .. « صاحب الكرامة » !

وزارنى الأب « وينكلمان » ، فأزجى إلى أننى نلت رضاء الكاردينال باسيونى ، بسبب ذلك الكتاب النادر ، الثمين . ثم أردف قائلا إن الكاردينال يحب أن يعرف بكم هو مدين لى ، فأجبت : « بلا شىء ، فأنا لست بائع كتب .. لقد قدمت الكتاب هدية » .

— إذن فسيرده صاحب الغبطة إليك .

— له الحرية فى ذلك ، إذا هو شاء ، ولكنه إذا فعل فسأجدنى مضطرا إلى أن أرد إليه المراثة التى أهدانيها . إذ أننى لا أقبل هدية من لا يقبل هديتى !
وفى اليوم التالى ، تلقيت كتابى ، فرددت المراثة !
ولما كان شقيقى « جون » يقيم فى (روما) ، فقد اصططحته فى ذلك المساء لزيارة « مومولو » فى داره . وكانت له زوجة عجوز ، وأربع بنات تبلغ كبراهن الرابعة والعشرين ، وولدان قبيحا الشكل ، وأصر « مومولو » على أن نتناول العشاء مع الأسرة ، فأوفدت أدعو تابعى « كوستا » إلى أن يحضر ست قنينات من النبيذ . وإذ لمحت إعجاب البنات الأربع بكوستا ، سألته أن ييقى معنا .

وإذ جلسنا إلى المائدة الكبيرة التى ضمنتنا جميعا ، سمعنا طرقات على الباب ، فبدا الامتعاض على البنات ، وقالت إحداهن : « هذه ماريأ وأمها ! .. من الذى دعاها للحضور » وفتح الباب ، ودخلت امرأة مسنة ، وفتاة غاية فى الجمال .

مجنون .. وامرأة فاتنة !

نهض « مومولو » الطيب — الملاح — فأعد مقعدين للقادمتين اللتين بدا عليهما الحياء والارتباك .. وكان المقعدان بين مجلسى ومجلس أخى .. وتطلعت إلى « ماريأ » فإذا بها فاتنة !

وقبل أن تنقضى ساعة ، كنا قد انتهينا من العشاء ، وأخذنا نتحدث عن « اليانصيب » العام الذى كان يجرى سنويا فى (فلورنسا) ، فقالت « ماريأ » الحسناء إنها لو كانت تملك مالا ، لأنفقت جزءا منه على الرقم « ٢٧ » فى

« اليانصيب » .

فما كان منى إلا أن دفعت إلى « مومولو » بأربعين دينارا ، وأنا أقول :
« أنفق عشرين منها على الرقم ٢٧ ، على أن يكون الربح من نصيب بناتك
الأربع والآسة .. وأنفق العشرين الأخرى على نفس الرقم لحسابى » ولما
انصرفنا ، قال أخى إننى كنت مجنوناً بهذا التبذير ، ولكننى أجبتة : « لا ، لست
مجنوناً .. ولكن ماريًا فائنة ! »

مع الفتاة التى تمنعها أمها من الاستحمام !

وفى اليوم التالى ، سعت إلى المثل بين يدى البابا ، فقال لى : « إن سفير
البندقية يطلب أن تقدم نفسك إلى سكرتير المحكمة العليا ، إذا شئت أن تعود
إلى وطنك » ، فقلت : « إننى على استعداد لأن أفعل ذلك يا قداسة الأب إذا
منحتنى خطاب توصية . وبغير ذلك لا أجسر على أن أعرض نفسى للسجن
مرة أخرى ! » .

وحين سمع البابا ما كان بينى وبين الكاردينال « باسيوفى » ، ضحك
كثيرا ، فانتهزت الفرصة والتمست أن يسمح لى بأن أقدم الكتاب الأثرى
الذى رفضه الكاردينال ، هدية لمكتبة الفاتيكان .. فباركنى مستجيبا
لرجائى ، ثم قال : « سنرسل لك دليلا على عطفنا الخاص ! » .. ولكم تولانى
الفضول لمعرفة هذا الدليل !

وفى ما كنت أتناول غدائى فى ذلك اليوم ، علمت أن الرقم « ٢٧ » كان
خامس الأرقام الراجعة فى « اليانصيب » .. وكان معنى ذلك أن كل من اختاره
قد فاز بجائزة . فأسرعت إلى « مومولو » أحمل إليه النبأ ، فإذا بناته مكشبات ،

لأننى كنت قد أهديت نصيبى لماريا .. على أننى لم أعجز عن التسرية عنهن ،
وسرعان ما كنا نتناول العشاء ، وأقبلت « ماريا » كما فعلت فى الليلة السالفة ، فلم
ألبث أن اختلست فرصة ، سألتها فيها أن تسمح لى بلقائها على حدة ، فوعدت
بأن تقابلنى فى الساعة الثامنة من الصباح التالى ، أمام إحدى الكنائس ..
وجاءت فى الموعد .. وما كان أروع منظرها !.. كانت طويلة القامة ، ذات
بياض مشرب بحمرة الورد ، وشعر أسود ، وعينين زرقاوين .. وكانت فى
الثامنة عشرة من عمرها !

وبإشارة منها ، تبعتها دون أن أكلمها ، حتى بلغت مبنى كبيرا قديما
متهدما ، فولجته وارقت السلم وأنا فى أثرها ، حتى بلغت قمة السلم . ولم يكن
حوله جدرانها ، فكأنه منتصب فى الهواء !.. وعلى الدرجة العليا جلسنا ،
فبحث لها بحبى ، وقلت لها : « أخبرينى عما أستطيع أن أؤديه لك ، فإننى لا
أبغى — قبل كل شئ — سوى إسعادك ! » .

وكان جوابها : « انشلى من الشقاء الذى أعيش فيه مع أمى . فهى امرأة
صالحة ، ولكنها تجعل حياتى عبئا ثقيلا يمضى . إنها تأبى علفى أن أستحم ، لأن
هذا يمكننى من أن أمس جسدى بيدي ، كما أن النظافة تبرز جمالى للرجال !..
ولقد رآنى حلاق شاب فى إحدى زيارتى لأسرة مومولو ، فقال إنه على
استعداد لأن يتزوجنى لو أنه وجد أربعمائة دينار ، يفتح بها محلا لنفسه ،
ولكننى لم أكن أملك سوى مائة يدخرها لى الراهب الذى أدلى إليه
باعترافى .. وبعد المنحة التى قدمتها لى عن طريق « اليانصيب » ، أصبح لدى
مائتا دينار ، فهل تمنحنى المائتين الباقية ؟.. إذا كنت تستطيع ، فأسلمها لى
الراهب حتى لا تعرف أمى .. وإلا ساورتها الريب فى الأمر ! » .
— لسوف أسلمها إليه اليوم ، على أن تزورينى غدا لأروى لك كيف

أثريت . فهل تقابلينى عند الكنيسة فى نفس موعد اليوم ؟

كازانوف .. المندوب البابوى فوق العادة !

وإذ دقت الساعة مؤذنة بالتاسعة ، بارحنا أطلال القصر ، وقد جمدت أطرافى من البرد . ولكننى لم أحفل بشيء ، فلم يكن يشغل بالى سوى أن أعتز سريعا على مسكن أستطيع أن أستقبلها فيه ، دون أن يعرف أحد بالأمر . واستطعت أن أعتز على غرفة لا بأس بها فى شارع ضيق ، فى أحد الأحياء الفقيرة ، فدفعت لصاحبتها أجر ثلاثة أشهر مقدما ، لتستطيع أن تبتاع أثاثا لائقا ، ونقدتها مبلغا لتعد نارا للاستدفاء ، وتبقيها مشتعلة سواء كنت فى الغرفة أو لم أكن ! .. ثم سعت لفورى إلى الراهب الذى ذكرته لى « ماريا » ، وقدمت له المائتى دينار ، بعد أن شرحت له كيف عرفت ماريا . وأردفت قائلا : « لسوف أرحل بعد غد إلى نابولى ، فأرجو أن أجدها عند عودتى وقد تزوجت » .

وقال القس إنه عرف الفتاة منذ خمس سنوات ، وإنها من أظهر الفتيات . ووعدنى بأن يتحرى عن الحلاق الشاب ، فإذا اطمأن إلى صلاحيته لها ، بادر إلى عقد زواجهما .

ولم تحن الساعة الثامنة من الصباح التالى حتى كنت أمام الكنيسة ، فلما أقبلت « ماريا » ، أشرت إليها فتبعتنى إلى المسكن الذى استأجرته . وكانت بادية الارتباك ، والحجل ، والذلة ، فبادرت أطمئنها إلى أننى قد سويت لها أمر الزواج . وغادرتنى وهى تشكرنى من صميم فؤادها ، مؤكدة لى أنها رغم فقرها وثرأى — قد أحبتنى حبا خالصا ، مجردا من أية غاية !

وفي ذلك اليوم ، زارنى رسول من قداسة البابا ، يعلن إلتى أنه قد أنعم على بوسام « صليب فرسان المهماز الذهبى » ، وأسلمنى براءة الإنعام وعليها الخاتم البابوى . وقد تضمنت البراءة منحى « دكتوراه » فى القانون المدنى ، وتعيينى موقدا بابويا فوق العادة !

ولقد سول لى الغرور أن أبتاع صليبا مرصعا بالياواقيت والماس ، ولكننى حين ذهبت لأقدم للبابا شكرى ، زينت صدرى بالصليب العادى الذى أرسله إلتى !

رعاية من الزوج .. ونفور من الزوجة !

وفى اليوم التالى ، رحلت فى عربتى الأنيقة ، مصطحبا الأب « ألفتانى » الذى أعرب عن رغبته فى أن يعمل سكرتيرا لى . وما أن بلغنا (نابولى) ، حتى وجدنا أهلها فى هياج وهرج ، إذ فوجئوا ببركان (فيزوف) يثور . ولكننى تمالكت هدوئى ، ويمت على الفور لزيارة دوق « ماتالونيا » ، الذى كنت قد تعرفت إليه فى « باريس » . ولم يكد الدوق يرانى ، حتى عانقنى وقدمنى إلى زوجته . وأنبأته بأننى ما قدمت إلى نابولى إلا لكى أراه ، فأصر على أن أنزل فى ضيافته ، وأرسل خادما لنقل متاعى من الفندق ..

ولم ينقض نصف ساعة حتى كنت مغمورا برعاية الدوق ، ولكن زوجته لم تعرفنى اهتماما .. كانت جميلة ، ولكنها كانت جد متغطرة . وقد قضيت يومين أحاول أن أستدرجها إلى محادثتى .

بنات روما يتنزهن فى العربات المغلقة !

وفى اليوم التالى اصططحبنى الدوق إلى القصر الملكى ، حيث حظيت بالمثل بين يدى الملك . وما لبثت أن عدت إلى (روما) ، فبادرت بإيفاد خادمنى « كوستا » إلى صديقى الملاح الطيب « مومولو » ، لينبئه بأننى راغب فى تناول العشاء فى داره ، وأننى قد طلبت إلى طاه شهير أن يرسل إلى هناك عشاء لاثنى عشر شخصا . وكنت موقنا من أن « ماريا » الفاتنة — التى كنت قد دفعت للراهب مائتى دينار كى يزوجها من خطيبها الحلاق — ستكون بين الحضور !

وكانت أعياد « الكرنفال » قد بدأت ، فاستأجرت عربة فخمة ، مغلقة الجوانب ، لتكون تحت تصرفى أسبوعا ، إذ كان من التقاليد المستحبة لدى بنات روما أن يتنزهن فى العربات المغلقة ، فى طريق (كورسو) ، بين الساعة الثامنة مساء ومنتصف الليل ، خلال أيام الكرنفال .. ولقد ظلت فترة الكرنفال — على مر القرون — فرصة للانطلاق وللجنون المباح . وكانت أغرب مناسباتها سباق الجياد ، إذ تنطلق الجياد الجامحة — غير المروضة — فى الطريق دون راكبين يسوسونها ، حتى تبلغ النصب الأثرى للإمبراطور « تراجان » .. وتصطف العربات — أثناء السباق — على جانبي الطريق ، كما ترخر الأرصفة بأبناء جميع الطبقات ، وقد أخفوا ملامحهم وراء الأقنعة . فإذا ما مرت الجياد ، انطلق الناس ركوبا أو مشاة إلى عرض الطريق ، وأخذوا يقذفون بعضهم بعضا بالحلوى اللذيذة ، أو الحلوى الزائفة — التى يحشى بعضها بمواد غريبة — أو بالورق ، أو بمختلف الأشياء التى يهيشها لهم المرح

النزق .. ومنهم من يتبادلون هذه الأشياء من فم إلى فم !.. كان للقوم الحق في أن يرتكبوا كل الحماقات التي تحرم عليهم عادة . فإذا ما انتصف الليل ، انطلق مدفع قلعة « سانت إنجيلو » معلنا انتهاء فترة الإباحة ، ومؤذنا بإخلاء طريق (كورسو) ، فلا تكاد تنتقضى خمس دقائق حتى يخلو الطريق من كل عربة ومن كل راجل ، ويسارع الجميع إلى المسارح ودار « الأوبرا » ، كما تزدهم المطاعم والمشارب بهواة الأكل والشرب !

أمير العشق .. يدبر زيجات لعشيقاته !

واستقبلني « مومولو » وأسرته في فرح وابتهاج . ولم أكد أستقر بينهم لبضع دقائق ، حتى أقبلت ماريا مع أمها المتدينة التي بادرتني قائلة إن ابنتها لن تلبث أن تتزوج بعد ثلاثة أو أربعة أيام . وكان من الطبيعي أن أهنئها ، وأن أتساءل — متجاهلا — عن الرجل السعيد الذي قدر له أن يظفر بها ، فقالت الأم : « إنه شاب سيفتتح قريبا حانوتا للحلاقة . وقد تفضل الأب سانت بارناي — قس الكنيسة — بتدبير أربعمئة دينار من رصيد خيرى تحت يده ، لتكون صداقا لماريا ! » .

وفي أثناء السهرة ، قلت لبنات « مومولو » إن كوستا سيصطحبهن في عربتي الفخمة إلى طريق (كورسو) لمشاهدة السباق ، وأبحت لهن أن يستأجرن ما يحلو لهن من ثياب التنكر ، متطوعا لأن أتحمّل النفقات . فلما سألتني عن « ماريا » قلت : « إن السنيورا ماريا مقبلة على الزواج ، فليس لها أن تظهر في الأماكن العامة دون أن يكون زوجها المرتقب في صحبتها » .. وتظاهرت الفاتنة الماكرة بالاستياء ، بينما تحمست أمها لهذا التصرف منى .

وفي الساعة السابعة من الصباح التالى ، كنت وماريا فى الحجرة التى استأجرتها لألقاها فيها . وهناك ، بسط علينا الحب جناحيه .. وقالت لى الحسنة ، خلال اجتماعنا ، إن زواجها سيعقد فى يوم الاثنين التالى ، فتساءلت : « ومتى يكون لقاءنا التالى يا ملاكى ؟ » .
— فى يوم الأحد السابق ليوم زفانى . وفى وسعنا يومذاك أن نبقى معا وقتا طويلا !

اعترافات .. ناقصة !

وفي الساعة السابعة من صباح يوم الأحد ، التقينا للمرة الأخيرة فى عشنا الهادئ .. وقلت لفاتنتى : « نبئنى .. هل اعترفت للقس بكل شئ ؟ » .. فكان جوابها : « لم أفض له بكل شئ .. وما أظننى قد أتيت ذنبا منكرا ، إذ صدرت فى تصرفاتى عن أنقى الخوافز » .. وهتفت وأنا أودعها وأتبادل معها عهد الصداقة والود : « عدينى يا ملاكى بأن تطلقى اسمى على أول طفل ترزقين به ! » .. فوعدتنى وهى أشد ما تكون تأثرا !

وفى مساء يوم الاثنين سعيت إلى مقابلة قداسة البابا — والمدينة كلها فى شغل بالكرنفال — لأودعه قبل مغادرتى روما ، فاستقبلنى فى عطف بالغ ، وقدر لى أنى ضحيت بملاهى الكرنفال كى أمثل بين يديه ، واستبقانى ساعة أنصت خلالها إلى حديثى عن المدن التى زرتها ، ثم باركنى وتمنى لى رحلة موفقة !

وفى مساء الثلاثاء ، ذهبت إلى دار « مومولو » لأتناول العشاء مع أسرته وأودع أفرادها .. وهناك ، رأيت « ماريا » للمرة الأخيرة ، وقد أقبلت مع

زوجها .. وخيل إليّ أن زوجها يبدى شيئا من التحفظ معى ، ولكن .. لعله كان مجرد وهم !
.. على أن الحسنة استطاعت أن تنتهز بضع دقائق حدثتني فيها على انفراد ، وأطرت على زوجها وأخلاقه ، فما لبثت أن قدمت للحلاق ساعة ذهبية ، كما قدمت للعروس خاتما ثميناً ، ودعوت لهما بالسعادة !.. وبعد يومين ، رحلت إلى (تورين) .

صائد الحسان .. فى مدرسة تعليم الرقص !

كانت مدرسة دوبريه — لتعليم الرقص فى (تورين) — فى أوج شهرتها ورواجها فى تلك الأثناء ، إذ كان الراقصون جميعاً ، ذكورا وإناثاً ، يقصدونها ، وكان الإناث يذهبن فى صحبة أمهاتهن . ولم تنقض أيام قلائل على وصولى إلى (تورين) حتى زرت المدرسة . وفيما كنت أجوس خلال قاعاتها ، استرعت نظرى شابة من الحاضرات .. طويلة فارعة القوام ، ذات قسمات رقيقة بديعة . وكانت تراقص رجلاً راح ينيها فى غلظة وخشونة إلى الأخطاء التى كانت ترتكبها أثناء الرقص ، الأمر الذى أثار حنقى عليه . وما لبثت أن تقربت إلى أم الفتاة ، وعرفت منها أنها وابنتها من بلدة (لوكا) ، وأنهما فقيرتان ، فقدتا عائلتهما .. فقلت لها : « كيف تكون سيدة مثلك — لا تزال شابة جميلة ، ولها ابنة كهذه الحسنة ، فقيرة ؟ » .

ورمقتنى الأم بنظرة تقدير . وفى تلك اللحظات أقبلت الفتاة — وكانت تدعى « أجاثا » — تطلب منديلاً تجفف به العرق الذى تفصد من وجهها ، فبادرت أقدم لها منديلى ، وكان أبيض معطراً بشذى الورد .. فلما جففت (مذكرات كازانوفا)

وجهها ، أرادت أن تعيد إلى المنديل ، ولكننى قلت : « ليس لك أن ترديه دون أن تغسله يا حسناً ! » . فابتسمت .. وسرعان ما ذاب جليد التحفظ ، فتوثق التعارف بيننا .

كازانوف يدفع ثمن مغامرة جديدة .. مقدما !

وطلبت من « دوبريه » — صاحب المدرسة — أن يقيم حفلة راقصة كبرى لحسابي ، يدعى إليها جميع الراقصين والراقصات ، على أن لا يسمح بالرقص فيها إلا للمحترفين .. وأعدت بطاقات للراغبين في الحضور من سيدات وسادة المجتمع ، على أن تباع البطاقة بدينار ، وعلى أن يقدم العشاء للحضور .. وأرادت « أجاثا » أن تعتذر عن الحضور لأنها لم تكن تملك ثوبا يليق بحفلة كهذه ، ولكننى أنطت بمدام دوبريه أن تبتاع لها ثوبا ، فاختارت لها واحدا من حرير فخم غال ، مطرز أبدع تطريز . وفرحت الفتاة البريئة وأمها — التي لم تكن تقل عنها سذاجة — بالثوب الذي لم تستطع أيهما أن تقدر قيمته الحقيقية ! وأتاحت لي هذه الهدية أن أشرف على زينة الفتاة — في مسكن دوبريه — فلما لاحظت أن قرطبيها كانا رخيصين لا يتسقان مع فخامة الثوب ، أخرجت لها من جيبي قرطين ماسين ثمينين ، ثبتهما إلى أذنيها بيدي .. وزعمت أنهما من ماس زائف ، حتى لا أثير الريب في قلبي الأم والابنة !

ولاحظت خلال الحفلة أن الفتاة كانت تراقص شابا إنجليزيا يدعى لورد « بيرس » ، كان من العابثين الذين ينفقون دون حساب على ملاذهم .. وقد تكبدت عناء كبيرا حتى استطعت أن أنتزع « أجاثا » منه ، ثم راقصتها بضع

رقصات ، وبعد ذلك أدير كؤوس الشمبانيا المعتقة .. وفيما كنت أجلس مع « أجاثا » إلى جوار إحدى سيدات المجتمع الخبيرات بالحياة ، التفتت السيدة إلى قرطى « أجاثا » وأطرت جماهما ، فقالت الفتاة : « إنهما من ماس زائف ، وقد أهدانيهما السيد » . فضحكت السيدة وغمزت لى بعينها وهى تقول : « إذن فقد عرف السيد كيف يخدعك يا عزيزتى ! » .

وتضرج وجه « أجاثا » ، وتأكدت من صدق السيدة حين وجدتنى صامتا ! .. فلما كان اليوم التالى ، زارتنى أمها ، ورغبت فى أن تعرف ما إذا كان القرطان من ماس حقيقى . ولم أتردد فى أن أؤكد لها ذلك ، وإننى أنزل عنهما هدية لابنتها . فلم تتمالك المرأة نفسها ، وراحت تقبلنى وهى تعدنى بأن تعمل على توثيق علاقتى بابنتها !

برود .. إنجليزى !

سرعان ما كافأتنى الحسناء « أجاثا » على القرطين ، فأغرقتنى بلطفها وحنانها ، وأذاقتنى أطايب حسنها ، فإذا بى أتدله فى هواها . ولولا الحادث الذى أو شك أن أرويه ، لما فارقتها قط .. والواقع أننى كنت مبعوث القدر كى أتيح لهذه الفتاة حظا وثروة . ولعل هناك من يعترض على قولى بأن القدر كان خليقا بأن يختار طريقة أكثر تمشيا مع الأخلاق ، لإسعاد هذه الفتاة . ولكن .. من الذى يريد أن يتدخل فى مشيئة القدر ويتحكم فى إرادته ؟ .. ومن أدراه بأن للقدر غاية ، لا يدركها إلا بعيد النظر ؟

ذلك أن الشاب الإنجليزى — لورد « بيرس » — كان قد أصبح متيما بحب عشيقتى ، فراح يلاحقها فى كل مكان ، دون أن يغفل وسيلة من وسائل

الإغراء إلا عمد إليها . وكانت ترد إليه جميع هداياه ، وتمعن في صده . ولما كنت موقنا من صدق وفائها لي ، فإن تماديه لم يزدني إلا غرورا . لذلك لم يلبث الشاب أن عدل عن خططه السالفة ، وحاول أن يوقع بيني وبين الفتاة .. ثم سعى إلى أن يجعل من الأمر صفقة !

وفي برود بنى وطنه وجرأتهم ، زارني اللورد بيرس ذات صباح ، فاستقبلته في أدب وحفاوة ، ودعوته إلى الفطور .

الحب .. في ميدان التجارة !

وشرع الشاب يحدثني عن حبه لأجاثا ، ثم عرض مشروعا ضحكته منه وإن لم أغضب ، إذ كنت خبيرا ببرود الإنجليز ! .. ذلك أن بيرس كان على علاقة براقصة من راقصات « الأوبرا » ، فعرض عليّ أن نتبادل الفتاتين ، وأضاف استعداداه لأن يدفع الفرق بين الفتاتين مالا .. ولم أتردد في اتخاذ قرارى . وما أحسبني ندمت قط على هذا القرار حتى اليوم . فقد أبديت للشباب امتعاضى ، ولكنني ترفقت به ، وقلت إن من حق الفتاتين أن تستشارا أولا . فأجاب بأنه واثق من أن فتاته لن تعارض . ولكنني أكدت له أن « أجاثا » ستعارض ، فكان جوابه : « هذه مهمتى أنا .. كل ما يعينني الآن هو أن أعرف رأيك ، والمبلغ الذى تقدره كفرق بين قيمتى الفتاتين ! » .

وبدا الموضوع طريفا ، ولكن حبى لأجاثا حملنى على أن أحاول استغلاله لمصلحتي . ومن ثم فقد أنبأتها به — حين وافتنى في تلك الليلة — فضحكت من أعماق قلبها .. وسألتها عن رأيها ، فأجابت : « إننى لا أتردد عن إتيان كل ما تبغى . وإذا كانت الصفقة في صالحك ، فأنصحك بأن تقبلها ! » .. وكنت

أدرك أنها تمزح ، ولكن جوابها مس شيئا فى نفسى ، لعله .. كبيرائى !
وإن هى إلا أيام ، حتى ذكرت لى « أجاثا » أن مدير أحد المسارح عرض
عليها أجرا طيبا ، لتكون الراقصة الثانية فى فرقته . وإذ سألتنى رأى ، قلت :
« إذا كنت صادقة فى حبى يا أجاثا ، فافضى كل عمل لمدة عام واحد ، ولن
أدعك تحتاجين إلى شىء ، بل إننى سأستأجر لك خير معلمى الرقص ، حتى
تصبحى فى طليعة الراقصات ! » .

— ولكنه يعرض أجرا مغريا .. ستين دينارا ؟!
— بوسعك أن تحصلى على هذا المبلغ دون رقص ، فافضى !
— فليكن .. ولكنى أرى من الأفضل أن أرد العرض بأن أعالى فى تقدير
الأجر !

تسليم .. « السلعة » !

وفى اليوم التالى ، جاءتنى وهى لا تكاد تتمالك نفسها من الضحك ،
وقالت إنها طلبت من مدير المسرح خمسمائة ديناراً أجرا ، فإذا به يسألها أن
تمنحه مهلة للتفكير ، وإن هى إلا ساعة حتى حمل إليها عقداً — وفق شرطها —
لتوقعه ! .. وداخلنى إذ ذاك ريب فى أن أجاثا — وليس رقصها — هى
المقصودة بهذا العقد . وما لبثت أن وجدت أننى كنت مصيبا فى حدسى ، إذ لم
يكن الرجل سوى ستار ، وكان اللورد بيرس هو .. دافع الأجر !
وكان بوسعى أن أعرقل الصفقة ، لولا أننى وجدت فى صالح « أجاثا » ،
ولولا أننى كنت قد مللت الاستقرار ، وبدأت أتوق إلى الرحيل . لذلك
آثرت أن أكسب ود الشاب ، وأن أحمله على أن يودع فى أحد المصارف مبلغا

طيبا باسم الفتاة . ثم جمعتهم على مائدتي ذات مساء . وإذ رأيت أن أجاتا تتلطف إلى اللورد بيرس ، قررت أن أعجل بالرحيل ! وقلت للشباب إننى كنت أزمع زيارة إنجلترا ، وأبدت رغبة فى أن يمدنى بخطاب تقديم إلى أمه الدوقة .. وكان جوابه أن أخرج من جيبه صورة لها ، فى إطار مرصع بماسات ثمينة ، وقال : « هذا خير خطاب أقدمك به إليها ! » .

فى ضيافة كونتة أسبانية !

وكنت قد تعرفت — منذ زمن — إلى نبيل من أهل (ميلان) ، أرمز لاسمه بحرف « ا. ب » . وكان إذ ذاك فى ضائقة ، فاعتدت أن أدعوه لمائدتي وأن أقدم له القروض . لذلك أحبنى الرجل ووثق بى ، حتى إنه أطلعنى على كثير من أسرارهِ . وذكر لى أنه متزوج من حسناء أسبانية سمراء فى الخامسة والعشرين من عمرها . فلما اعتزمت السفر إلى (ميلان) ، كتبت إليه ، فدعانى إلى النزول ضيفا عليه ، وسألنى أن أبتاع لزوجته قطعتين من حرير من نوع لم يكن يوجد إلا فى (تورين) .. وودت فى الواقع أن أعتذر عن النزول ضيفا على الزوجين ، لولا أننى كنت مشوقا إلى رؤية الأسبانية ، لما كنت قد سمعته عنها من زوجها ، ولما كنت قد قرأته عن أن الأسبانيات مشهورات العواطف ! ولكننى فوجئت بأن الأسبانية كانت على خلاف ما تصورتها .. كانت جميلة ، ولكنها كانت دقيقة القوام ، شديدة التزم ، جافة الطباع .. فما أن قدمت إليها القطعتين الحريريّتين ، حتى شكرتنى باقتضاب ، قائلة إن راعى كنيسة القصر — الذى كان يقيم مع الأسرة ويعمل كدليل للأعمال — سيدفع ثمنهما .. وظلت طيلة الوقت صامتا ، لا تبدى تقديرا لما كنت أوجهه إليها

بأكثر من ابتسامه واهنة .. فلما رافقنى الكونت ليرينى حجرتى ، أخذ يعتذر عن جفوتها وصمتها ، وأكد لى أنها لن تلبث أن تألفنى .
وكانت معالم الفقر تبدو على القصر — فيما عدا غرفتى التى كانت فسيحة مريحة .

صديق الأسرة !

وفى الصباح التالى ، جاءنى القس وسألنى أن أذكر للسيدة أنه دفع إلى ثمن التحرير . فلما استنكرت منه أن يحرضنى على الكذب ، قال : « إنك لا تعرف السيدة ، ولا تدرى كيف تسير الحياة فى هذا القصر يا سيدى ! » .. ثم ترك المهمة إلى الكونت ، الذى شرح لى مدى كبرياء زوجته . فإنها ما كانت لتقبل القماش ما لم تطمئن إلى أننى قد تقاضيت ثمنه .. ولم تكن موارد الزوج لتسمح بذلك !

وكانت الحياة فى القصر عجيبة بالفعل ! .. ففيما كنت منهمكا فى كتابة بعض الخطابات فى ذلك النهار ، أقبل الكونت وزوجته على غرفتى ، مصطحبين شخصا قدماه إلى باسم المريكز « تريوليتس » . وكان رجلا فى مثل سنى ، أبدى سروره بالتعرف إلى ، وبالجلوس فى غرفتى ، إذ كانت هى الغرفة الوحيدة التى تعمر مدفأتها بالنار ! .. ولما كان وصيفى قد انهمك فى إخراج أمتعتى من حقائبى ، ونشرها على المقاعد ، ما عدا مقعد واحد ، فقد جلس المريكز على هذا المقعد ، ثم جذب إليه الكوننة وأجلسها على ركبتيه ، فتملصت وهى حانقة ، وقد تضرج وجهها ، وصاحت : « ألم تتعلم — رغم كبر سنك — كيف تحترم السيدات ؟ » .

وأجابها الرجل فى قحة : « بلى يا سيدتى .. وآية احترامى أننى لم أحتمل أن أراك واقفة وأنا جالس ! » .
ودعا الكونت ضيفه إلى الغداء ، ثم قال : « وبما أنك تفخر بطاهيك ، فأرسل إليه كى يحمل العشاء إلى هنا ! » .. ووافق المركيز . والحق أن الغداء كان ينم عن بذخ ! .. وكان المركيز قد لاحظ بين الأمتعة التى أخرجها خادمنى من حقائبى ، ثيابا نسوية من الحرير الثمين ، فسألنى مازحا عما إذا كانت لى صديقة فى (ميلان) ، فأجبت بهأننى أطمع فى أن أحظى بواحدة !

الفساد .. فى المجتمع الإيطالى !

وذهبنا جميعا إلى دار « الأوبرا » فى بداية المساء ، واستقلت الكونتة عربية المركيز ، بينما شاركنى الكونت عربتى .. واغتبطلت إذ التقيت فى الدار بصديقتى القديمة « تيريزا باليس » ، فوعدها بأن أزورها فى أول فرصة تسنح للهرب من مضيفى ! .. وسنحت هذه الفرصة فى الصباح التالى .. وكم تبينت أننى كنت أحبها !

وفى مساء ذلك اليوم ، قالت لى الكونتة « ا. ب » ونحن نجلس إلى العشاء : « إننى أعرف أين كنت اليوم .. ولكن للسيدة عشيقا لن يتردد فى أن يهجرها إذا أنت أكثرت من زيارتها ! » .. وكانت أول مرة ترفع فيها الكلفة ، فقلت لها : « لو أنه هجرها لحللت محله ! » .

— إنك تحسن عملا إذا قصرت وفاءك على اللاقى يقدرن هداياك . وإنى لأعرف أنك لا تقدم الهدايا إلا بعد أن تكون قد ضمنت الثمن !
— إنها قاعدة لم أخرج عنها قط يا سيدتى !

وعلمت منها أن عشيق « تيريزا » كان — للمصادفة — نفس المصر في الذى حولت إليه أموالى من (تورين) وكان يدعى « جريى » !
وذهبت الكونتة مع « تريوليتش » فى المساء إلى الأوبرا — وقد تأكدت من أنهما عشيقان — بينما صحبنى الكونت إلى أحد منتديات المقامرة ، حيث خسرت مبلغا من النقود . ثم ذهبنا إلى الأوبرا ، حيث خسرت مبلغا آخر . وبهتت الكونتة ، إذ أنها لم تكن تدري مدى ما أمتلك ، فنصحتنى بأن أعوض خسارتي ، بأن أبيع للمركز ثوبا نسويا من الحرير الغالى كان قد رآه بين أمتعتى وأعجب به . ولكننى رفضت العرض ، ولم يفتنى أن ألمح استياءها ، مما أكد لى أنها كانت ترجو أن يتاع المركز الثوب ليهدىها إياه !

كازانوفيا يهاجم « غرور » الأسبانية !

وفى اليوم التالى ، سألتنى الكونتة أن أصطحبها فى عربتى إلى حفلة راقصة ، فأدركت أنها تتلطف لى من أجل الثوب الحريرى . لذلك قلت لها ونحن فى العربة ، جنبا إلى جنب — إن الثوب تحت أمرها ، إذا هى تلطف فى مسلكها نحوى . وإذا بها تجيب قائلة : « إنك تهيننى يا سيدى ! » . فقلت : « ليس فى الإعجاب أية إهانة يا عزيزتى الكونتة .. ألا أسعدينى بارتداء ذلك الثوب » .

— لو أننى كنت أحبك لغفرت لك ، ولكن تصرفك يضاعف من نفورى منك !
— أحسبك كنت تؤثرين أن أكون أكثر حياء وترددا ، وأنا أبدى إعجابى بك !

— مهما تفعل فلن أحفل بك !

— إننا في هذا سواء ، إذ ما أحسبني سأحفل بك يوما . وإذا كنت قد أظهرت استعدادي لأن أهديك الثوب ، فما ذلك إلا رغبة في تحطيم غرورك وكبريائك اللذين لا يطاقان !

وليس غير الله من يعلم ما كانت الأسبانية المغرورة خليقة بأن تفعل ، لو لم تقف العربدة بباب الملهى !.. وتركتها في مقصورتها ، بينما ذهبت إلى قاعة المقامرة ، حيث خسرت مبلغا جسيما . وفيما كنت والكونتة عائدتين إلى القصر ، استأنفنا الشجار ، إذ قالت : « لقد سرني أنك خسرت .. إن المركز على استعداد لأن يدفع لك ألف دينار ثمنا للثوب ! » . فقلت : « ولعلك تحبذين ذلك ، لكى ترتدى الثوب !.. ولكننى لن أنيلك إياه ، فأنت تعرفين الطريقة الوحيدة لكى تظفرى به ! » .

الزوج يتوسط .. إرضاء لزوجته وعشيقها !

وزارنى الكونت فى غرفتى فى تلك الليلة ، ليحاول من ناحيته إغرائى على أن أبيع الثوب للمركز . ولكننى أرجأت بحث الأمر إلى الغد . واستيقظت فى ساعة مبكرة ، فذهبت إلى « جريبي » المصرى ، وسحبت ألف دينار ، بعد أن أوصيته بأن لا يذكر ذلك لمخلوق ما ، خشية أن يبنى « تيريزا » .. وما أن عدت إلى غرفتى ، حتى ألفت الكونت جالسا أمام المدفأة ، فحدثنى عن غضب زوجته منى . وإذ ذاك قلت فى صراحة : « إنها غاضبة لأننى أصر على أن لا أدع أحدا سواى يهديها الثوب الحريرى ، ولكنها تأبى أن تتقبله منى » .

— إنها حمقاء !.. على أننى أعرف أنك لا تحفل بالمال ، وإن كانت الألف

دينار كفيلة بأن تسعدنى . لذلك أناشدك أن تنزل عن عنادك ، إكراما لصداقتنا ، فتقبل المبلغ من المركيز ثم تقرضنى إياه !
وانفجرت ضاحكا ، ثم قلت له : « سأبيع الثوب لثريوليتس ، ولكننى لن أقرضك المبلغ ، بل سأقدمه لزوجتك ، على شريطة أن تبدى تلطفاً نحوى ! » .. فنكس المسكين رأسه ، وهو متضرج الوجه حياء .. ثم خرج .
وفى ذلك المساء ، التقيت بشاب من البندقية يدعى « باربارو » ، كان من نزلاء السجن معى ، فدعانى إلى أن أصحبه إلى بيت محترم ، يجتمع فيه نفر من علية القوم للمقامرة ، فى كل مساء . وعرض علىّ أن أشارك معه فى مؤامرة صغيرة للكسب ، فوافقته من قبيل الفضول . وما أن بلغنا البيت ، حتى قدمنى لأهله ، وكانوا أربعة ! مركيز شيخ مليح الوجه ، وسيدة بادية الوقار والاحترام ، وشابتان شقيقتان ، هما ابنتا أخت للمركيز ، وتحمل كل منهما لقب مركيزة . وما لبث أن أقبل حوالى عشرين شخصا من ذوى الجاه والثراء .

كازانوفاً .. يؤنس الزوجة !

وقضيت بعض الوقت فى اللعب ، ثم غادرت المائدة ، بعد أن أقرضت « باربارو » مبلغا ليلعب به ، على أن يكون لى نصف الربح . ثم رحت أحوم حول الشابتين ، فقد كانتا بارعتى الجمال !
والتقيت بثريوليتس فى دار الأوبرا فى ذلك المساء فبادرنى قائلاً : « علمت أنك قبلت أن تبيعنى الثوب الحريرى ، وإنى لأشكرك ، وأضع تحت إمرتك خمسة عشر ألف فرنك ، تأخذها متى شئت ! » .. وانتهزت الفرصة فرحت

أستدرجه ، حتى وصلت في المناقشة إلى ذكر المركيزتين الشابتين ، فقال :
« إننى أعرفهما ، فهما من أسرة من أعرق الأسرات ، ولم أسمع عنهما كلمة
سوء واحدة .. ويقال إن لإحدهما عشيقا ، ولكن هذا من الأسرار طبعاً ..
وفى وسعى أن أقدمك إليهما إن شئت ! » وفى اليوم التالى ، قدم المركيز الثوب
إلى الأسبانية المغرورة ، فتلعثمت ولم تدر كيف تشكره . ولكنه ضحك
ونصحها بأن من الحكمة أن تبيعه ثانية ، لأن الناس يعرفون ما كانت الأسرة
تعانيه من شظف ، ومن ثم فسوف يثير ظهورها فى ثوب غال كهذا أقاويل
السوء .. وجلبت عليه هذه النصيحة غضب السيدة وشتائمها ، ولكنه راح
يجيبها فى عبارات ظاهرها الأدب ، وباطنها سخرية لاذعة !

وعندما تأهب للانصراف ، نقدنى خمسة عشر ألف فرنك ذهباً . وإذ
انصرف ، سألتنى الكونت أن أؤنس زوجته فى غيابها ، إذ كان مضطراً إلى
التغيب خارج الدار بعض الوقت ، فقلت فى لهجة لاذعة : « اطمئن إلى أن
الألف دينار فى جيبي ، وسأسلمها لزوجتك إذا أثبتت أنها عاقلة ! »

تَبَدَّل سَيِّدَةٌ .. وَتَعَفَّفْ خَادِمَةٌ !

وصعدت إلى غرفتى ، فاستبدلت بالفرنكيات الفرنسية الذهبية ، الدنانير
الألف التى سحبتها من « جريبي » . وخلعت ثيابى ، وارتديت ثياب البيت .
على أننى لم أخف لإيناس الكونتة فوراً ، إذ وافتنى فى الغرفة خادم فاتنة كانت
مخطوبة إلى ترزى فقير ، وقد حاولت إغراءها مرات فلم تغلح معها أساليبي ،
مما جعلنى أكبرها ، وأمد لها ولخطيبها يد العون ، كى يعجلا بزفافهما .. وقد
أقبلت تنبئنى بأن الزفاف سيتم بعد يومين .

وكانت الكونتيسة في فراشها حين سعت إليها ، فلما رأتني في ثياب البيت تساءلت : « أوتراك ستضحى بسهرتك ومقامرتك لإيناسي ؟ » . فقلت : « بلا شك » .. وقالت « إنك تحسن صنعا ، فمن الحرام أن تبدد المبلغ الذي أسلمك إياه المركيز مقابل الثوب ! » .

مع الكونتيسة المغرورة في مخدعها !

وأجبت قائلا : « إنني لن أبدها ، إذ أعزم أن أقدمها إليك أنت . ولكنني أشعر بقشعريرة لفرط البرد ، فهل أغلق باب الغرفة ؟ » .. وأبت الكونتيسة أن أفعل ، فقلت لها : « إذن ، فسأنصرف ! » . وعند ذلك قالت : « لا بأس أيها الرجل المفسود الشرير ! » .

وهكذا مكثت معها ، ولكنني لا أدري لماذا لم أستمتع بهذا البقاء .. أكان ذلك لأنني كنت لا أفئا أتذكر الثوب وشمته ، أم لأنني كنت أتذكر الخادم العفيفة — التي أبت أن ترضيني وفاء منها لخطيئها — فكنت أشمئز من مسلك الكونتيسة ! .. والحق أنني لم أكن كريما في تصرفي ، إذ لم ألبث أن تهيأت للانصراف ، وأنا أقول :

— ليس الذنب ذنبي يا سيدتي ، ولكن مفاتنك ليست قوية السلطان على مشاعري .. فإليك ألف دينار أرجو أن تجدي فيها عزاء وسلوى !
وكانت ثمة حفلة تنكرية راقصة في دار « الأوبرا » ، في ذلك المساء . فأسرعت وارتديت ثوبا أيقنت أن أحدا لن يكتشف شخصيتي من ورائه ، وخاصة لأنني استبدلت كل شيء كنت أستخدمه .. حتى علبة السعوط والساعة وكيس النقود . ولم يعد ثمة ما يشي بحقيقتي ! .. وما أن بلغت دار

« الأوبرا » ، حتى دلفت أولا إلى قاعة المقامرة ، حيث خسرت مبلغا كبيرا ، جعل الجميع يتوقعون أن أبادر بمبارحة المكان . ولكن ميزان الحظ لم يلبث أن انقلب ، فإذا بي أكسب ، وأكسب ، حتى بلغ مجموع أرباحي — عندما نهضت في النهاية — ألفين وثمانمائة وستة وخمسين دينارا .

مناورات .. على سلم « الأوبرا » !

وفيما كنت أهبط السلم ، لحقت بي حسناوان تخفيان وجهيهما وراء نقابين ، وقالتا : « إن كبير محققى ديوان التفتيش فى انتظارك لدى الباب ا ! » .. وأدركت من عبارتهما أنهما اكتشفتا شخصيتى ، وإن لم أستطع أن أعرف شيئا عن حقيقة شخصيتهما !

وسألتنى إحداهما أن أسمح لها ببعض السعوط من علبتى ، فقدمت اللعبة إليها . وفيما كانت تتناول حاجتها ، ضغطت بإصبعى زرا فى اللعبة ، فانحسر الغطاء عن صورة ، ما أن رأتها الحسناوان حتى تضرج وجهاهما ، وشهقنا مأخوذتين ، مستنكرتين .. فقد كانت الصورة عارية ، جريئة ! .. وقالتا : « ياللعار ! .. لن نسمح لك قط بأن تعرف من نكون ، عقابا لك على قحتك ! » .

واستأثرت لأن تصرفى أغضبهما ، فرحت أقتفى أثرهما ، وإذا بي ألتقى بصديقى « باربارو » ، فعلمت منه أنهما لم تكونا سوى المركيزة « ك. » والمركيزة « ف. » ، اللتين كنت على استعداد لأن أضحي بنصف عمرى لاكتساب ودهما ومحبتهما !

موعد .. فى فندق « الملوك الثلاثة »

وقبل أن تنتهى السهرة ، تقدمت فتاة فى زى فلاحات البندقية ، وتحدث أن يرقص معها أحد الرجال رقصة فلاحى (فريولى) ، وهى رقصة غريبة ، طويلة ، ومضنية .. وتقدم أحد الشبان ، ولكنه سرعان ما تعب وجعل من نفسه أضحوكة للجميع ، مما دفعنى إلى أن أتقدم متحديا الفتاة .. وقبلت الفتاة .. والتف الكل حولنا ، وراحوا يرقبوننا فى اهتمام .

ورقصنا مرتين .. وكان فى هذا ما يكفى لإرهاق أى رجل ، لولا أن فتاة فى زى الرعاة سألتنى أن أجرب حظى معها ، فلم أنكص .. وكانت بارعة لينة الأعطاف ، رشيقة الحركة ، حتى إننى درت معها أرجاء القاعة ثلاث مرات .. وما لبثت أن تعبت وتهدجت أنفاسى ، وإذ ذاك همست الفتاة باسمى فى أذنى ، فعجبت لأنها استطاعت أن تعرفنى رغم تنكرى ، وطربت لسماع اسمى يخرج من بين شفيتها ، فسألتها عن اسمها . وكان جوابها أن قالت إنها من البندقية ، وإن يوسعى أن أعرف اسمها إذا أنا ذهبت للقائها فى فندق « الملوك الثلاثة » ، فى يوم الاثنين التالى ! وأردفت قائلة : « إننى أنزل هناك مع أبى وأمى ، وهما من أصدقائك القدامى ! » .

دماء كازانوفيا تختلط بدماء « الكونتة » !

ولم أر الكونتة الأسبانية إلا في مساء اليوم التالى ، عندما أعدت مائدة العشاء .. وكان زوجها متغيبا ، وحملنى الأدب على أن أتلطف إليها ، وأن أعذر عن مسلكى السابق . وبدت من ناحيتها في غاية اللطف والرقّة . وأيقنت أنها كانت تحتال لغاية في نفسها .. إذ كانت أعياد الكرنفال قد اقتربت ، ولا بد أن تدبر نفقات الاحتفال بها .. وقدمت لىّ علبة سعوط ، بعد أن تناولت نصيبا منها ، فقلت وأنا أتأمل ما فى العلبة : « ولكن هذا ليس سعوطا يا كونتة ؟ » .

.. فأجابت : « لا ، إنه مسحوق لمغالبة الصداع .. إنه يجعل الدم الفاسد ينساب من الأنف ! » . واستأنت لذلك ، بيد أننى قلت ضاحكا : « ولكننى لا أشكو من صداع ، ولا أحب أن ينساب الدم من أنفى ! » .. وما زالت لى حتى تناولت من ذلك السعوط ، وسرعان ما رحننا نعطس معا . وما لبثت أن سقطت من أنفى نقطة من الدم ، فتناولت الكونتة وعاء من الفضة ، وقالت : « اقترب منى ، فقد بدأ الدم ينساب من أنفى أنا الأخرى ! » .

وهكذا أسند كل منا رأسه بيده ، فوق الوعاء الفضى .. ولم يلبث الدم أن أمسك عن الانسياب بعد دقائق ، فغسلنا أنفينا بالماء البارد ، وإذ ذاك قالت الكونتة : « الآن امتزج دمك بدمى ، ولسوف يؤدى هذا إلى توثق التعاطف بيننا ! .. ولعلنا سنظل مرتبطين بالصدقة إلى نهاية العمر ! » .

راهب .. ينذر أمير العشق !

ولم أحفل كثيرا بكلامها ، ولكن القراء لن يلبثوا أن يروهوا — بعد قليل — مدى ما فى قولها ذاك من صحة أو خطأ .. على أننى سألتها أن تعطينى قليلا من ذلك المسحوق ، فرفضت ، كما أبت أن تذكر لى اسمه ، قائلة إنها حصلت عليه من صديق لها .. وعبثا حاولت العثور — لدى باعة العقاقير — على مسحوق له مفعول ذلك المسحوق ! .. وقد شغل هذا الأمر بالى ، كما شغله يقينى من أن الأسبابية كانت تكرهنى .. فلم يلبث التفكير فى هذا الأمر ، أن جعلنى أعلق أهمية كبرى على ما حدث !

وفى اليوم التالى ، جاء راهب من « الكابوشان » ييغى مقابلتى ، فطلبت إلى تابعى أن يمنحه شيئا من الصدقات ، ويصرفه . ولكن الراهب أصر على أن يلقانى . فلما صار أمامى ، بادرنى قائلا : « أصغ لما أقول يا سيدى ، ولا تزدر ما سوف أنذرك به ، فقد تدفع حياتك ثمنا لذلك ! .. فإذا استمعت لحديثى ، فسوف أنبئك بما ينبغى أن تفعل ، ولكن .. إياك وأن توجه إلى سؤالا واحدا ، لأننى لن أجيبك .. ولعلك تدرك من تلقاء نفسك أن صمتى راجع إلى احترامى لأسرار الاعتراف ، وإلى أن عهدى لا تسمح لى بأن أفشى بما قد يشئ بسر استودعنى إياه أحد الذين يدلون باعترافهم لى .. إننى مضطر إلى أن أتحدث إليك . وقد ساقتنى العناية الإلهية إليك لإنذارك ! » .

وأكدت للراهب أننى سأصغى لأقواله ، فأقدر إنذاره ، وأخذ بنصحه ، وأقسمت له أننى لن أذكر لأحد أنه تحدث لى أو أنه قابلنى . وإذ ذاك فقط ، سألتنى الراهب أن أذهب وحدى قبيل الظهر ، إلى دار معينة ، فى ميدان معين (مدكرات كازانوف)

بالمدينة .

واستطرد الرجل قائلا : « .. واطرق الباب الأيسر فى الطابق الثانى ، وقل لمن يفتحه لك ، إنك تود الحديث إلى مدام (...) ولسوف يسمح لك بالدخول دون عناء ، وما أظن أحدا سيسألك عن اسمك ، ولكن عليك — إذا سؤلت عنه — أن تتحلل اسما آخر .. فإذا قابلت مدام (...) ، فتحدث إليها بهدوء ورفق ، وحاول أن تكسب ثقتها ، فهى امرأة مسكينة .. ولو أنك منعته شيئا من المال ، لاطمأنت إليك . وإذ ذاك ، قل لها إنك لن تبارح حجرتها حتى تعطيك الزجاجة التى حملها إليها — فى الليلة الماضية — خادم ، وأحضر إليها رسالة مع تلك الزجاجة . وكن حازما قاطعا فى لهجتك إذا هى رفضت ، ولكن .. حذار من أن تحدث أى جلبة ، أو أن تدعها تبرح الحجرة أو أن تتمكنها من أن تدعو أحدا .. وإذا دعت الحاجة ، فعليك أن تعدها بأن تمنحها ضعف المبلغ الذى وعدتها به الطرف الآخر ، إذا هى سلمتك الزجاجة .. ولن يكون المبلغ جسيما ، ولكنه فداء لحياتك .. ولن أزيد . ولكنى أود أن تعدنى بأن تصدع بما قلت لك » .

وباركنى الراهب — بعد إذ وعدته — ثم انصرف وهو يدعو لى .

العرافة ذات الوجه الخفيف

ولم أشعر بميل إلى الضحك أو الاستهتار بحديث الراهب ، فقد كانت بنفسى بقية من الإيمان بالخرافات ، والسحر ، كما أن الرجل كان يبدو صادقا أمينا . ومن ثم فقد بادرت إلى التزود بمسدسين ، ثم انطلقت إلى البيت الغامض ، وصحبني وصيفى « كليرمون » إلى الساحة ، حيث أمرته بأن يقبع

في انتظاري .

واقتردت إلى امرأة دميمة رهيبة المنظر ، منحتها قطعتين من الفضة ، فقالت إنها تعرف أنني عاشق ، وأننى المسئول عن أى شقاء حل بى ، وأنها ستعطينى شيئا يساعدنى على مغالبة ما أعانى ! .. وأدركت أنني فى حضرة عرافة محترفة ، فقلت لها إننى لن أبرح الحجرة حتى آخذ الزجاجة والرسالة التى كانت معها .. وإذا بوجه المرأة يبدو مخيفا ، وأخذت ترتجف فى عنف ، وحاولت أن تغادر الحجرة ، ولكنى شهرت مطواقى فى وجهها . وقلت لها إننى سأضعف المبلغ الذى وعدتها به غريمى ، فهدأت نفسها . وقالت : « لقد وعدت بستة قطع فضية ، ولست أرتاب فى أنك ستدفع لى الضعف ، فقد عرفتك .. إنك جياكومو كازانوفا البندق ! » .

ووضعت اثنتى عشرة قطعة فضية على المنضدة ، وإذا ذاك تفرقت عيناها بالدموع ، وقالت : « ما كنت لأتسبب فى موتك ، ولكنى كنت على استعداد لأن أجعلك تكتوى بالحلب حتى الجنون ! » .

دم .. وتمثال .. وسحر !

واقتردتنى إلى غرفة داخلية ، امتلأت بزجاجات وقنينات من كافة الأحجام ، وبأحجار متباينة الألوان ، وبمعدن ، ومسامير كبيرة وصغيرة ، وبواتق ، وفرن ، وكثير من التماثيل التى لا شكل لها .. وأشارت إلى زجاجة وهى تقول : « ها هى ذى زجاجتك ! » . فسألتها : « وماذا فيها ؟ » ، فقالت : « دمك ممتزجا بدم الكوننة ، كما تستطيع أن تتبين من هذه الرسالة ! » . وأدركت جليلة الأمر ، فأحسست بشعر رأسى يقف إذ تمثلت ما فكرت

فيه الأسبانية الفظيعة .. وأخذ العرق البارد يتفصد من جسدى .. وسألت الساحرة : « وما الذى كنت ستفعلينه بهذا الدم ؟ » .. فأجابت : « كنت سأنضحك به .. كما ترى ! » .. وفتحت صندوقا طوله حوالى القدمين ، فإذا به تمثال من الشمع ملقى على ظهره . وقد نقش اسمى عليه . ومع أنه كان سىء الصنع ، إلا أن ملامحى كانت واضحة عليه !

ولم أتمالك أن ضحكت إذ رأيت بعض أجزائه مشوهة الشكل ، غير متناسقة ، فقالت العجوز : « ما كنت لتضحك لو أننى غسلت هذا التمثال بالدم ، وتلوت عليه التعاويذ التى لا يعرفها سواى ! .. وكان الأمر خليقا بأن يصبح أبشع وأقسى ، لو أننى وضعت التمثال على مدفأة ، وتركته يكتوى بنارها ! » .

وارتاحت المرأة إذ أمرتها بأن تصهر التمثال أمامى ، فقد خشيت أن أحمله معى كقرينة لإدانتها .. وعقدت العزم على أن لا أجعل الكوننة تشعر بأننى كشفت مؤامرتها . بل إننى أبديت لها من الأدب ما لم أبد من قبل ، وأنا أحمد لها إيمانها بالسحر ، إذ صرفها هذا عن أن توعد إلى أحد المجرمين أن يثأر لها منى .. ومنذ ذلك الحين ، لم تسبب لى الكوننة أية مضايقة !

التأهب لحفلات الكرنفال

ولا ريب فى أن القارئ لم ينس بعد الفاتنتين — ابنتى العم — اللتين اقتادنى « باربارو » إلى منزلهما ، واللتين قابلتهما فى الحفلة الراقصة التنكرية .. فلقد أتيت لى أن أتعرف إلى شقيق إحداهما — وكان ضابطا — فسرعان ما توثق الود بينا ، وأصبحت أتردد على دارهم .. وكانت الفتاتان تتحرقان شوقا إلى

مهرجان تنكرى كبير ، كان موشك على الانعقاد فى (ميلان) ، وكان أهلها يرفضون أن يسمحوا لهما بالاشتراك فيه ، فوعدهما بأن أدبر لهما خطة تمكنهما من تحقيق رغبتهما .

و كنت عند وعدى للفاتنتين بأن أدبر لهما خطة تمكنهما من تحقيق رغبتهما .. كان أول ما فعلته ، أن استأجرت — فى شارع منعزل — مسكنا ذا أربع حجرات ، ثم أطلعت الضابط على خطتى فقال :

— لست أرى مجالا للاعتراض ، ولكنى مضطر إلى أن أصحب معى شابا من النبلاء من أعز أصدقائى ، ومن أشد المعجبين بابنة عمى .

— على الرحب والسعة ، فاستعدوا جميعا عند غروب شمس يوم الأحد ، وسنلتقى جميعا ، فتنناول العشاء معا ، ثم نرتدى ثياب التنكر ، ونذهب إلى المهرجان .. ما طول حبيبتيك ؟ .. وما شكل صديق ابنة عمك ؟

فأجاب : « إن حبيبتي أقصر من أختى بخمسة سنتيمترات ، وتزيد عن سمئة بعض الشيء .. أما صديقى ، فهو فى قوامك تماما » .. وعلى هذا ، فقد أخذت بزة من المخمل الأزرق ، طرزت حوافها بالحرير الأبيض ، وبزة من المخمل الأصفر الغامق ، وسترتين وصداريتين من الحرير الموشى . كما أخذت للمرأتين ثوبين أحدهما من الحرير الأحمر النارى ، والآخر من الحرير البنفسجى الباهت .. وأقمصة للرجال وللنساء ، ومناديل ، وبضع ياردات من المخمل والحرير ، ودفعت مائتى دينار ، على شريطة ألا ييوح صاحب المتجر بأننى ابتعت هذه الأشياء من عنده ، فإذا تسرب السر ، صار عليه أن يرد إلى نقودى ، وأن يسترد بضاعته !

ثياب مهلهلة تستأثر بالإعجاب !

وحملت بما اشتريت إلى حائك كنت واثقا من كتمانہ للسر ، وبسطت الأشياء في إحدى الحجرات بالمسكن الذى استأجرته . ورحت بخنجرى أحدث قطوعا وثقوبا في السترتين ، والرجل ينظر مبهوتا ، ثم دفعت إليه ياردات القماش ، وقلت له : « والآن ، عليك أن ترتق وأن (ترقع) القطوع بألوان مغايرة ، ولن تبرح هذه الحجرة حتى تفرغ من مهمتك ! » .

فسألنى الرجل : « ولكن ، هلا أخبرتنى بالله عن السر فيما فعلته بهذه الثياب ، وهل سترتونها بهذا الشكل ؟ » .

وقلت وأنا أرقب دهشته وحيرته : « تماما .. وكما هي ا » .

وأسرعت فابتعت خمسة أزواج من الجوارب الحريرية الشهباء اللون ، وقبعتين من الفرو ، وقناعين مضحكى الشكل مما يستخدمه الرجال في « الكرنفال » ، وثلاثة أقنعة مناسبة للسيدات ، وثلاث صحاف من الخزف المنقوش . وعدت إلى المسكن ، فإذا « زنوبيا » — زوجة الحائك — قد جاءت تساعد زوجها . وخیال المرأة عادة أنشط وأسرع من خیال الرجل ، لذلك فإن « زنوبيا » لم تكد تلمح الفكرة التى كنت أرمى إليها ، حتى انكبت على العمل في براعة لا تتأق إلا لامرأة .. فراحت تمزق الأثواب وتقطعها ، ولكن .. بشكل يجعلها تستحوذ على الإعجاب رغم تهلهلها !

وجاءت الثياب بمجموعة عجيبة في حد ذاتها .. كان التزيق على أشده عند العنق والكتفين والذراعين ، بحيث أن ثياب النساء منها كانت كفيلة بأن تبدى الأقمصة الداخلية في وضوح ، وبأن تكشف — في الأجزاء السفلى منها — عن

« كازانوفا » يتنكر في شخصية غجرى

ثم هذا العمل في يوم السبت ، بينما كان المهرجان في يوم الأحد . لذلك لم ألبث أن نقدت الحائلك أجرا سخيا ، وصرفته مع استبقاء زوجته لتعنى بحاجات الحسان الثلاث اللاتي لم أطلعهن على شيء من أسرار الخطة التي رسمتها ، ولا على الثياب المهلهلة التي أعددتها لهن !

وقلت للضابط الشاب ، الذي كان شقيق إحدى الفاتنتين ، وابن عم الأخرى ، والذي دعا صديقة له وصديقا لابنة عمه في ضيافتي :

— إن عليك الآن أن تحصل على عربة ذات أربعة جياذ ، على أن تتسع لأربعتك .. أعنى لك ولصديقتك وللحسناوين . وعليكم أن تستقلوا هذه العربة ، فتخرج بكم من أحد أبواب المدينة ، ثم تعود بكم من باب آخر ، فإذا ما استقر بكم المقام في المسكن الذي استأجرته ، فسيكون في وسعكم أن تذهبوا للرقص سيرا على الأقدام ، وأن تعودوا في محفات ، وبذلك نضلل كل من يحاول أن يقفوا آثاركم !

وكنت قد عولت على أن أتنكر في شخصية نوري من الغجر السمر ، فليس ثمة ما هو أضمن لإخفاء شخصية المرء ، من أن يغير لون بشرته !

المتسولون الخمسة في المهرجان !

وكان الخائف قد أعد لى بزة بديعة ، فوضعت فى جيبي السروال كيسي
نقود جديدين ، بكل منهما خمسمائة دينار . وما أن حانت الساعة السابعة من
مساء الأحد ، حتى كانت المائدة معدة للعشاء . وبعد خمس دقائق ، حضر
القوم وكان صديق أخت الضابط مركيزا شابا ، جميلا ، ساحرا ، واسع
الغراء . وقد بدا أنه كان كلفا بها ، كما كان يميل إلى أخيها ويحترمه .. أما عشيقه
الضابط ، فكانت فاتنة ، وكانت تهيم بحبيبتها فى وجد صادق !

وبعد العشاء قلت لهم : « بما أننى لن أكون معكم ، فقد آن لى أن أشرح
لكم أدواركم .. لسوف تتقسمون شخصيات خمسة من المتسولين ..
رجلين ، وثلاث نساء . وسترتدون ثيابا مهلهلة ! » .

واغتيبت — فى دخليتى — حين لمحت الامتعاض على وجوههم ، ولكننى
كتمت مشاعرى ، واستطردت قائلا : « وسوف يحمل كل منكم صحيفة
من الخزف ، وعليكم أن تطوفوا بقاعات الرقص ، متشابكى الأذرع ،
تسألون الحضور إحسانا . وليكن كل همكم أن تجيدوا أدوار التسول ! »
ونهضت إلى باب المخدع ففتحته وأنا أقول : « والآن .. تعالوا فارتدوا
أسمالكم ! » .

وكان أول ما وقع عليه بصرهم ، هو منظر « زنوبيا » الجميلة ، وقد وقفت
وسط ركाम من الثياب المهلهلة ، التى كان من الواضح أنها من أغلى
الأقمشة .. وتحولت إذ ذاك إلى النساء قائلا : « ها هى ذى ثيابكن يا
سبداى .. وهذه هى الأقمصة ، والجوارب ، والمناديل .. وستجدن على

مائدة الزينة من المواد ما يفنى بحاجتكن . وهذه هى أقنعتكن ، والصحاف التى ستجمعن فيها الصدقات .. ولسوف تشهد أربطة السيقان بفقركن ، كما أن الثقوب التى تتخلل الجوارب تبين أنكى لا تملكن ثمن الخيط الحريرى الذى ترتقن به هذه الثقوب .. ولسوف تربطن أحدىتكى بقطع من الخيط ، إمعانا فى إظهار الفقر ، كما أنكى ستجدن الأحدىة ممزقة الأطراف ، لتبدو عتيقة بالية ! » .

وبينما كنت أقول هذا ، لمحت الامتعاض ينحسر عن الوجوه رويدا ، ليحل محله الإعجاب !

موكب المتسولين فى المرقص !

وتحولت بعد ذلك إلى الرجلين فقلت لهما : « وهذه أسمالكما ، فما رأيكما فيها ! .. ولكن ، لنغادر الغرفة أولا ، حتى تخلو للسيدات فيستبدلن ثيابهن فى ارتياح ! » .

وبدا المركزيز متحمسا ، فهتف : « لكم ستبدو أشكالنا عجيبة ! .. إنه لتدبير رائع ! .. وإنه لمثال للبذخ والإسراف ، أن تمزق كل هذه الثياب الغالية ، لتتنكر فى أزياء متسولين ! » .

وإن هو إلا نصف الساعة ، حتى كنا على أهبة الاستعداد ، وقد بدا الضيوف الخمسة فى أزرى صور الفقر والمسغبة .. وكنت — فى شخصيتى النورية — لا أقل عنهم زراية !

وكانت السيدات قد تركزن شعورهن مشعثة ، مهذلة . وقد كان شعر المركيزة « لك. » — وهى إحدى الفاتنتين — أطولها ، حتى لقد بلغ ركبتها ! ..

وخلال الأسمال المهلهلة ، بدت أذرعتهن البضة ، وأكتافهن ، ونحورهن ،
وسيقانهن !

ورحت أرشدهم إلى أساليب التظاهر بالتقوى والذلة ، والتخلص من كل
ارتباك واضطراب ، وأن يكشفن عن أن ثيابهن المهلهلة كانت — فى حد ذاتها
ثروة ، إذ أنها صنعت من أغلى الأقمشة — دون أن يناقض هذا ما كن يمثلنه من
فاقة وتسول !

وما لبثنا أن ارتدينا أقنعتنا ، وشرعنا فى سيرنا نحو المرقص .. ولم يلتفت أحد
إلى فى الطريق ، فقد كان ثمة كثيرون متنكرين فى زى العجر . ولكن منظر
رفاقى استأثر بالانتباه ، فإذا القوم جميعا يتأملون فى عجب هذا الموكب
العجيب .. وكان المركيز يسير بين حبيبتيه وابنة عمها ، وقد راحتا تسيران فى
بطء ، وهو يحاول أن يتمشى مع خطاهما .. واستطاعت المركيزة « ك » أن
تحظى — بثوبها الذى كان فى حمرة اللهب — وشعرها الرائع — بأكبر قسط
من إعجاب الناس ، الذين أخذوا يقتربون حتى أصبحوا يحاصرون الموكب ،
بمجرد ولوجنا المرقص !

وعزفت الموسيقى لحنا تمهيديا ، كافتاحية للمهرجان . وتقدم ثلاثة
أشخاص ظاهرو الثراء — رغم أقنعتهم — فسألوا متسولاتى الثلاث أن
يراقصنهم ، ولكن الحسان اعتذرن بأن أحذيتن ممزقة ، مكسورة الكعوب !

فى غرفة المقامرة

وظللت أتبعهن زمتنا حتى اطمأنت إليهن ، فتسللت إلى غرفة المقامرة ،
حيث تربصت حتى خلا مقعد إلى المائدة ، فسارعت إلى احتلاله .. وكان

يجلس إلى « البنك » شخص يدعى « كانانو » ، وإلى جواره سيدة ، سمعتها تقول له : « لقد قابلت الشيفالبييه دى سينينجال فى الخارج مع أربعة من المتسولين ! » .. وكان سينينجال هو المركيز عشيق أخت الضابط ! وأدركت أن القوم بدأوا يتحدثون عن المتسولين الخمسة ، وإن لم يوفق أحد إلى كشف حقيقة شخصياتهم ، فاعتبطت فى سريرتى . ولعبت ، فخسرت ستة أدوار متوالية ، ولكن الحظ لم يلبث أن ارتد إلى ، فربحت ما خسرت ، وفوقه بكثير ، حتى إذا رأيت « البنك » قد بدأ يختل ، توقفت عن اللعب .. وفيما كنت أحصى أرباحى ، صاح شخص ما : « ها قد وصل المتسولون ! » .

ورمى « كانانو » المركيز مليا ، ثم طلب منه بعض السعوط . وخيل إلى أنه كان موشكا على أن يكشف شخصية الشاب ، لولا أن هذا قدم إليه السعوط وهو ماض فى تمثيل دوره بإتقان رائع !

القوم يتكهنون بشخصيات المتسولين

ومد المتسولون صحافهم يسألون إحسانا ، فنثرت فى صحيفة المركيزة « ك. » حفنة من الدنانير ، وأجزلت العطاء لزملائها . وإذ ذاك قال « كانانو » وهو يتأملها بإعجاب : « لو أنها لعبت بهذا الشعر البديع ، لقومته بألف دينار ! » .. ولكن الحسنة تجاهلت الغزل ، فتحول « كانانو » نحوى قائلا : « يبدو أن الغجر يعطفون على المتسولين ! » .

وانحنى المتسولون إذ ذاك للقوم فى تواضع ، ثم غادروا الغرفة . فقال المركيز « تريولتس » ، وكان بين الحضور : « إن المتسول الذى يرتدى بزة

صفراء باهتة ، هو كازانوفا بعينه ! .. وكان يقصد المريكز ، الذى كان فى مثل قامتى .

فقال كانانو : « إننى واثق من هذا ، ولكن من أولئك الذين فى صحبته ؟ » . فأجاب تريولتس : « لسوف نعمل على كشف شخصياتهم . ولكن الذى لا شك فيه ، أن تنكرهم قد كبدهم مبلغا باهظا ! » . ولعبت مرة أخرى ، فربحت ألفين وخمسمائة دينار ، أعطانى كانانو فى مقابلها سندا قابلا للدفع عند الطلب ، فدستته فى جيبي — فى حرص — ثم سرت إلى مقصورة فى الصف الثالث من صفوف النظارة فى قاعة المسرح ، حيث كنت على اتفاق مع زملائي ، كى نلتقى .

عشيقتة القديمة تفسد عليه ليلته !

وما أن التأم شملنا ، حتى هتفت الفتيات : « إن جيوبنا مלאى بالنقود والحلوى » . فقالت لى حبيبة الضابط : « إننا مدينون لك بما لا نملك أن نوفيك جزاءه . لقد تسببت فى إسعادنا كل الإسعاد » .

فقلت : « إن الأمور رهن بخواتمها يا سيدتى ، وأرجو أن تكون نهاية سهرتنا خيرا من بدايتها بكثير ! » . وضغطت يد المريكزة « ك. » وأنا أقول : خذا ، فشعرت بأصابعها ترتجف فى قبضتى ! .. وإذ ذاك قلت : « تعالوا نهبط إلى قاعات الرقص ، فإننى مشوق إلى أن أرقص ، ولسوف ترون كيف يضحكمم الغجرى ! » .

وأعدنا أقنعتنا إلى وجوهنا ، ثم هبطت بعد أن سألتهم أن يتبعونى بعد حين . وفى قاعة الرقص ، وجدت حبيبتي القديمة « تيريزا » ، فدعوته — وأنا مخرج —

إلى رقصة ريفية .. وقالت وهى تضع ذراعها حول ذراعى : « إنك غجرى ماهر ، استطعت أن تفلس « بنك » مائدة اللعب ! » .. وما كنت أحسب لوجود « تيريزا » حسابا ، ولكنها أفسدت على ليلتى ، إذ خشيت أن تكتشف صلتى بالمتسولين !

.. وعد شرف !

ورقصت كالجنون ، دون أن أدخل بقواعد الرقص ، وإن رحت أقوم بحركات وحيل استغللت فيها كل براعتى ورشاقتى وما لبثت — بعد أن فرغنا من الرقصة — أن رافقت « تيريزا » إلى المقصورة التى كان عشيقها المصر فى « جريبى » ينتظرها فيها — فأسلمتها إليه . وكان الليل قد اكتمل ، فاستقلت محفة إلى المسكن .

وهناك ، لم يلبث موكب المتسولين أن لحق بى . وسرعان ما استبدلوا ثيابهم ، ثم استقلوا محفات إلى حيث كانت عربتهم فى انتظارهم لدى أحد أبواب المدينة .. وبقي المركيز معى ، فعالمبث أن قال لى فى أدب واستحياء — إنه يريد أن يتقاسم معى ما تكبدت من نفقات ، ولكنى أجبتة : « أخشى أن يكون فى سؤالك هذا ما يمس كرامتى ويحط من قدرى ، فى نظر نفسى ! » وتراجع معتذرا فقلت : « ليس للنقود أية قيمة لدى ، وأعدك بشرفى أن أسمح لك بأن تنفرد بالإنفاق فى أول مهرجان قادم يجمعنا » .

« ثلاثة » رجال ، و « ثلاث » نساء !

واستمر المهرجان إلى ما قبل الصوم الكبير بأسبوع . وقبل موعد آخر الحفلات التنكرية الراقصة ، جاءنى الضابط قائلا : « إن صديقى المركز يدعوك إلى تناول العشاء معه ومع فريق المتسولين . ولما كان قد أعد لنا مفاجأة سارة ، فإنه يسألك أن تعيره مسكنك لبضع ساعات قبل العشاء ، ويرجو أن تسمح لخادمتك اللطيفة أن تساعدته ! » .

وقبلت عن طيب خاطر .. وفي الليلة الموعودة ، اجتمعنا فى مسكنى ذاك ، فلم يلبث المركز أن اقترح علينا أن نرتدى الثياب التى أعدها لنا ، قبل أن نجلس إلى مائدة العشاء . ثم أشار إلى حزمة هائلة ، وقال : « ها هى ذى ملابسك يا سيداتى ، وسوف تساعدكن مدام زنوبيا على ارتدائها فى الحجرة الأخرى ! » .

ثم تناول حزمة أخرى ، حتى إذا انفردنا — نحن الرجال الثلاثة — فتحها ، فانفجرنا ضاحكين ، إذ وجدنا بها ثيابا نسائية أنيقة ، وثمينة ، وباذخة الوشى والزخرفة .. وكان علينا أن نرتديها ! .. ولم يكن قد أغفل شيئا حتى المراوح ، وحقائب اليد ، وأدوات الزينة ! وتكشفت خطة المركز الذكى .. فلقد تنكرت السيدات فى أزياء رجال ، وتنكرنا — نحن الرجال — فى أزياء نسوية ! .. وكان علينا أن نبدى كل رفق وليونة ، فى حين أنهن كن مضطرات إلى الظهور بأخلاق الرجال .

لقاء من خلف الأقنعة

وبعد أن جلسنا إلى المائدة زهاء ساعتين ، نهضنا متأهبين للذهاب إلى دار « الأوبرا » ، ولكن الاكتئاب غلب على وجهي ابنتي العم الفاتنتين ، إذ لم يرق لهما أن تذهبا للرقص في ثياب الرجال ومن ثم اقترحت أن نقضى السهرة في مسكني بين لعب و سمر . وفي اليوم التالي ، لم تكن ثمة حفلة راقصة ، فذهبت إلى دار « الأوبرا » ، ولازمت حجرة المقامرة ، حيث خسرت كل ما كنت أحمل من نقود . وفيما كنت أهم بالانصراف ، إذا بامرأة في زى رجل تسلمني إحدى أوراق اللعب ، وتسألني أن أراهن عليها ، فراهنت بمائة دينار .. وخسرت !.. وخسرت تسعمائة دينار فوقها ، فكتبت سندا يستحق الدفع في اليوم التالي !

وفيما كنت أتأهب لمغادرة الحجرة ، أقبلت رسول النحاس يصحبها شخص آخر متنكر . وأمسك هذا بيدي ، وهمس يسألني أن أذهب في الصباح التالي إلى فندق « الملوك الثلاثة » حيث ألتقي بصديق قديم !..

« كازانوف » .. في روما !

انتهى بي المطاف — بعد أن زرت فرنسا وإنجلترا وأسبانيا — إلى الإقامة في مسكن مفروش ، يواجه قصر السفير الأسباني في (روما) . وأصبحت أفضى الشطر الأغلب من صباحي في صحبة الكاردينال دي برنيس ، والأمير دي سانتا كروش ، وسفير البندقية .. ولقد كانت هذه الفترة من أسعد فترات حياتي ، إذ كنت أفضى أمسياتي في صحبة دوقه فيانو ، والأصيل في رفقة

الأميرة دى سانتا كروش . أما ما يبقى بعد ذلك من أوقاتي ، فكنت أفرغ فيه إلى « مارجریت » — ابنة ربة مسكنى ومديرته — وشاب كان يقيم فى البيت ذاته ، ويدعى « منيكوتشيو » ، شعرت نحوه بميل شديد .. وكان لا يفتأ يحدثنى عن فتاة تدله فى هواها ، وراح يسهب فى وصفه إياها ، حتى أثار شوقى إلى رؤيتها .. ولكنها كانت حبيسة مؤسسة داخلية — تابعة لأحد الأديرة — أودعت فيها منذ كانت فى العاشرة من عمرها ، ولم يكن لها أن تبارحها إلا لتتزوج ، وإذ ذاك كانت المؤسسة تمنحها مائتى « كروان » رومانى بمثابة « دوطه » لها . وكان « منيكوتشيو » قد رأى هذه الفتاة أثناء ترده على المدرسة لزيارة شقيقة له من نزيلاتها . وكانت المؤسسة فى أيدي نساء لم يكن راهبات بالمعنى الصحيح ، ولكنهن كن متشبثات بالبقاء فى هذا السجن ، إذ لا مورد لهن للعيش فى الخارج !

وبفضل الكاردينال ، استطعت أن أرافق الشاب فى زيارة المدرسة . وجلسنا فى غرفة معتمة إلى جانب الباب الخارجى ، وما لبث أن أقبل على الغرفة شبحا فتاتين فى رفقة المشرفة . وكان من العسير أن أتبين شيئا من ملامحهما فى العتمة ، وإن عرفت أن شقيقة منيكوتشيو كانت صاحبة الصوت العذب .

يعمل على إصلاح « سجن العذارى » !

ولم تكن المشرفة تتجاوز الثلاثين من عمرها ، فرحت أجازبها أطراف الحديث . وعلمت منها أن التلميذة إذا تجاوزت الخامسة والعشرين ، عينت مشرفة على التلميذات الصغيرات .. فإذا بلغت الخامسة والثلاثين ، جاز لها أن

تبرح المدرسة ، وإن كان معظمهن يؤثرن البقاء فيها ! وقلت لها : « إذن فلا بد أن بينكن عددا كبيرا من المكتهلات ؟ » .

— إن عددنا يربو على المائة ، ولا يهبط به سوى الموت أو الزواج .. على أننى لم أشهد. — خلال العشرين عاما التى قضيتها هنا — سوى أربع تزوجن ، ولم يتح لهن أن يرين أزواجهن إلا أمام المذبح .. فإن الكاردينال لا يقبل طلبا من أحد يريد الزواج من فتيات المؤسسة ، إلا إذا استوثق من أنه يستطيع أن يعولها !.. وهو لا يسمح للخاطب بأن يشهد الفتيات ويختار من تحلو له منهن ، بل إن كل ما يباح له هو أن يذكر السن والأوصاف التى يريدها فى الزوجة المنشودة ، فيعهد الكاردينال إلى مديرة المؤسسة باختيار فتاة تتوفر فيها تلك الأوصاف .

ولم أدر كيف كانت الإنسانية تسمح بقيام مؤسسة كهذه .. ولقد تحدثت إلى الكاردينال بهذا الصدد ، بحضور الأميرة دى سانتا كروش ، واتفقنا على أن نرفع إلى « البابا » التماسا ، ليباح لنزيلات المؤسسة أن يستقبلن الزائرين تحت اللوائح والقيود التى تطبق فى الأديرة !.. وفعل الالتماس — الذى جمعت الأميرة له توقعات من عليه القوم — فعله فى نفس البابا « جانجانيلى » ، الذى لم يكتف بما طلبنا ، بل أمر بالعمل على أن لا يزيد عدد الباقيات فى المؤسسة — فى أية فترة — على خمسين فتاة ، وبمضاعفة قيمة « الدوطة » .. وبأن تُفصل الفتاة التى تتجاوز الخامسة والعشرين دون أن تتزوج ، على أن تتسلم دوقتها كمنحة تستعين بها على العيش !

يعشق فتاة صغيرة رغم شيخوخته

وفي أول يوم أبيحت فيه الزيارات — بعد هذه التعديلات — رافقت منيكوتشيو .. وشاهدته فتاته .. فإذا بها مفرطة الجمال .. على أن أخته كانت فاتنة حقاً ، وكانت في حوالى السادسة عشرة .. أبداً لم أر في حياقي مثل بشرتها بياضاً ، ومثل شعرها وعينيها سواداً ، على أنها كانت مفرطة الشحوب ، مما كان ينم عن أن في أعماقها نيراناً تستعر ! .. والحق أنني شعرت بقلبي يتعلق بأرميلينا — كما كانت تدعى — ولكنى استنكرت من نفسى أن أعشق صبية في سنّها ، فرعمت لأخيها أنني متزوج ، لأقى نفسى نزوات فؤادى ، ولأصّد أرميلينا عن أن ترعى آمالاً لا تلبث أن تمنى بخيبتها !

ومع ذلك فإننى لم أقو على أن أكبح نفسى عن زيارة « أرميلينا » في الساعة التاسعة من كل صباح ، واعتدت أن أتناول قهوة الصباح معها ومع أيميليا — حبيبة منيكوتشيو — ثم أبارحهما في الساعة الحادية عشرة . وفي إحدى المرات — وكان ذلك في سنة ١٧٧١ — رحت أتوسل إلى « أرميلينا » أن تقبلنى ، فتضرج وجهها ، وغضت بصرها . ولكنها لم تجب سؤالى رغم إلحاحى . وأشفقت الأميرة علىّ من هذا الهوى الفاشل ، بيد أنها لم تكن تملك لى عوناً !.

وأخيراً يعست ، فقررت أن أبعد عن المغامرة . وقضيت ثمانية أيام لم أر فيها الفتاة المسرفة فى تمسكها بالفضيلة . على أننى تلقيت رسالة من مديرة المؤسسة ، جعلتنى أبادر بزيارتها . وكانت المديرة صريحة ، فمأ أن علمت أنني كففت عن زيارة المؤسسة ليأسى من « أرميلينا » وهواى ، حتى نهتنى إلى أن

هذا الانقطاع المبالغ من شأنه أن يثير الأقاويل حول الفتاة المسكينة ، وأن يوحى بأننى أشبعت نزواتى نحوها ، ثم نبذتها !

ووافقت على أن أعاود زيارتى ، وفى الصباح التالى ، ذهبت كعادتى السابقة ، فهبطت إلى « إميليا » ، وراحت توسعنى لوما على قسوتى . فقلت : « إنما أردت أن لأحملها على أن تشعر بأننى أغويها .. أفتظنين أن مسلكى كان سهلا بالنسبة لى ؟ » .

وأقبلت أرميلينا ، فخيل لى أن شكلها قد تغير .. وقلت لها إذ عاتبتنى : « إنما أرجوك أن تساعدنى على أن أبرئ نفسى بالوسيلة التى أراها ناجعة ! .. إننى أرجو — إذ أقلل من رؤيتك — أن أغالب فؤادى ! » .

— يبدو أن من العسير عليك أن تحبنى كما أحبك .. فأنا أحسن السيطرة على نفسى حين أشعر أن هواى يوشك أن ينأى بى عن مبادئى !
— هذه سياسة لا أمل لى فى أن أحققها ، فى سنى هذه !
— لكم أتمنى أن تصبح « بابا » ، أو تغدو والدالى ، أو أن تتحول إلى فتاة ، لنبقى طيلة ساعات أيامنا معا !

أخيرا .. يحظى بقبلات حبيبته !

تزوجت « إميليا » حبيبها فى عيد الفصح .. وفى تلك الأثناء كنت قد صحبت الفتاتين مرات إلى سهرات ، حاولت خلالها أن أبث فى نفسيهما المرح الذى أحمله تزمت تقاليد المؤسسة !

وفى ذات يوم أعربت « أرميلينا » والمشرقة عليها — وكانت تدعى سكولاستيكا — عن رغبتهما فى أن تشاهدا حفلة راقصة .. وكانت المهمة

صعبة ، فعرضت عليهما أن تتنكرا في زى الرجال . وأعددت العدة ، فاستأجرت حجرة في أحد الفنادق ، وحصلت لهما على طاقمين من ثياب الرجال . ولما صحبتهما إلى الحجرة التى كانت النار تتراقص فى مدفأتها — قلت لهما إن بوسعى أن أترك لهما الغرفة ، إذا آثرتا أن تكونا على انفراد . فقالت سكولاستيكا : « إننى لا أشعر بأئنى أثقل عليكما ، فمن السهل أن أرى أنكما متحابان ! » .

قلت : « هو ذلك .. إننى أحب أرميلينا ، ولكنها لا تعبنى ، وإنما تعمل على تعذيبى » .

وغادرت الحجرة ، ولكن أرميلينا استدعتنى بعد ربع ساعة ، معلنة عجزهما عن ارتداء ثياب الرجال دون معونتى .. وفيما كنت أساعدها ، ألقت ذراعيها حول عنقى ، وراحت تمطرني بالقبلات .. بينما كانت سكولاستيكا تضحك !



(وهنا تنقطع القصة لغياب بضع صفحات من « مذكرات كازانوفا » ، ولكن القارئ ولا ريب يستطيع أن يدرك بفطنته بقية القصة . وفى أول صفحة بعد الصفحات الغائبة ، نجد « كازانوفا » فى فلورنسا ! .. أما لماذا ترك (روما) ؟ وما الذى صار إليه أمر أرميلينا ؟ .. فلأرجح أن « كازانوفا » نفسه انتزع هذه الصفحات بنفسه ، بأمل أن يعيد كتابتها ، ولكن المرض والموت حالا دون ذلك !

(ومما يؤسف له أن الجزء الضائع من المذكرات ، اشتمل على أسباب نزوح « كازانوفا » إلى (فلورنسا) .. ويبدو أنه لم يفعل ذلك باختياره .. إذ نجد فى أول صفحة بعد ذلك الجزء ، ما يلى) :

كازانوف ينشد حياة هادئة في فلورنسا

.. ولم أسهب في الإيضاح ، وإنما اقتصررت على أن أسأل « الأرشيذوق » الشاب ، أن يمنحني مأوى في دولته ، ولكي أقطع عليه السبيل للإغراق في الأسئلة . ذكرت له الأسباب التي حملتني على أن ألقأ إلى دولته دون سواها واستطردت قائلاً : « أما عن مورد رزقي ، فأتمس من سموكم الملكي أن تطمئنوا إلى أنني لست بحاجة إلى معونة ما ، فإن لدى كفايتي من المال ، وسأكرس وقتي كله للدراسة ! .. ولقد كنت أعرف كل علية القوم هنا ، منذ عشر سنوات . على أنني لن أجدد تعارفي بهم ، لأنني أعترم أن أعيش في هدوء وسكينة ! » .

واطمأنت إلى أن الحاكم الشاب سيقيني كل عدوان ، فاستأجرت غرفتين في منزل رجل طيب ، كانت زوجته قبيحة الشكل ، ولم يكن في ابنته أو ابنة أخيه — التي كانت تقيم في رعايته — ما يجذبني إليهما .. وفي تلك الأثناء ، تعرفت إلى صديق جديد ، يدعى « زانوفيتش » . وكان شاباً مليحاً ، ذا طباع كريمة ، ونفس سهلة ، ومرح فياض .. ولقد تبينت فيه صورة من شبابي ، فتوقعت أن يقع في الأخطاء التي تردت فيها . وقد التقيت في داره بألويس زن . وهو ابن « الكابتن » الذي كان قائداً لقلعة « سانت أندريه » ، عندما سجن فيها يوماً ، وأنا في باكورة شبابي ، على ما رويت من قبل .

على أنني لم أوثق صلتى بأى من هذين الشابين ، ولم أكن ألتقي بهما إلا في الأماكن العامة .. ومع ذلك ، فقد ترتبت الأحداث — التي أوشك أن أرويها — عليهما !

يطرد من فلورنسا .. هي الأخرى !

فلقد زار (فلورنسا) — في تلك الأثناء — اللورد لينكولن ، الابن الأوحيد لدوق نيو كاسل ، على ما أعتقد ، وكان شابا دون العشرين من العمر ، وقد تدله في هوى راقصة من بنات البندقية ، تدعى « لامبيرقي » ، وراح يحوم حولها . فما أن فطن « زانوفيتش » إلى ذلك ، حتى اتصل بالفتاة ، ودبر معها خطة ما ، استطاع بفضلها أن يقود اللورد الفتى إلى دارها . وهناك ، أحاط « زانوفيتش » و « ألويس زن » باللورد الصغير ، واستدرجاه إلى لعب الميسر ، واستطاعا أن يغشاه بمعونة « لامبيرقي » ، فراح اللغام الثلاثة يتقاسمونها معا ، حتى بلغ دين اللورد الفتى لألويس زن وحده ، مبلغ اثني عشر ألفا من الدنانير . وقد دفع لينكولن ثلاثة آلاف منها ، ووقع بالباقي ثلاث وثائق « كمبيالات » على مصرفه في لندن .

ولقد كان اللورد هو الذي أنبأني بكل هذا ، عندما التقيت به في (بولونيا) بعد ذلك بزمان . على أنني في تلك الفترة لم أعرف من الأمر أكثر مما شاع في (فلورنسا) عن أن المصرفي « تاسوتاسي » قد دفع ستة آلاف دينار إلى زانوفيتش ، بأمر من اللورد . لذلك ففى وسع القارئ أن يتصور دهشتي عندما فوجئت — بعد انتشار هذا النبأ بثلاثة أيام — بشخص يقتحم غرفتي ، ويسألني عن اسمي ، ثم يأمرني بأن أبرح أراضي فلورنسا خلال ثلاثة أيام ، وبأن أتجنب أراضي (توسكاني) بعد أسبوع من هذا الإنذار .

وكان ذلك في ٢٨ ديسمبر .. وأسرعت إلى النائب العام ، لأتعرف السبب الذي دعا إلى طردى ، فإذا به نفس الرجل الذي أنذرتني بمبارحة

(فلورنسا) قبل ذلك بأحد عشر يوما ، فأوجست شرا .. وعندما وجهت إليه سؤالاً ، كان جوابه إن هذه كانت رغبة صاحب السمو الملكي « الأرشيدوق » !

« كازانوفا » يكتب تاريخ (بولندا)

ولقد أبرأني رحيلي من فلورنسا ، من مغامرة غرامية كانت خليقة بأن تنتهى إلى نكبة . فقد أحببت أرملة لعوبا ، استطاعت بعثها وغوايتها أن تجردنى من كل عزيمة ، وأن تجردنى فى ركابها ، وأن تزدرينى وتحاول النيل من كرامتى . ولست أدرى ما الذى كان ينتهى إليه أمرى معها ، إذ أننى لم أكن قد ألفت شيخوختى بعد ، ولم أكن قد رُضت نفسى على أننى تجاوزت السن التى كنت فيها مشتتاً لدى الغوانى والحسان !

وبلغت (بولونيا) فى آخر أيام سنة ١٧٧٢ .. وفى أول يوم فى العام الجديد ، زرت الكاردينال برانكافورت ، المندوب البابوى .. وكنت قد التقيت به فى (باريس) قبل عشرين عاماً ، وكثيراً ما ضممتنا معا موائد الحادثات الجميلات .. وفى تلك الأثناء ، كان السنيوردى زاجورى — وهو من نبلاء البندقية المبرزين — يعمل مع بعض الأصدقاء المخلصين على استصدار عفو عني ، كى أعود إلى وطنى .. البندقية . وما لبثوا أن سألونى أن أقيم على مقربة من أراضها . وانتهى الرأى بيننا على أن أقيم فى (تريستا) ، حيث سبقتنى توصيات إلى عليّة قومها .

وقضيت الأيام العشرة الأولى — لإقامتى هناك — فى مراجعة المذكرات التى كنت قد جمعتها فى (بولندا) ، ثم شرعت فى كتابة تاريخ القلاقل

والاضطرابات التى أدت إلى ما كان يجرى — فى تلك الآونة — من تقسيم تلك الدولة المتعسة !

و كنت قد توقعت هذا المصير ، منذ اعترف أمير بولندا بالقيصرية إليزابيث بيتروفنا إمبراطورة على كل الأراضى الروسية ، وحاكم براندنبورج المنتخب ملكا على بروسيا . ولم يقدر لى أن أصدر سوى ثلاثة مجلدات من هذا المؤلف ، ثم حال جشع الناشرين دون طبع المجلدات الأربعة الباقية ، التى ستوجد بين أوراقى بعد مماتى .

.. ويقوم بتجديد المعاهدات التجارية لبلاده !

وفى أول ديسمبر سنة ١٧٧٣ ، استدعانى البارون « بيتونى » إلى داره ، لأقابل شخصا وصل لفوره من البندقية . فهرعت إلى داره ، وهناك التقيت برجل مليح ، أنيق ، يتراوح عمره بين الخامسة والثلاثين والأربعين ، أدركت لفورى أنه السنيور دى زاجورى ، الذى تبنى قضيتى دون أن يكون على معرفة سابقة بى . وعن طريقه تعرفت إلى قنصل البندقية فى (تريستا) ، وكان شيخا جليلا ، سعدت بصداقته طيلة العامين اللذين قضيتهما فى تريستا .. وأعتقد أنه ساهم بنصيب وافر من الجهود لإعادتى إلى وطنى .. وهى الأمنية التى كنت أعيش من أجلها . فقد اشتد بى الحنين إلى وطنى فى السنوات الأخيرة .

ومارست فى تريستا حياة هادئة ، لا سيما وأن مواردى كانت من التناقص بحيث اضطرتنى إلى أن ألتزم الاقتصاد الشديد . ولقد أديت خلال العامين خدمات لوطنى ، بالتعاون مع القنصل . إذ عملت على مراجعة بعض

المعاهدات التجارية القديمة ، وعلى تجديدها ، مما عاد على دولة البندقية بفوائد
جمّة ، تلقيت عنها منحة مالية ، ومعاشا شهريا قدره عشرة دنائير
فساعدنى هذا على أن أتخفف من بعض التقتير فى عيشى .
على أن المعنى الأدبى لهذا التقدير من السلطات التى حرمتنى من قبل من
حريتى ، واضطرتنى — بعد إذ أبيت البقاء فى السجن ظلما — إلى أن أبقى
مبعدا عن وطنى .. كان المعنى الأدبى لهذا التقدير يفوق كل قيمة مادية . وقد
حدث — حوالى ذلك الوقت — أن جاء القائد البندقى « بالمانوفا » إلى تريستا ،
فى زيارة حاكمها ، مستصحبها النائب العام « أريتزو » . وقد التقيت بهما فى
دار القنصل الفرنسى .

يحترم أحكام ظالميه !

وكان الزائران يعترضان أن يقوما — بعد ذلك مباشرة — بزيارة سفينة
حربية تابعة للبندقية فى تريستا . فدعتنى ابنة القنصل لمرافقتهم ، ولكننى أجبته
— ضاحكا — بأن من المحرم علىّ ، منذ سنوات طوال — أن أطأ أرضا تابعة
للبنديّة . فصاح كل الموجودين إذ ذاك ، مستنكرين هذا الحرمان ، وأصروا
على أن أصحبهم . ولكننى قلت : « إذا وعدنى السيدان — أقصد القائد
والمدعى العام — بأن لا يصل النبأ إلى ديوان التفتيش فيعتبر خرقا منى لحكم
سابق ، فلا بأس لدى ! » .

ووجهم الحضور إزاء قولى هذا ، واضطروا إلى الذهاب بدونى .. على أن
المدعى العام هنأنى — فى اليوم التالى — على حكمتى ، وأكد لى أنه سيرفع إلى
محكمة التفتيش هذا النبأ عن احترامى لأحكامها !

(وهنا تنتهى فجأة مذكرات « جياكومو كازانوفا » ، شيفالييه دى سينجال ، وفارس الحرية الذهبية ، والمغامر العالمى .. وليس ثمة ما يجزم بما إذا كان قد مات قبل أن يتم مذكراته ، أو أنه أعدم بنفسه القسم الأخير منها ، أو أن الموكلين بمراجعة مؤلفاته استبعدوا هذا الجزء ، أو أن مخطوطاته وقعت فى أيديهم تكن أمينة عليها أو معنية بها ..

(على أن ما يمكن الجزم به ، هو أن كازانوفا ظفر بالعفو أخيرا ، فعاد إلى البندقية ، حيث استخدم كعضو سرى فى ديوان التفتيش ، أو — بتعبير أكثر صراحة — كجاسوس ! .. على أنه أخفق فى هذه المهمة سواء عن اشمئزاز منه ، أو بسبب كبر سنه ، وتداعى قواه العقلية . ومن ثم فقد بارح البندقية — مرة أخرى — فزار (فيينا) ثم (باريس) ، حيث التقى بالكونت الأمير فالنشتاين ، الذى أعجب به ، فعينه أمينا لمكتبته فى حصن دو كس ، بالقرب من (تيلتزر) وفى هذه المكتبة قضى كازانوفا الأربعة عشر عاما التى بقيت له فى الحياة ! (ولقد قضى السنوات الأخيرة من عمره ، فى آلام من جراء الكهولة ، ومن انهيار أعصابه ، واتساع الهوة بين عقليته وعقلية الجيل الجديد ، لا سيما وأن الآراء المتحررة بدأت تسود أوروبا بأسرها ، بعد الثورة الفرنسية .. ولقد جاءه الموت كمنقذ خلصه من المتاعب البدنية والعقلية التى كان يعانها . وكان آخر ما قاله : « لقد عشت يا إلهى العظيم ، ويا من تشهدون موتى ، فى أحضان الفلسفة .. وإني لأموت على دين المسيح » !

حلمى مراد يقدم من كنوز كتب التراث

١ — رسالة الغفران : وكتب أخرى

- ١ — رسالة الغفران
- ٢ — الكوميديا الإلهية
- ٣ — جمهورية أفلاطون

٢ — الأمير : وكتب أخرى

- ١ — الأمير
- ٢ — يوتوبيا
- ٣ — المدينة الفاضلة
- ٤ — نظرية التطور
- ٥ — أصل الإنسان

٣ — العقد الاجتماعى : وكتب أخرى

- ١ — العقد الاجتماعى
- ٢ — الإلياذة
- ٣ — الأوديسة
- ٤ — إميل

٤ — سالومی : ومسرحیات أخرى

- ١ — سالومی
- ٢ — المريض بالوهم
- ٣ — تزويض الزوج
- ٤ — سيرانو دي برجراك

٥ — جو كندا : ومسرحیات أخرى

- ١ — جو كندا
- ٢ — هر نانی
- ٣ — الحب الآثم
- ٤ — الجنس الآلى
- ٥ — سر سيدة القصر
- ٦ — الأم

٦ — مدرسة الأرامل : ومسرحيات أخرى

- ١ — جوديث
- ٢ — الهاربة من الفضيحة
- ٣ — رجل الأقدار
- ٤ — كاليجولا
- ٥ — مدرسة الأرامل

حلمى مراد يقدم من مكتبة الأعلام

٧ — الكسندر ديماس

- | | |
|-------------------|-----------------------|
| ١ — الكسندر ديماس | (من أعلام الأدب) |
| ٢ — لويس باستير | (من أعلام الطب) |
| ٣ — تشايكوفسكى | (من أعلام الموسيقى) |
| ٤ — مايكل أنجلو | (من أعلام الفن) |
| ٥ — مختار | (من أعلام النحت) |
| ٦ — نيتشة | (من أعلام الفلسفة) |
| ٧ — ماركونى | (من أعلام الاختراع) |

٨ — مروحة الليدى وندرمير : ومسرحيات أخرى

١ — مروحة الليدى وندرمير

٢ — خطايا الحب

٣ — عذراء الغابة

٤ — العدالة

٥ — البطل لوسيد

رقم الإيداع ٧٠٠٦ / ٩٤

I . S . B . N

977 - 11 - 0866 - 2

دار مصر للطباعة
معيد جودة السحار وشركاه

حلى مراد يقدم كنوز كتب التراث

- | | |
|--------------------------|---------------------------|
| ١ - رسالة الغفران | ١٠ - حياتى مع بيكاسو |
| ٢ - الأمير | ١١ - أوسكار وايلد |
| ٣ - العقد الاجتماعى | ١٢ - موزار (وأعلام آخرون) |
| ٤ - سالومى | ١٣ - ملكات ونساء |
| ٥ - جيوكندا | ١٤ - الأسلحة والإنسان |
| ٦ - مدرسة الأرامل | (ومسرحيات أخرى) |
| ٧ - ألكسندر ديماس | ١٥ - الملك أوديب |
| ٨ - مروحة اللادى وندرمير | ١٦ - دكتور فاوست |
| ٩ - مذكرات كازانوف | ١٧ - ليدى هاملتون |

Bibliotheca Alexandrina



0293914

الثمن ٤٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد حمده السحار وشركاه

To: www.al-mostafa.com